تثبيت الإيمان في النفوس

أو:

رِيُّ الظمآن

من أركان الإيمان

تأليف الفقير إلى عفو ربه الغني

ماجد بن سليمان الرسي

جمادى الأولى ١٤٣٤ هـ

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد:

فإن الإيمان عند أهل السنة والجماعة يقوم على ستة أركان ، وهي الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، خيره وشره.

وهذه الأركان الستة هي أصول العقيدة الإسلامية ، فمن فهمها فهما صحيحا ، موافقا لفهم السلف الصالح ، من الصحابة والتابعين ، أصحاب القرون الثلاثة المفضلة الأولى ، التي شهد لها النبي ﷺ بالخيرية ؛ فقد انفتح له باب عظيم من أبواب العلم والعمل.

والدليل على هذه الأركان الستة قوله تعالى ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾[1] ، وقوله تعالى ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾[2] الآية.

ودليل الإيمان بالقدر قوله تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.[3]

ومن السنة حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ؛ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال: يا محمد ، أخبرني عن الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا.

قال: صدقت.

قال: فعجبنا له ؛ يسأله ويُصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان.

قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره.

---

[1] سورة البقرة: ١٧٧ .

[2] سورة البقرة: ٢٨٥ .

تنبيه: لما كانت سورة البقرة تحوي أصول الإيمان كان شأنها عظيما ، فإنها في الدنيا لا تستطيعها السحرة ، أي لا تُطيق سماعها ، ولا ينفُذ سحرُهم فيمن حافظ عليها ، وفي الآخرة تأتي كأنها سحابة تظلل صاحبها.

[3] سورة القمر : ٤٩ .

وفي آخر الحديث قال النبي ﷺ لعمر: يا عمر ، أتدري من السائل؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم.[1]

وفي هذا البحث المختصر ؛ وددت أن أشارك مشاركة متواضعة بشرح ميسر شامل لأركان الإيمان ، أسأل الله أن ينفع به كاتبه وقارئه ، والله أعلم ، وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

وكتبه ، ماجد بن سليمان الرسي

صبح الجمعة ، الثالث من شهر ذي الحجة لعام ١٤٣٣ هجري

هاتف: ٠٠٩٦٦٥٠٥٩٠٦٧٦١

المملكة العربية السعودية

www.saaid.net/book ، majed.alrassi@gmail.com

[1] رواه مسلم (٨).

مقدمات في الإيمان[1]

تعريف الإيمان لغة: الإيمان لغة يتضمن معنيين ؛ الأول هو التصديق كما في قوله تعالى ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾[2] ، أي صدّقوا بما أنزل إليهم من ربهم.

والمعنى الثاني هو (أَقَرَّ له) ، وذلك إذا عُدِّي لفظ الإيمان باللام ، كما في قوله تعالى عن إخوة يوسف لأبيهم ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾[3] ، وقوله ﴿فآمن له لوط﴾[4] ، أي: أَقَرَّ له.

تعريف الإيمان شرعا: اعلم رحمك الله أن عبارات السلف الصالح قد تنوعت في تعريف الإيمان ، ومجمل تعريفاتهم له تدور على أن الإيمان قولٌ باللسان ، واعتقادٌ بالجنان[5] ، وعملٌ بالأركان[6] ، يزيد بالطاعة ، وينقُص بالعصيان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[7] رحمه الله في كلام له في معنى الإيمان:

إن الإيمان هو الإقرار لا مجرد التصديق ، والإقرار ضُمِّن قول القلب الذي هو التصديق ، وعمل القلب الذي هو الانقياد.[8]

فعلى هذا **فالإيمان في الشرع يتضمن** التصديق والانقياد ، فلا يصح حصر الإيمان بالتصديق فقط ، إذ لابد من الإقرار والطمأنينة ، فقد صدّق أبو طالب عمُّ النبي ﷺ بنبوة ابن أخيه ﷺ ، ولكن لم يُقِر له

---

[1] للأمانة العلمية ، فقد استفدت كثيرا من هذه المقدمات من كتاب «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» ، للشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي رحمه الله ، وسيأتي التعريف به قريبا إن شاء الله.

[2] سورة البقرة: ٢٨٥ .

[3] سورة يوسف: ١٧ .

[4] سورة العنكبوت: ٢٦ .

[5] أي القلب.

[6] أي الجوارح ، وهي الأطراف والحواس.

[7] هو الإمام العلامة البحر الفقيه ، شيخ الإسلام حقا ، أبو العباس ، تقي الدين ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ، الحراني ثم الدمشقي ، الملقب بابن تيمية ، جدد دين الإسلام بعدما استحكمت غربته ، وأظلمت الدنيا بالبدع الكلامية وخرافات الصوفية وشركيات القبورية وإلحاد الفلاسفة والرافضة ، فجدد الدعوة للإسلام الصافي على منهاج الكتاب والسنة ، وجهر بالحق ، وناظر أهل الباطل ، وتحمل السجن في سبيل ذلك ، فكتب الله لعلمه القبول ، وسارت بمصنفاته الركبان ، وصار من بعده من علماء السنة عيالا عليه ، أما تلاميذه فصار بعضهم من أئمة الإسلام ، كابن القيم وابن كثير والذهبي وابن عبد الهادي وغيرهم ، توفي رحمه الله سنة ٧٢٨ هـ ، وقد جمع بعض المحققين أقوال من ترجم له في جامع نفيس ، ووسموه بـ «الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون» ، بإشراف الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله ، ونشرته دار عالم الفوائد – مكة ، فليرجع إليه من أراد الاستزادة.

[8] «مجموع الفتاوى» (٦٣٨/٧ – ٦٣٩) ، وقد بحث رحمه الله عقيدة الإيمان بحثا مستفيضا في كتابه «الإيمان» ، وهو مطبوع مستقلا ، ويقع أيضا في «مجموع الفتاوى» (٤/٧ – ٤٦١) ، وانظر أيضا «مجموع الفتاوى» (٦٤٢/٧) وما بعدها.

بالإسلام ويتبعه ويطمأن قلبه بالإيمان به ، واستمر على ذلك إلى أن مات ، وفي هذا أنزل الله قوله تعالى ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾[1].

وهكذا بعض الكفار اليوم يؤمنون بنبوة محمد ﷺ ، ويُسمّونه بذلك ، أي بالنبي محمد ، وهم باقون على دين قومهم ، لم يُقِروا بالشهادتين ويعملوا بمقتضاها.

وكذلك النفر من اليهود ، الذين جاؤوا إلى النبي ﷺ وسألوه عن أشياء فأخبرهم ، فقالوا نشهد أنك نبي ، ولم يقروا بالإيمان به ولم يتبعوه.

بل اليهود الذين كانوا في عهد النبي ﷺ كانوا يعرفون أنه نبي كما يعرفون أبنائهم ، كما حكى الله عنهم ذلك في آيات من سورة البقرة ، ومع هذا حكم الله عليهم بالكفر لأنهم لم يتبعوه وينقادوا لشريعته.

وهناك من يقول إنه لا يضر اختلاف الملل إذا كان المعبود واحدا ، ويرى أن النجاة في الآخرة تحصل بمتابعة الرسول ﷺ وبغير متابعته ، كما هو قول الفلاسفة الصابئة ، وهو دين التتار ومن دخل معهم ، مع كونهم صدقوا الرسول ﷺ وأطاعوه في أمور أتى بها ، وهذا مذهب خبيث باطل ، إذ لا نجاة للعبد يوم القيامة إلا بعبادة الله وحده ، ومتابعة الرسول ﷺ وحده ، والكفر بما يُعبد من دونه.[2]

وفي قصة هِرقل عظيم الروم عبرة ، فقد سأل عن النبي ﷺ ، فلما علِم أنه نبي وتيقن من خروجه وظهور أمره ؛ رأى أن يبايعه على الإيمان ، ونادى عظماء قومه ليبايعوه ، وقال لهم: يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرُّشد ، وأن يثبت ملككم ، فتُبايعوا لهذا النبي؟

فأبَوا ، فخاف نكولهم عن طاعته ، فنكص على عقبيه وقال: إني قلت مقالتي آنفا أختبر بها شِدتكم على دينكم!

وكان مما قاله هرقل لأبي سفيان: إن يكن ما تقول فيه حقا فإنه نبي ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم[3] ، ولو أني أعلم أني أخلُص[4] إليه لأحببت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي.[5]

والشاهد من القصة أنّ عِلْمَ هِرقل بأن محمدا ﷺ نبي لم يدخله في الإيمان لأنه لم يَنْقدْ له ، لكونه استحب الحياة الدنيا على الآخرة ، وخشِي ذهاب ملكه ونكول قومه عن طاعته ، نعوذ بالله من الخذلان.

---

[1] سورة القصص: ٥٦ .

[2] انظر «مجموع الفتاوى» (٦٣٩/٧).

[3] أي العرب.

[4] أي أصل إليه.

[5] رواه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

ثم إنه لو كان الإيمان هو التصديق فقط بدون انقياد ؛ لكان إبليس مؤمنا ، لأنه يعلم الحق من الباطل ، ولكنه لم يَنْقدْ للحق استكبارا عليه.

فصل في زيادة الإيمان ونقصانه

ومن عقائد أهل السنة والجماعة في الإيمان أنه يزيد وينقص ، ويقوى ويضعف ، ودليل هذا قوله تعالى ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا﴾[1] ، وقوله ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون﴾[2].

وروى ابن أبي شيبة في كتاب «الإيمان» عن علقمة بن قيس النخَعي[3] أنه كان يقول لأصحابه: امشوا بِنا نزداد إيمانا.[4]

والإيمان يتفاوت في قلوب الناس بتفاوت ما عندهم من العلم والعمل ، فالمؤمنون الكُمّل عندهم من حسن الاعتقاد والقيام بما أمرهم الله به من الأعمال الصالحة من فرائض ونوافل وأخلاق حميدة وإحسان إلى الخلق ما يُثَبِّت الإيمان في قلوبهم ويُنمِّيه ، وعندهم كذلك من المعرفة بشبهات أهل الباطل والجواب عنها ما يجعل لإيمانهم حصانة مما يُضعفه أو يُزيله.

أما ضعيفو الإيمان ، وهم غالب الناس ؛ فعندهم علوم ضعيفة مجملة ، وأعمال صالحة قليلة ، وربما ادمنوا بعض السيئات ، مما يجعل جذوة الإيمان في قلوبهم ضعيفة ، والله الهادي.

والحِسُّ يدُلُّ على تفاوتِ الإيمانِ في قلب المؤمن ، فإن المؤمن يجد في إيمانه قوةً إذا اشتغل بالطاعات ، وفي أحيانٍ أخرى يشعر بالضعف إذا فتَر عنها.

تقرير السلف الصالح لمسألة أن الأعمال من الإيمان ، وأن الإيمان يزيد وينقص

روى الإمام أبو بكر ، محمد بن الحسين الآجري[5] في كتابه «الشريعة» في باب «ذكر ما دل على زيادة الإيمان ونقصانه» ، آثارا عن السلف الصالح في أن الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، منها قول مالك بن

---

[1] سورة الأنفال: ٢ .

[2] سورة التوبة: ١٢٤ .

[3] علقمة بن قيس النخعي ، ثقة ثبت فقيه عابد ، من أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

[4] رقم (١٠٤) ، وحسن إسناده الألباني في تحقيقه عليه ، والكتاب من منشورات المكتب الإسلامي – بيروت.
ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه «٣٠٣٥٣» ، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٧).

[5] هو أبو بكر ، محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري ، الفقيه الشافعي المحدث ، شيخ الحرم الشريف ، صاحب التواليف المفيدة ، مات سنة ٣٦٠ هـ . انظر ترجمته في «السير» (١٣/١٣٣) و «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤/٢٩٢).

أنس وأحمد بن حنبل ووكيع بن الجراح وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة ومعمر وابن جريج: «الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص».

ثم قال في باب «القول بأن الإيمان تصديق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالجوارح ، لا يكون مؤمنا إلا بأن تجتمع فيه هذه الخصال الثلاث»:

«اعلموا – رحمنا الله وإياكم – أن الذي عليه علماء المسلمين أن الإيمان واجب على جميع الخلق ، وهو تصديق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالجوارح.

ثم اعلموا أنه لا تُجْزىء المعرفة بالقلب والتصديق إلا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقًا ، ولا تُجْزىء معرفة بالقلب ونطق باللسان حتى يكون عمل بالجوارح ، فإذا كملت فيه هذه الثلاث الخصال كان مؤمنا ، دلّ على ذلك القرآن والسنة وقول علماء المسلمين».

ثم ذكر الأدلة على ذلك من القرآن العزيز ، ثم قال:

«اعلموا – رحمنا الله وإياكم – يا أهل القرآن ، ويا أهل العلم ، ويا أهل السنن والآثار ، ويا معشر من فقَّههُم الله تعالى في الدين بعلم الحلال والحرام ؛ أنكم إن تدبرتم القرآن كما أمركم الله تعالى علِمتم أن الله تعالى أوجب على المؤمنين بعد إيمانهم به وبرسوله ؛ العمل ، وأنه تعالى لم يُثْن على المؤمنين بأنه قد رضي عنهم ، وأنهم قد رضوا عنه ، وأثابهم على ذلك الدخول إلى الجنة والنجاة من النار إلا بالإيمان والعمل الصالح ، وقَرَنَ مع الإيمان العمل الصالح ، لم يدخلهم الجنة بالإيمان وحده حتى ضم إليه العمل الصالح الذي قد وفقهم له ، فصار الإيمان لا يتم لأحد حتى يكون مُصدِّقا بقلبه وناطقا بلسانه وعاملا بجوارحه ، لا يخفى على من تدبر القرآن وتصفَّحه وجده كما ذكرت.

واعلموا – رحمنا الله وإياكم – أني قد تصفَّحتُ القرآن فوجدت فيه ما ذكرته في ستة وخمسين موضعا من كتاب الله عز وجل ، أن الله تبارك وتعالى لم يُدخل المؤمنين الجنة بالإيمان وحده ، **بل أدخلهم الجنة برحمته إياهم وبما وفقهم له من الإيمان به والعمل الصالح** ، وهذا رد على من قال: (الإيمان: المعرفة) ، ورد على من قال: (المعرفة والقول وإن لم يعمل) ، نعوذ بالله من قائل هذا».

ثم ذكر أدلة كثيرة على ذلك من القرآن العزيز ، ثم قال:

«ميِّزوا – رحمكم الله – قول مولاكم الكريم ، هل ذُكِر الإيمان في موضع واحد من القرآن إلا وقد قُرِن إليه العمل الصالح؟

وقال تعالى ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾[1] ، فأخبر تعالى بأنّ الكلِم الطيب حقيقتُه أن يُرفع إلى الله تعالى بالعمل الصالح ، فإن لم يكن عملٌ بطل الكلام مِن قائله ورُدَّ عليه ، ولا كلام أطيبُ وأجلُّ من التوحيد ، ولا عمل من أعمال الصالحات أجلُّ من أداء الفرائض».

ثم ذكر بعض الآثار عن بعض السلف في تقرير أن العمل يصدق الكلام ، ثم قال:

«وكذلك ذكر الله تعالى المتقين في كتابه في غير موضع منه ودخولهم الجنة ، فقال ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾[2]، وهذا في القرآن كثير ، يطول به الكتاب لو جمعته ، مثل قوله في الزخرف ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾[3] ، ومثل قوله في سورة ق[4] ، والذاريات[5] ، والطور ، مثل قوله ﴿كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون﴾[6] ، وقال في سورة المرسلات ﴿إن المتقين في ظلال وعيون * وفواكه مما يشتهون * كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون﴾[7].

كل هذا يدل العاقل على أن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني ، ولكن ما وقر في القلوب وصدّقته الأعمال ، كذا قال الحسن وغيره».

ثم ذكر طائفة من أقوال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم في تقرير قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح ، ثم قال:

«فيما ذكرتُهُ مَقْنَعٌ لمن أراد الله عز وجل به الخير ، فعَلِم أنه لا يتم له الإيمان إلا بالعمل ، هذا هو الدين الذي قال الله عز وجل فيه ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾[8]». انتهى باختصار يسير.

قلت: وهكذا قال الإمام الحافظ أبو القاسم ، هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي[9] ، فقد قرر في كتابه العظيم «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم»[10] أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح ، قرر ذلك في نحو من ثلاثين

---

[1] سورة فاطر: ١٠ .

[2] سورة النحل: ٣٢ .

[3] سورة الزخرف: ٧٢ .

[4] أي الآيات ٣٢ – ٣٣ .

[5] أي الآيات ١٦ – ١٩ .

[6] سورة الطور: ١٩ .

[7] سورة المرسلات: ٤١ .

[8] سورة البينة: ٥ .

[9] ستأتي ترجمته في قسم الإيمان بأسماء الله وصفاته

[10] قام بتحقيقه د. أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي ، وهو من منشورات دار طيبة – الرياض.

صفحة ، وذكر الأخبار الدالة على ذلك من الكتاب والسنة وكلام الصحابة وأئمة التابعين ، ثم ذكر من قال به من فقهاء الأمصار.[١]

ثم عطف على مسألة زيادة الإيمان ونقصانه ، فقررها في نحو من أربعين صفحة[٢] ، بذكر الآيات والأحاديث والآثار الواردة في ذلك عن السلف ، فرحمه الله وجزاه خيرا.

وكذا قال الإمام أبو عبد الله بن بطة العكبري[٣] في كتابه «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة»[٤] ، فقد عقد بابا أسماه «باب بيان الإيمان وفرضِه ، وأنه تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح والحركات ، لا يكون العبد مؤمنا إلا بهذه الثلاث» ، وساق الأدلة الشرعية في تقرير ذلك ، كما فعل الآجري واللالكائي ، فذكر الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال السلف ، ثم عطف بذكر من أفتى بذلك من فقهاء الأمصار ، من أهل مكة والمدينة واليمن ومصر والشام والكوفة والبصرة وواسط وأهل المشرق والجزيرة ، من أصحاب القرون الثلاثة المفضلة الأولى ، ومما قاله رحمه الله في تقرير أن عمل الجوارح من الإيمان:

فرَض الله الإيمان على جوارح ابن آدم ، وقسّمه عليها وفرّقه فيها ، فليس من جوارحه جارحة إلا وهي مُوكلة من الإيمان بغير ما وُكِلت به صاحبتها ، فمنها قلبه الذي يعقل به ويتقي به ويفهم به ، وهو أمير بدنه الذي لا ترِد الجوارح ولا تصدر إلا عن رأيه وأمره ، ومنها لسانه الذي ينطق به ، ومنها عيناه اللتان ينظر بهما ، وسمعه الذي يسمع به ، ويداه اللتان يبطش بهما ، ورجلاه اللتان يخطو بهما ، فليس من هذه جارحة إلا وهي مُوكلة من الإيمان بغير ما وُكِلت به صاحبتها بفرض من الله تعالى ، ينطق به الكتاب ويشهد به علينا.[٥]

ثم ذكر أدلة القرآن على ما فرض الله على القلب واللسان والجوارح ، جارحة جارحة.[٦]

ثم عطف بعد ذلك بتقرير أن الله لم يعد المؤمنين بالثواب الجزيل في الجنة إلا بأعمالهم الصالحة[٧] ، واحتج بالآيات التي احتج بها الآجري والتي نقلناها آنفا ، ومما قاله:

---

[١] انظر الصفحات من (٩١١-٩٣٣) ، (٩٥٥-٩٥٩).

[٢] انظر الصفحات من (٩٦٠-٩٨٠) ، (١٠١٢-١٠٣٦).

[٣] هو عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان ، أبو عبد الله العكبري ، المعروف بابن بطة ، مات سنة ٣٨٧ هـ . انظر «طبقات الحنابلة» (٢٥٦/٣).

[٤] طبع بتحقيق عدة محققين ، وهو أربعة أقسام: كتاب الرد على الجهمية ، وكتاب الإيمان ، وكتاب القدر ، وكتاب فضائل الصحابة ، وهو من منشورات دار الراية – الرياض.

[٥] كتاب الإيمان ، ص ٧٦٥ ، باختصار يسير.

[٦] انظر الصفحات من (٧٦٠-٧٧٩).

[٧] انظر الصفحات من (٧٨٠-٧٩٥).

﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾[1] ، ولم يقل: بما كنتم تقولون.
وقال ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾[2] ، ولم يقل: أحسن قولا.

ثم عطف بذكر الأخبار الدالة على أن الإيمان قول اللسان واعتقاد القلب وعمل الجوارح من أحاديث المصطفى ﷺ وآثار السلف الصالح رضي الله عنهم ، في نحو من ثلاثين صفحة.[3]
ثم عطف بذكر أدلة الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح في زيادة الإيمان ونقصانه في نحو من ثلاثين صفحة.[4]

وهكذا الإمام أبو بكر ، أحمد بن محمد الخلال[5] في كتابه «السنة»[6] ، فقد عقد أبوابا عدة رد فيها على المرجئة ، الذين ينكرون أن الأعمال من الإيمان ، وينكرون أيضا أن الإيمان يزيد وينقص ، فرد عليهم قولهم ، وقرر اعتقاد أهل السنة في هذا الباب ، مستندا على آيات الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح.[7]

وهكذا الإمام أبو عبيد القاسم بن سَلاَّم[8] ، المتوفى سنة ٢٢٤ هجرية ، فقد قرر في مقدمة كتابه «الإيمان ومعالمه وسننه واستكماله ودرجاته»[9] أن الإيمان قول وعمل ، وأنه يزيدُ وينقُصُ ، معتمدا في ذلك على آيات وأحاديث وآثار رواها بإسناده عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين.

ونختم بخلاصة للإمام الحسين بن مسعود البغوي[10] في هذا الباب ، حيث قال:

اتفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان ، لقوله سبحانه وتعالى ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ إلى قوله ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾[11] ، فجعل الأعمال كلها إيمانا ، وكما نطق به حديث أبي هريرة[1].

---

[1] سورة الزخرف: ٧٢ .

[2] سورة الملك: ٢ .

[3] انظر الصفحات من (٧٩٦-٨٢٧).

[4] انظر الصفحات من (٨٣١-٨٦١).

[5] ستأتي ترجمته إن شاء الله في فصل الإيمان بالأسماء والصفات.

[6] طبع بتحقيق عدة محققين ، وهو من منشورات دار الراية – الرياض.

[7] انظر (٣/٥٦٢-٥٩٣).

[8] ستأتي ترجمته قريبا في قسم الإيمان بالأسماء والصفات.

[9] طبع هذا الكتاب بتحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله ، وهو من منشورات المكتب الإسلامي – بيروت.

[10] هو الحافظ الثقة الكبير مسند العالم ، أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان البغوي الأصل ، البغدادي ، مات سنة ٣١٧ هـ ، انظر «تذكرة الحفاظ» (٢/٢١٧).

[11] سورة الأنفال: ٢ .

وقالوا: إن الإيمان قولٌ وعملٌ وعقيدةٌ ، يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية ، على ما نطق به القرآن في الزيادة[٢] ، وجاء في الحديث بالنقصانِ في وصف النساء[٣]. انتهى.[٤]

فصل في بيان اهتمام السلف بمسألة الإيمان

هذا ، وقد اعتنى السلف الصالح رحمهم الله ومن تبعهم على الحق بمسألة الإيمان ، وألَّفوا فيها مؤلفات كثيرة ، أهمها ما ذكرناه آنفا ، ومنها أيضا كتاب «الإيمان»[٥] لأبي بكر بن أبي شيبة[٦] ، وكتاب «الإيمان»[٧] للحافظ محمد بن إسحاق بن منده[٨] ، رحمهم الله جميعا.

ومن كتب المتأخرين كتاب «الإيمان»[٩] لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وكذا كتاب «الكلام على حقيقة الإسلام والإيمان»[١٠] له ، رحمهم الله جميعا.

وقد جمع الباحث عبد العزيز بن عبد الله المبدل أقوال التابعين في مسائل الإيمان في كتاب واحد ، ووسمه «أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان»[١١] ، فجزاه الله خيرا.

فصل في شعب الإيمان

اعلم – رحمني الله وإياك – أن **الإيمان له شعب ، أي فروع** ، وهذه الشعب منها ما هو من الأركان التي لا يقوم الإيمان إلا عليها ، ومنها ما هو من لوازم الإيمان التي لا يقوم الإيمان إلا بها ، كمحبة الله ومحبة رسوله ، ومنها ما هو من مقتضيات الإيمان ، وهي الأعمال ، كالصدقة وإماطة الأذى عن الطريق ، هذه ثلاثة أقسام لشعب الإيمان.

---

[١] يعني حديث: الإيمان بضع وسبعون شعبة ... الحديث.

[٢] يعني كقوله ﴿ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم﴾.

[٣] يعني حديث: (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لِـلُبِّ الرجل الحازم من إحداكن) ، واللب هو العقل.
رواه البخاري (٣٠٤) عن أبي سعيد الخدري ، ومسلم (٧٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

[٤] «شرح السنة» (١/٣٨-٣٩) ، تحقيق: زهير الشاويش ، الناشر: المكتب الاسلامي – بيروت.

[٥] طبع هذا الكتاب بتحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله ، وهو من منشورات المكتب الإسلامي – بيروت.

[٦] هو الحافظ الثبت النحرير أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي ، مولاهم الكوفي ، صاحب المسند والمصنف وغير ذلك ، مات سنة ٢٣٥ هـ ، انظر «تذكرة الحفاظ» (٢/١٣).

[٧] طبع هذا الكتاب بتحقيق د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي ، وهو من منشورات دار الفضيلة – الرياض.

[٨] هو الإمام الحافظ الجوال محدث العصر أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده ، توفي سنة ٣٩٥ هجري ، انظر «تذكرة الحفاظ» (٣/١٥٧).

[٩] طبع هذا الكتاب بتحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله ، وهو من منشورات المكتب الإسلامي – بيروت.

[١٠] طبع هذا الكتاب بتحقيق محمود حسن أبو ناجي الشيباني.

[١١] وهو من منشورات دار التوحيد – الرياض.

وقد جاء تفسير الإيمان بالعقائد – التي هي أعمال القلوب – في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾[1] الآية ، وقوله تعالى في المؤمنين ﴿وحبب إليكم الإيمان وزينه في **قلوبكم**﴾[2] ، وقوله تعالى ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في **قلوبكم**﴾[3].

كما أنه قد جاء تفسير الإيمان بأعمال الجوارح في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى ﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾[4].

وهاتان الآيتان صريحتان في أن الإيمان يشمل العقائد — التي هي أعمال القلوب – وأعمال الجوارح.
فأما ما يختص بالعقائد فالآية الأولى تقرره ، وهي قوله تعالى ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ ، ويدخل فيه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.
وأما أعمال الجوارح فتقرره بقية الآيات التي وصفت المؤمنين ، وهي نوعان ؛ أفعال وتُروك ، فأما الأفعال فنحو قوله تعالى ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ ، وقوله ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ ، أي فعلوا هذه الطاعات.

وأما التُّروك فنحو قوله تعالى ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾.

ففسّر الله الإيمان بهذه الخصال والأعمال ، مما يدل على أن القيام بالواجبات الظاهرة والباطنة ، واجتناب المحرمات والمكروهات ؛ داخل في مسمى الإيمان ، ومن أوصاف المؤمنين حقا.
والإيمان يشمل أيضا الأخلاق والسلوك ، يدل على هذا قوله ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.[5]

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي[1] رحمه الله: «ومن لم يقُم بذلك ويحبُّ لهم ما يحب لنفسه ؛ فإنه لم يؤمن الإيمان الواجب ، بل نَقص إيمانُه بقدر ما نقصَ من الحقوق الواجبة عليه».[2]

---

[1] سورة البقرة: ٢٨٥ .

[2] سورة الحجرات: ٧ .

[3] سورة الحجرات: ١٤ .

[4] سورة المؤمنون: ١ – ١١ .

[5] رواه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥) عن أنس رضي الله عنه.

وعن أبي شريح أن النبي ﷺ قال: والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن.

قيل: ومن يا رسول الله؟

قال: الذي لا يأمن جارُهُ بوائقه[٣].[٤]

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : المؤمن من أمِنَه الناس.[٥]

ومما يدل على شمول الإيمان لجميع ما تقدم من عمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح ؛ قوله ﷺ: الإيمان بضع وسبعون – أو بضع وستون – شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان.[٦]

فقول لا إله إلا الله ؛ عمل اللسان.

وإماطة الأذى عن الطريق عمل الجوارح.

والحياء عمل قلبي ، وهو من الأخلاق ، بل هو سبب لكلِّ خُلُقٍ حَسن ، ورادعٌ عن كل خُلُقٍ قبيح.

وقد جمع القاضي عياض[٧] رحمه الله هذه الشعب البِضع والستين[٨] ، فقال:

هذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال البدن ، فأعمال القلب فيه المعتقدات والنيات ، وتشتمل على أربع وعشرين خصلة:

١. الإيمان بالله ، ويدخل فيه الإيمان بذاته وصفاته ، وتوحيده بأنه ليس كمثله شيء

٢. والإيمان بملائكته

٣. وكتبه

---

[١] هو الشيخ العلامة المفسر الفقيه عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي ، من فحول علماء نجد ، استوطن بلدة عنيزة من مدن القصيم ، ولد عام ١٣٠٧ وتوفي عام ١٣٧٦ هجري ، تتلمذ على يده عدد من الطلبة صاروا فيما بعد من علماء المسلمين ، كالشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل ، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن البسام ، والشيخ محمد بن صالح العثيمين وغيرهم ، رحم الله أمواتهم وحفظ أحيائهم.

انظر ترجمته في كتاب «علماء نجد خلال ثمانية قرون» ، للشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن البسام رحمه الله.

[٢] «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» ، ص ٤٠ .

[٣] بوائقه أي شره ، كما جاء ذلك مفسرا في رواية أخرى ذكرها الإسماعيلي ونقلها ابن حجر في «الفتح».

[٤] رواه البخاري (٦٠١٦).

[٥] رواه ابن حبان (٢٦٤/٢) وأحمد (١٥٤/٣) ، وقال محققو «المسند»: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[٦] رواه البخاري (٩) ومسلم (٣٥) ، واللفظ له ، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٧] هو العلامة عالم المغرب عياض بن موسى بن عياض ، القاضي أبو الفضل اليحصُبي السبتي ، مات سنة ٥٤٤ ، انظر «تذكرة الحفاظ» (٦٧/٤).

[٨] جاء في رواية أخرى أن الإيمان بضع وسبعون شعبة ، وسيأتي الجمع بين اللفظين قريبا إن شاء الله.

٤. ورسله

٥. والقدر خيره وشره

٦. والإيمان باليوم الآخر ، ويدخل فيه المسألة في القبر ، والبعث ، والنشور ، والحساب ، والميزان ، والصراط ، والجنة ، والنار

٧. ومحبة الله

٨. والحب والبغض فيه

٩. ومحبة النبي ﷺ

١٠. واعتقاد تعظيمه ، ويدخل فيه الصلاة عليه واتباع سنته

١١. والإخلاص ، ويدخل فيه ترك الرياء والنفاق

١٢. والتوبة

١٣. والخوف

١٤. والرجاء

١٥. والشكر

١٦. والوفاء

١٧. والصبر

١٨. والرضا بالقضاء

١٩. والتوكل

٢٠. والرحمة

٢١. والتواضع ، ويدخل فيه توقير الكبير ورحمة الصغير

٢٢. وترك الكِبر والعُجب

٢٣. وترك الحسد

٢٤. وترك الحقد

٢٥. وترك الغضب

- وأعمال اللسان ، وتشتمل على سبع خصال:

١. التلفظ بالتوحيد

٢. وتلاوة القرآن

٣. وتعلم العلم

٤. وتعليمه

٥. والدعاء

٦. والذكر ، ويدخل فيه الاستغفار

٧. واجتناب اللغو

- وأعمال البدن ، وتشتمل على ثمان وثلاثين خصلة ، منها ما يختص بالأعيان[١] ، وهي خمس عشرة خصلة:

١. التطهير حِسًّا وحكما ، ويدخل فيه اجتناب النجاسات

٢. وستر العورة

٣. والصلاة فرضا ونفلا

٤. والزكاة كذلك

٥. وفك الرقاب

٦. والجود ، ويدخل فيه إطعام الطعام ، وإكرام الضيف

٧. والصيام فرضا ونفلا

٨. والحج والعمرة كذلك

٩. والطواف

١٠. والاعتكاف

[١] أي المكلَّفين.

١١. والتماس ليلة القدر

١٢. والفِرار بالدين ، ويدخل فيه الهجرة من دار الشرك

١٣. والوفاء بالنذر

١٤. والتحري في الأيمان

١٥. وأداء الكفارات

- ومنها ما يتعلق بالأَتباع[١] ، وهي ست خصال:

١. التعفف بالنكاح

٢. والقيام بحقوق العيال

٣. وبر الوالدين ، وفيه اجتناب العقوق

٤. وتربية الأولاد

٥. وصلة الرحم

٦. وطاعة السادة

٧. أو الرفق بالعبيد

- ومنها ما يتعلق بالعامة ، وهي سبع عشرة خصلة:

١. القيام بالإمرة مع العدل

٢. ومتابعة الجماعة

٣. وطاعة أولي الأمر

٤. والإصلاح بين الناس ، ويدخل فيه قتال الخوارج والبغاة

٥. والمعاونة على البر ، ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

٦. وإقامة الحدود

٧. والجهاد ، ومنه المرابطة

---

[١] أي الذين هم تحت يد المكلف ، من ولد وزوجة ورقيق ونحوه.

٨. وأداء الأمانة

٩. والقرض مع وفائه

١٠. وإكرام الجار

١١. وحسن المعاملة ، ومنه جمع المال من حِلِّه

١٢. وإنفاق المال في حقه ، ومنه ترك التبذير والإسراف

١٣. ورد السلام

١٤. وتشميت العاطس

١٥. وكف الأذى عن الناس

١٦. واجتناب اللهو

١٧. وإماطة الأذى عن الطريق

فهذه تسع وستون خصلة ، ويمكن عدها تسعا وسبعين خصلة باعتبار أفراد ما ضُم بعضه إلى بعضٍ مما ذُكر ، والله أعلم.[١]

وقد عُنِي علماء الإسلام بموضوع شُعب الإيمان واجتهدوا في حصرها ، فمن أولئك الإمام الحسين بن الحسن الحليمي المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، وهو شيخ الإمام البيهقي ، ألف كتاب «المنهاج في شعب الإيمان» ، وهو مطبوع في ثلاث مجلدات[٢] ، وقد اختصره بعض الباحثين في مجلد[٣].

وكذلك الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، المتوفى سنة ٤٥٨ هجري ، فقد ألف كتابا أسماه «شُعب الإيمان» ، جمع فيه شعب الإيمان كما وردت في الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين ، وهو مطبوع في تسع مجلدات[٤].

[١] نقله ابن حجر عنه في «فتح الباري» (١/٦٨-٦٩) في شرح الحديث المتقدم ، باختصار يسير.

[٢] نشرته دار الفكر – لبنان ، بتحقيق حلمي فوده.

[٣] نشرته دار البشائر – دمشق.

[٤] نشرته مكتبة الرشد – الرياض ، بتحقيق عبد العلي عبد الحميد.

وقد اختصره أبو القاسم ، عمر بن عبد الرحمٰن القزويني ، المتوفى سنة ٦٩٩ هـ ، وأسماه «مختصر شعب الإيمان».[١]

واختصره أيضا الشيخ خالد عبد الرحمٰن العك في مجلد واحد ، وأسماه «صحيح شعب الإيمان»[٢].

وكذلك الإمام الحافظ أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي ، فقد جمع شعب الإيمان في كتابه العظيم «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم» ، وبوب له: «باب ذكر الخصال المعدودة من الإيمان ، المروية في الأخبار».[٣]

وممن ألف من المتأخرين في شعب الإيمان سراج الدين ، عمر بن رسلان البلقيني ، المتوفى سنة ٨٠٥ هجرية ، وهو من شيوخ ابن حجر وأبي زرعة العراقي رحمهما الله ، واسم كتابه «تُرجمان شعب الإيمان».[٤]

---

[١] نشرته دار البيان – دمشق ، بتحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط رحمه الله.

[٢] وهو من منشورات المكتب الإسلامي.

[٣] يقع في الصفحات ٩٨١ – ١٠١١ .

[٤] قام بتحقيقه د. سعود بن عبد العزيز الدعجان ، ونشرته مكتبة العلوم والحكم بالمدينة النبوية.

فصل في علامات صدق الإيمان

وليُعلم أن علامة صدق الإيمان بالله تعالى وكماله ؛ تمام الإنقياد لشريعته ، وعدم تقديم هوى النفس والشيطان وآراء الرجال عليها ، كما قال تعالى ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾[1].

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله: وهذا شامل لتحكيمه[2] في أصول الدين ، وفي فروعه ، وفي الأحكام الكلية ، والأحكام الجزئية.[3]

وقال الحسن البصري رحمه الله: إن الإيمان ليس بالتمني ولا بالتحلي ، ولكنه ما وقر في القلوب وصدّقته الأعمال.[4]

ومن علامات صدق الإيمان وكماله ؛ تقديم محبة النبي ﷺ على محبة الناس أجمعين ، كما قال ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين.[5]

ومن دلائل صدق الإيمان وكماله ؛ الحب والبغض لله ، والعطاء والمنع لله ، والدليل على هذا قول النبي ﷺ : من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ؛ فقد استكمل الإيمان.[6]

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله: اشترط فيها كلها الإخلاص ، الذي هو رُوح الإيمان ولُبُّه وسره.

فالحب في الله ؛ أن يحب الله ، ويحب ما يحبه من الأعمال والأوقات والأزمان والأحوال ، ويحب من يحبه من أنبيائه وأتباعهم.

---

[1] سورة النساء: ٦٥ .

[2] أي النبي ﷺ ، والمقصود بتحكيمه تحكيم شريعته.

[3] «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» ، ص ٣٩ ، بتصرف يسير.

[4] رواه عبد الله بن المبارك في «الزهد» (١٥٦٥) ، واللفظ له ، وابن أبي شيبة في «كتاب الإيمان» (رقم ٩٣) ، والإمام أحمد في «الزهد» (٢٦٣) من زوائد عبد الله على مسند أبيه ، نشر عبد الرحمٰن بن قاسم ، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» ، في كتاب الإيمان ، أثر رقم (١٠٩٤) ، والخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» ، ص ٤٢ – ٤٣ ، وزاد: من قال حَسنا وعمِل غير صالح رده الله على قوله ، ومن عمِل حَسَنا وعمِل صالحا رفَعَهُ العمل ، وذلك بأن الله تعالى يقول ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾.

[5] رواه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤) عن أنس رضي الله عنه.

[6] رواه أبو داود (٤٦٨١) عن أبي أمامة رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٣٨٠).

وعن سهل بن معاذ الجهني عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ : من أعطى لله تعالى ، ومنع لله ، وأحب لله ، وأبغض لله ، وأنكح لله ؛ فقد استكمل إيمانه.

رواه الترمذي (٢٥٢١) وأحمد (٣/٤٤٠) ، وحسن إسناده الألباني رحمه الله.

والبغض في الله ؛ أن يبغض كل ما أبغضه الله من كفر وفسوق وعصيان ، ويبغض من يتصف بها أو يدعو إليها.[١]

وأما قوله ﷺ (وأعطى لله ومنع لله) فقال ابن تيمية رحمه الله: (أعطَوا لمن يُحِب أن يُعطَى ، ومنعوا من يحب أن يُمنع).[٢]

قلت: أي أن يقصد بنفقاته وجه الله ، من صدقة ونفقة على عيال ، وغير ذلك من النفقات الواجبة والمستحبة.

والمنع لله هو الإمساك عن النفقات المحرمة ، فيمسك العبد عنها خوفا من الله لا خوفا من الناس ، من شُرطة أو حُسبة ونحوها.

وقال الملا علي القاري رحمه الله في «مرقاة المفاتيح»: وكذلك سائر الأعمال ، فتكلَّمَ لله ، وسكتَ لله ، واختلط بالناس لله ، واعتزل عن الخلق لله ، كقوله تعالى ﴿إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله﴾[٣] ، وإنما خص الأفعال الأربعة لأنها حظوظ نفسانية ، إذ قلَّما يُمَحِّضها[٤] الإنسان لله ، فإذا محَّضها مع صعوبة تمحيضها كان تمحيض غيرها بالطريق الأولى ، ولذا أشار إلى استكمال الدين بتمحيضها بقوله (فقد استكملَ الإيمان) أي أكمله.[٥]

وقال ابن رجب[٦] رحمه الله:

ومتى كان حبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه ؛ كان ذلك نقصًا في إيمانه الواجب ، فيجب عليه التوبة من ذلك والرجوع إلى اتِّباع ما جاء به الرسول ﷺ ، من تقديم محبة الله ورسوله وما فيه رضا الله ورسوله على هوى النفس ومراداتها كلها.[٧]

---

[١] «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» ، ص ٤٧ .

[٢] «مجموع الفتاوى» (١٦٠/١١).

[٣] سورة الأنعام: ١٦٢ .

[٤] أي يُخَلِّصها. انظر «لسان العرب».

[٥] (١٨٥/١) ، باختصار يسير ، الناشر: دار الكتب العلمية ، ط ١ .

[٦] هو زين الدين أبو الفرج ، عبد الرحمٰن بن أحمد البغدادي ثم الدمشقي المعروف بابن رجب الحنبلي ، من علماء الشام الأفذاذ ، عاش في القرن الثامن الهجري ، بلغ عدة شيوخه أربعين شيخا ، منهم ابن القيم وابن عبد الهادي رحمهما الله ، برَّز في الحديث والفقه فصار من أعلام المذهب الحنبلي ، له مؤلفات عديدة أبرزها «فتح الباري شرح صحيح البخاري» ، و «القواعد الفقهية» و «شرح علل الترمذي» و«جامع العلوم والحكم» ، و «ذيل طبقات الحنابلة». جمع بعض الباحثين رسائله المتفرقة في مجموع يقع في خمسة مجلدات ، ونشرتها دار الفاروق الحديثة بمصر. ترجم له ابن حجر رحمه الله في كتابه «إنباء الغمر» وابن العماد في «شذرات الذهب». توفي ابن رجب رحمه الله في دمشق سنة ٧٩٥ هـ .

[٧] «جامع العلوم والحكم» ، شرح الحديث الحادي والأربعين.

فصل في بيان أسباب قوة الإيمان

الأسباب التي يحصل بها قوة الإيمان خمسة:

١. طلب العلمِ الشرعي ، بتدبر آيات القرآن ومعرفة تفسيرها ، وكذا أحاديث النبي ﷺ ، وذلك أن التّفَقه في الكتاب والسنة يُعرِّف العبد بربه ويُعرِّفه بدينه ، فيخشى من الخالق ، فيندفع إلى العمل طالبا رضا الله سبحانه وتعالى ، فيزداد إيمانه.

٢. العلم بالله تعالى ، بمعرفة أسمائه وصفاته الواردة في الكتاب والسنة.[١]

٣. التأمل في آيات الله الكونية ، وذلك أن النظر والتفكر في الكون العظيم ، باتساعه وإحكامه ؛ دليل على عظمة خالقه ، وهذا يدعو المؤمن إلى تعظيم ذلك الخالق وشكره واللهج بذكره والاجتهاد في عبادته وإخلاص الدين له.

وكذلك النظر في فقر المخلوقات إلى الله ، وعدم استغنائها عنه طرفة عين ، سواءً كانوا من بني آدم أو البهائم أو الجمادات ؛ فكل هذا يوجب للعبد مزيدا من الخضوع والتذلل بين يدي العزيز ، بطلب ما يحتاجه من منافع دنيوية ، كما يوجب له مزيدا من التوكل على الله وشدة الطمع في بره وإحسانه ، فيزداد تعلق العبد بربه ، وتقربه إليه ، فيزداد إيمانا إلى إيمانه.

٤. فعل الطاعات ، وأول ذلك أداء الفرائض ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، ثم أداء النوافل كذكره سبحانه وتعالى ، بالمحافظة على أذكار الصباح والمساء ، وقراءة القرآن ، والتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ، وفي الحديث أن رجلا قال للنبي ﷺ : يا رسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي ، فمُرني بأمر أتشبَّثُ به.

فقال: لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله.[٢]

ويدخل في النوافل نوافل الصلاة والصدقة والصيام والحج.

---

[١] ومن المؤلفات التي تُعنى بالتعريف والشرح لأسماء الله وصفاته:

١. كتاب «النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى» للشيخ محمد بن حمود النجدي ، الناشر: مكتبة الإمام الذهبي – الكويت ، ويقع في ثلاث مجلدات.

٢. كتاب «أسماء الله الحسنى» (مجموع كلام ابن القيم في هذا الباب) ، الناشر: دار الكلم الطيب – دمشق.

٣. كتاب «فقه الأسماء الحسنى» للشيخ عبد الرزاق العباد البدر ، الناشر: دار التوحيد – الرياض.

٤. كتاب «صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة» لعلوي بن عبد القادر السقاف ، الناشر: دار الهجرة – الثقبة ، السعودية.

[٢] رواه أحمد (١٩٠/٤) وابن ماجه (٣٧٩٣) عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه ، وصححه الألباني ، وكذا محققو «المسند».

ومن الطاعات المقوية للإيمان ؛ الإحسان إلى المخلوقين ، بطيب الكلام ، والصدقة على الفقير ، وصلة الرحم ، وبر الوالدين ، والإحسان إلى الجيران ، ونحو ذلك.

ومن أعظم وجوه الإحسان إلى المخلوقين دعوتهم إلى دين الله ، سواء كانوا كفارا أو مؤمنين ، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحدا خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم.[1]

وذلك أن دعوة المخلوقين إلى الله سبب لنجاتهم يوم القيامة من العذاب ودخولهم الجنة ، وهل هناك إحسان إلى المخلوقين أعظم من هذا الإحسان؟

كذلك ، فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما سعى ذاك الداعي إلى تكميل العباد ونصحهم وتوصيتهم بالحق ، وصبَر على ذلك ؛ فإن الله يجازيه من جنس عمله ، ويؤيده بنور منه وروح وقوة إيمان وقوة تَـوَكُّل.[2]

قلت: ويدخل في الإحسان إلى لمخلوقين الإحسان إلى البهائم ، فإن الإحسان إليها من وجوه البر ، وكل ما كان من الأعمال الصالحة فإنه سبب لتقوية الإيمان.

٥. ومن أسباب تقوية الإيمان الكف عن ثلاثة: المعاصي والبدع والإصغاء للشبهات ، فأما المعاصي فقد ثبت عن النبي ﷺ أنها تضعف الإيمان جدا ، لاسيما إن كانت من الكبائر ، كما في الحديث أن النبي ﷺ قال: والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن.

قيل: ومن يا رسول الله؟

قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه.[3]

أي لا يؤمن الإيمان الكامل ، وإنما يكون مؤمنا ناقص الإيمان ، فإن أذى الجار وشرب الخمر ونحوها تُعد من الكبائر التي لا توجب خروج الإنسان من الإيمان باتفاق أهل السنة ، وإنما توجب نقصانه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن.[4]

---

[1] رواه البخاري (٣٧٠١) عن سهل بن سعد رضي الله عنه ، وحمر النَّعَم هي من ألوان الإبل المحمودة ، وقيل في المراد بالحديث أي خير لك من أن تكون لك فتتصدق بها ، وقيل: خير لك من أن تقتنيها وتملكها.

انتهى المقصود من شرح الحديث لابن حجر في «فتح الباري».

[2] قاله ابن سعدي في «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» ، ص ٩١ ، بتصرف يسير.

[3] تقدم تخريجه.

[4] رواه البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧).

أي لا يكون كامل الإيمان ، بل ناقص الإيمان.

وأما الإصغاء إلى الشبهات فإن ضرره على قلب العبد المؤمن وعقله أشد من ضرر المعاصي ، وذلك أن مؤدى الإصغاء إلى الشبهات تغيير مفاهيم الدين الصحيحة وقلبِها ، ومن ثم يضعف الإيمان وربما آل الأمر إلى زواله إذا كانت الشبهة مُكَفِّرة .

وسبب التعلق بالشبهات يعود إلى أمرين ؛ إما التعلق بأحاديث ضعيفة أو موضوعة ، أو التعلق بشبهات عقلية ليس لها مستند في الكتاب والسنة ، يُعارَض بها مدلول الكتاب والسنة ، والمعصوم من عصمه الله عز وجل.

وليس بخاف على من اطلع على تاريخ الفِرَقِ أن اتباع الشبهات كان هو السبب في تفرق المسلمين وانقسامهم إلى فرق ، والواجب على المؤمن إذا عرضت له شبهة أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم أولا ، ثم يسأل أهل العلم الراسخين عن جواب تلك الشبهة ، ليمحو أثرها من قلبه ، ويكون عنده مناعة ضدها ، وبصيرة بالحق ، قال تعالى ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾[1].

فصل في أقسام الناس بحسب الإيمان

اعلم رحمني الله وإياك أن الله تعالى قسَّم المؤمنين في سورة فاطر إلى ثلاث مراتب ، مرتبة السابقين ومرتبة المقتصدين ومرتبة الظالمين لأنفسهم ، قال تعالى ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله﴾[2] ، فأما السابقين فهم الذين فعلوا الفرائض والنوافل ، وتركوا المحرمات والمكروهات ، جعلنا الله منهم.

وأما المقتصدون ، فهم الذين فعلوا الفرائض واجتنبوا المحرمات ، ولكنهم لم يجتهدوا بالنوافل وترك المكروهات.

وأما الظالمون لأنفسهم فهم المؤمنون الذين كان عندهم إيمان ولكنهم وقعوا في الكبائر أو أصروا على الصغائر ، فهؤلاء يُطهَّرون من معاصيهم في النار ، ثم يُدخلون الجنة ، إلا أن يعفوا الله عنهم ، وذلك أن الله أذن ألا تدخل الجنة إلاَّ نفسٌ طاهرة.

ويدخل في القسم الثالث أهل البدع الغير مكفرة ، عياذا بالله من ذلك.

---

[1] سورة الأعراف: ٢٠١ .

[2] سورة فاطر: ٣٢ .

أما الكفار فليسوا من هذه الأقسام البتة ، ولا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها ، وذلك أن الله حرم على الجنة أن تدخلها نفس كافرة.

ويتفاوت أهل كل مرتبة من المراتب الثلاث في إيمانهم تفاوتا كبيرا.

فصل في فوائد الإيمان

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله: إذا ثبتت شجرة الإيمان في القلب ، وقويت أصولها ، وتفرعت فروعها ، وزهت أغصانها ، وأينعت أفنانها ؛ عادت على أصحابها وغيره بكل خير عاجل وآجل.[1]

قلت: وفوائد الإيمان كثيرة ، ولكنها تعود إلى ستة ، **فأولها الاغتباط بوِلاية الله لذلك المؤمن** ، والوِلاية هي النُّصرة والمدافعة والمعية الخاصة ، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾[2].

ولما كان الله ولي المؤمنين ؛ جعل الله لهم نورا يمشون به ، فيهتدون به في دنياهم لمعرفة ما ينفعهم وما يضرهم ، فلذا تجد المؤمن يبتعد عما يضره في دنياه وآخرته ، بخلاف ضعيف الإيمان أو عديمه ، فإنك تجده واقع فيما يضره في آخرته صباحا ومساء ، كأنه أعمى ، أو مبصر ولكنه يمشي في الظلمات ، فيصطدم بما يضره ، وصدق الله ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾[3].

ولما كان النور مصاحبا للمؤمنين ؛ كان الهدى والفلاح مصاحبا لهم أيضا ، كما قال تعالى في وصف المؤمنين في أول سورة البقرة ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ ، وقال تعالى ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾.

ووِلاية الله للمؤمن ، وإمداده بالنور يستمر إلى يوم القيامة ، حيث يُمِدُّه الله بالنور الحسي ، يَجُوز به الصراط المضروب على متن جهنم حتى يصل للجنة ، فتبشره الملائكة بها ، قال تعالى ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾[4].[5]

وثاني تلك الفوائد دفع المكاره عنهم ، وتنحِيتهم من الشدائد ، وذلك أن الله وليهم ، ومن كان الله وليه فإن الله يدفع عنه السوء والمكروه قبل نزوله ، أو يخففه عنه بعد نزوله ، قال تعالى ﴿إن الله يدافع عن

---

[1] انظر «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» ، ص ٩٩ .

[2] سورة البقرة: ٢٥٧ .

[3] سورة الحديد: ٢٨ .

[4] سورة الحديد: ١٢ .

[5] وانظر ما قاله العلامة الشنقيطي رحمه الله في في كتابه «أضواء البيان» في ثمرات ولاية الله تعالى للمؤمنين في تفسير الآية ٢٥٦ من سورة البقرة ، والآية ١٩ من سورة الجاثية.

الذين آمنوا﴾[1] ، وقال تعالى ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا﴾[2] ، وقال ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾[3].

وفي الحديث: تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة.[4]

وثالث تلك الفوائد هو الحياة الطيبة في الدنيا ، قال تعالى ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى **وهو مؤمن** فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[5] ، وذلك أن الإيمان يثمر طمأنينة في القلب ، وراحة ، وقناعة بما رزق الله ، ورضا بما قدر الله ، وصدق الله إذ يقول ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله **ومن يؤمن بالله يهد قلبه**﴾[6] ، قال ابن جرير الطبري[7] في تفسير الآية: يوفق الله قلبه ، بالتسليم لأمره والرضا بقضائه.

وقال النبي ﷺ: عجبا لأمر **المؤمن** ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له.[8]

فالإيمان يُسَلِّي صاحبه عند المكاره والمصائب ، وهذه من أفضل الفوائد في الدنيا ، بخلاف ضعيف الإيمان أو عديمه ، فإنه لا يزال ساخطا سواء قل رزقه أو كثر ، متنكدا إذا أصابه مكروه ، لا يشعر باجتماع قلبه ، بل قلبه دوما في شَعَثٍ[9] وتفرُّقٍ ، وصدق من قال: إن للقلب شعَثًا لا يلُمُّه إلا الإقبال على الله.

ومن دلائل الحياة الطيبة التي تكفَّلَ الله بها للمؤمنين ؛ الأمن في الدنيا والآخرة ، دل على ذلك قوله تعالى ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[10] ، وقوله ﴿فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[11] ، والمقصود بالأمن هنا هو الأمن مما مضى ومما يُستقبل ، فلا يضيع عليهم شيء من حسناتهم ، وما أصابهم الله به من مصائب فإن الله يعوضهم بدلها حسنات يوم القيامة.

---

[1] سورة الحج: ٣٨ .

[2] سورة الطلاق: ٤ .

[3] سورة الطلاق: ٢ .

[4] رواه أحمد (٣٠٧/١) ، وصححه محققو «المسند».

[5] سورة النحل: ٩٧ .

[6] التغابن: ١١ .

[7] هو العالم المجتهد المحدث الفقيه المقرىء المفسر ، علامة وقته ، محمد بن جرير بن يزيد ، أبو جعفر الطبري ، مات سنة ٣١٠ ، انظر ترجمته في «السير» (٢٦٧/١٤) ، و «وفيات الأعيان» (١٩١/٤-١٩٢).

[8] رواه مسلم (٢٩٩٩) عن صهيب بن سنان رضي الله عنه.

[9] الشَّعث هو التفرق. انظر «لسان العرب».

[10] الأنعام: ٨٢ .

[11] الأنعام: ٤٨ .

كذلك فإن المؤمنين يُؤمَّنون ويُبشَّرون عند نزع أرواحهم ، كما قال تعالى ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة **ألاَّ تخافوا ولا تحزنوا** وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلا من غفور رحيم﴾[1].

قوله ﴿ألاَّ تخافوا﴾ أي على ما تُقدِمون عليه بعد مماتكم ، وقوله ﴿ألاَّ تحزنوا﴾ أي على ما تُخلِّفونه وراءكم. قاله ابن جرير في تفسير الآية.

كذلك فإن المؤمنين يُؤمَّنون يوم القيامة من الفزع ، كما قال تعالى ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾[2].

ومن دلائل الحياة الطيبة التي يغتبط بها المؤمنون في الدنيا ؛ بشاشة الإيمان في قلوبهم ، وشعورهم بالنور في صدورهم ، مما يُحدث سعادة دائمة ، وراحة قلبية مستمرة ، كيف لا ، وقد صرَّح صاحب الشريعة بأن للإيمان حلاوة في القلب ، كما في قوله ﷺ : ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ... الحديث.[3]

ومن دلائل الحياة الطيبة التي ينعم بها المؤمنون في الدنيا سعة الرزق ، قال تعالى ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾[4].

ومن دلائل الحياة الطيبة التي ينعم بها المؤمنون في الدنيا التمكين في الأرض ، والاعتزاز بين الأمم الأخرى ، قال تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذين ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا﴾[5].

ورابع ثمرات الإيمان محبة المؤمنين لذلك المؤمن ، ومصداق ذلك في كتاب الله قوله تعالى ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمٰن وُدًّا﴾[6] ، قال ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسير الآية: وُدًّا في الدنيا في صدور عباده المؤمنين.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا أحب الله عبدا ؛ نادى جبريل: إني قد أحببتُ فلانا فأحِبَّه.

قال: فينادي في السماء ، ثم تُنزل له المحبة في أهل الأرض ، فذلك قول الله ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمٰن ودًّا﴾.

---

[1] سورة فصلت: ٣٠ – ٣٢ .

[2] سورة الأنبياء: ١٠٣ .

[3] رواه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣) عن أنس رضي الله عنه.

[4] سورة الأعراف: ٩٦ .

[5] سورة النور: ٥٥ .

[6] سورة مريم: ٩٦ .

وإذا أبغض الله عبدا نادى جبريل[١]: (إني قد أبغضت فلانا) ، فينادي[٢] في السماء[٣] ، ثم تُنزَل له البغضاء في الأرض.[٤]

قلت: ولهذا تجد للمؤمن ثناء عليه في حياته وبعد موته.

وخامسُ ثمرات الإيمان السَّمتُ[٥] الحسن الذي يُزيِّـن الله به المؤمن في كلامه وسلوكه ومنظره ، فإن للإيمان نورا في الوجه ، وهو المقصود بقوله تعالى ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾[٦] ، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿سيماهم في وجوههم﴾ قال: السَّمتُ الحسن.

وقال ابن سعدي رحمه الله في تفسير الآية: أي قد أثَّرت العبادة من كثرتها وحُسنها في وجوههم حتى استنارت ، لما استنارت بالصلاة بواطنهم استنارت بالجلال ظواهرهم.

وسادس تلك الفوائد الفوز برضا الله تعالى ودخول الجنة في الآخرة ، قال تعالى ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾[٧].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدُّرِّي[٨] الغابر[٩] من الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم.

قالوا: يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم.

قال: بلى ، والذي نفسي بيده ، رجال **آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**.[١٠]

وخلاصة القول إن الإيمان شجرة ، عروقها أركان الإيمان الستة ، وساقها شرائع الإسلام ، وثمارها الحياة الطيبة في الدنيا ، والجنة في الآخرة ، جعلنا الله ممن حقق الإيمان ، ودخل جنة الرضوان ، آمين.

---

[١] أي نادى الله عز وجل جبريل.

[٢] أي جبريل.

[٣] أي ينادي: إن الله يبغض فلانا فأبغضوه.

[٤] رواه الترمذي (٣١٦١) ، وصححه الألباني رحمه الله.

[٥] السَّمت هو الهيئة والمنظر. انظر «لسان العرب».

[٦] سورة الفتح: ٢٩ .

[٧] سورة التوبة: ٧٢ .

[٨] الدُّري أي الشديد الإضاءة.

[٩] الغابر أي الذاهب الآفل للغروب.

[١٠] رواه البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١).

الركن الأول: الإيمان بالله

الإيمان بالله تعالى يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى

الثاني: الإيمان بربوبيته

الثالث: الإيمان بألوهيته

الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته

تفصيل

الأول: الإيمان بوجود الله سبحانه وتعالى

دل على وجوده تعالى الفطرة والعقل والشرع والحس.

أما دلالة الفطرة على وجوده تعالى فإن كل مخلوق قد فُطِر على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم ، ومصداق هذا من كتاب الله قوله ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾[1].

ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طرأ على قلبه طارىء ، لقول النبي ﷺ : ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يُمجِّسانه.[2]

ولهذا نجد أن الإنسان بطبيعته وفطرته وبدهيته إذا أصابه الضُّر قال (يا الله) ، وقد ذُكر عن بعض الملاحدة أنه إذا أصابه شيء قال على فلتات لسانه (يا الله) من غير أن يشعر ، لأن فطرة الإنسان تدله على وجود الرب عز وجل.

فهذه الآية تدل على أن الإنسان مجبول بفطرته على وجود الله.

وقد أقر المشركون في عهد النبي ﷺ بوجود الله تعالى ، كما قال تعالى عنهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[3] ، والآيات في هذا الباب كثيرة.

---

[1] سورة الأعراف: ١٧٢ .

[2] رواه البخاري (١٣٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[3] سورة الزخرف: ٨٧ .

وأما دلالة العقل على وجود الله تعالى فلأن هذه المخلوقات سابِقها ولاحِقها لابد لها من خالقٍ أوجدها ، إذ لا يمكن أن توجِد نفسَها بنفسِها لأن العدم لم يخلُق نفسه ، فإنه قبلَ وجودِه معدوم ، فكيف يكون خالقًا لغيره من الموجودات؟!

كذلك فإن وجود تلك المخلوقات صدفة بغير مُوجِد ممتنع لسببين ؛ **الأول**: أن كل حادِثٍ لابد له من مُحْدِث ، دلَّ على ذلك العقل والشرع ، قال تعالى ﴿أم خُلِقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾[1].

والثاني: أن وجودها على هذا النظام البديع ، والتناسق المتآلف ، والارتباط الملتحم بين الأسباب ومسبباتها ، وبين الكائنات بعضها مع بعض ، بلا اضطراب ولا تصادم ؛ يمنع منعًا باتًا أن يكون وجودها صدفةً من غير مُوجِد ، إذ الموجود صدفة ليس على نظام في أصل وجوده ، فكيف يكون منتظمًا حال بقائه وتطوره؟! استمع إلى قول الله تعالى ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾[2].[3]

يُذكر عن **أبي حنيفة** رحمه الله – وكان معروفا بالذكاء – أنه جاءه قوم من الملاحدة الدَّهرية[4] ويُسمَّون بالسُّمَنِّية[5] الذين ينكرون وجود الخالق جل وعلا ، وكان أبو حنيفة رحمه الله سيفاً على الدُّهرية ، وكانوا ينتهزون الفرصة ليقتلوه ، فبينما هو يوماً في مسجده قاعدٌ إذ هجم عليه جماعة بسيوف مسلولة وهموا بقتله ، فقال لهم: أجيبوني عن مسألة ثم افعلوا ما شئتم.

فقالوا له: هات.

فقال: ما تقولون في رجل يقول لكم إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال ، مملوءة من الأثقال ، قد احتَوَشَتْها[6] في لُجّةِ البحر[7] أمواجٌ متلاطمةٌ ، ورياحٌ مختلفةٌ ، وهي من بينها تجري مستوية ، ليس لها ملاح يجريها ، ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز ذلك في العقل؟

قالوا: لا ، هذا شيء لا يقبله العقل.

---

[1] سورة الطور: ٣٥ .

[2] سورة يٰس: ٤٠ .

[3] انظر في هذا الباب كتاب «إبداع الخالق في نظم خلقه دليل على وحدانيته» ، للشيخ عبد العزيز بن عبد الله الزهراني ، الناشر: دار التوحيد – الرياض.

[4] الدَّهري – بفتح الدال وتشديدها – هو الملحد الذي لا يؤمن بالآخرة ، والدُّهري – بضم الدال وتشديدها – هو الرجل المُسِن. انظر «لسان العرب» ، مادة: دهر.

[5] السُّمَنِّيَّةُ قوم من أهل الهند دُهرِيُّون ، وقال الجوهري: فِرقة من عبدة الأصنام تقول بالتناسخ وتنكر وقوع العلم بالأخبار. انتهى المراد من «لسان العرب» ، مادة: سمن.

[6] أي أحاطت بها وجعلتها في وسَطِهَا. انظر «لسان العرب» ، مادة: حوش.

[7] لُجَّةِ البحر أي وسطه حيث يكثر ماؤه ولا تُرى اليابسة منه.

فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله ، إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر ، مستوية من غير متعهد ولا مجري ؛ فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها وسعة أطرافها وتبايُن أكنافِها[1] من غير صانع وحافظ؟!

فبكوا جميعًا وقالوا: صدقت ، وأغمدوا سيوفهم وتابوا.

وسُئل **الشافعي** رضي الله عنه: ما الدليل على وجود الصانع؟

فقال: ورقة التوت ، طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم؟

قالوا: نعم.

قال: فتأكلها دودة القز[2] فيخرج منها الإبريسم[3] ، والنحل فيخرج منها العسل ، والشاة فيخرج منها البَعْر[4] ، ويأكلها الظباء فيخرج منها المِسْك ، فمن الذي جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد؟!

فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا على يده ، وكان عددهم سبعة عشر.

وضرب **أحمد بن حنبل** رضي الله عنه مثلاً قلعة حصينة ملساء ، لا فُرجة فيها ، ظاهرها كالفضة المذابة ، وباطنها كالذهب الإبريز[5] ، ثم انشقت الجدران ، وخرج من القلعة حيوان سميع بصير.

وقد عَنى بالقلعة: البيضة ، وبالحيوان: الفرخ.

وسأل هارون الرشيد **مالكًا** عن وجود الصانع ، فاستدل باختلاف الأصوات وتردد النغمات وتفاوت اللغات.

فهذه نقولات عن الأئمة الأربعة في هذا الباب.

وسُئل أعرابي فقيل له: بم عرفت ربك؟

فقال: البَعرة تدل على البعير ، والروث على الحمير ، والأثر يدل على المسير ، فسماءٌ ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا تدل على السميع البصير؟

ورؤي ابن هانئ[6] في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟

قال: غَفَرَ لي بأبيات قلتها في النَّرجس ، وهي:

---

[1] أي أطرافها.

[2] القز هو الحرير على الحال التي يكون عليها عندما يُستخرج ، ودودة القز أي دودة الحرير التي تنسج الحرير. انظر «المعجم الوسيط».

[3] الإبريسم هو أحسن الحرير. انظر «المعجم الوسيط».

[4] البعرة هي رجيع الغنم والإبل.

[5] الإبريز هو الذهب الخالص. انظر «المعجم الوسيط».

[6] وهو المكنى بأبي نواس.

تأمّل في نباتِ الأرض وانظر إلى آثارِ ما صنع المليكُ

عيونٌ من لُجينٍ[١] شاخصاتٌ[٢] بأحداقٍ[٣] كما الذهبُ السبيكُ[٤]

على قُضُبِ الزَّبرجَدِ شاهداتٌ[٥] بأن الله ليس له شريكُ

وأن محمدا عبدٌ رسولٌ إلى الثقلين[٦] أرسله المليكُ[٧]

ومن عجائب خلق الله البعوضة ، فقد أودع الله فيها من الحكم الشيء الكثير ، فأودع الله فيها قوة الحافظة والفكر ، وحاسة اللمس والبصر والشم ، ومنفذ الغذاء ، وأودع فيها جوفا وعروقا ومخا وعظاما ، فسبحان من قدر فهدى ، ولم يترك شيئا سدى.

قال أبو العلاء المَعَرِّي مبتهلا:

يا من يرى مدَّ البعوضِ جناحها في ظلمةِ الليلِ البهيمِ[٨] الأليلِ[٩]

ويرى مناطَ[١٠] عروقِها في نَحرِها والمُخَّ من تلك العظامِ النُّحَّلِ[١١]

ويرى خرير الدم في أوداجِها[١٢] متنقِّلا من مفصلٍ في مفصلِ

---

[١] اللجين هو الفضة ، شبّه الناظم زهرة النبات بها لأنها تشبه الفضة في لونها. «انظر «لسان العرب» ، مادة: لجن.

[٢] يقال شَخَصَ الرجل ببصره إذا فتح عينيه وحدّ نظره ورفع جفنيه فلم يطرِف ، وقد وصف الناظم بعض الأزهار في إحداقها بأنها شاخِصات كعين الإنسان إذا شخصت وأحدقت ببصرها. انظر «لسان العرب» ، مادة: شخص.

[٣] الحدَقة تطلق على حدقة العين وهي سوادها ، وقد شبَّه الناظم تلك الأزهار بالأحداق. انظر «لسان العرب» ، مادة: حدق.

[٤] سبيك أي مسبوك ، وهو الذهب المفرغ في قالَب. انظر «لسان العرب» ، مادة: سبك.

[٥] قُضُب جمع قضيب ، والمقصود غصن النبات ، والزبرجد هو الزُّمُرُّدْ ، جوهر معروف ، وقد وصف الناظم الغصن بالزمرد للمعانه وبريقه وبهاء منظره. انظر «لسان العرب» ، مادة: «قضب» ، و «زبرجد» ، وكذا «مختار الصحاح» للرازي ، مادة: «زبرجد».

[٦] الثقلان هما الإنس والجن.

[٧] ذَكر بعض المفسرين هذه القصص عن الشافعي وأحمد وهارون الرشيد وأبي نواس عند تفسير قوله تعالى في أول سورة البقرة ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾.

كما ذكر هذه الشواهد الفخر الرازي في الدلالة على وجود الصانع في كتابه «مفاتيح الغيب» (٢/١٠٨ – ١٠٩) ، الناشر: دار الفكر ، ط ١ ، سنة ١٤٠١ هـ .

[٨] البهيم هو الأسود الذي لا يخالطه لون آخر. انظر «اللسان» ، مادة: بهم.

[٩] أليل أي شديد الظلمة. انظر «اللسان» ، مادة: ليل.

[١٠] المناط من ناطَ أي علَّق ، يقال: ناطَ سِلاحه بالشجرةِ أي علقه عليها ، والمناط هو ما يُعلَّق فيه الشيء ، ومناط العروق في البيت المذكور هو ما تلتحم فيه العروق من جوانبها كأنها معلقة بها.

[١١] النُّحَّلِ جمع نَحِيل أي رقيق ودقيق. انظر «لسان العرب» ، مادة: نحل.

[١٢] الوِدْج عرق يجري فيه الدم. انظر «لسان العرب» ، مادة: ودج.

ويرى وصول غِذى الجنين ببطنِها في ظلمةِ الأحشا بغير تَـمَـقُّلِ[1]

ويرى مكان الوطءِ من أقدامِها في سيرها وحثيثها المستعجلِ

ويرى ويسمعُ حِسَّ ما هو دونَها في قاع بحرٍ مظلمٍ متهوِّلِ[2]

امنُن علي بتوبة تمحو بها ما كان مني في الزمانِ الأولِ[3]

وعلى هذا فيقال لمن جحد وجود الله في هذه الأزمنة: هل ما أُنتج من الطائرات والصواريخ والسيارات والآلات بأنواعها محض صدفة؟

ولو حدَّثك شخصٌ عن قصرٍ مشيدٍ ، أحاطت به الحدائق ، وجرت بينها الأنهار ، ومُلئ بالفُرُشِ والأسِرَّة ، وزُيِّـن بأنواع الزينة من مُقوّماته ومُكمّلاته ، وقال لك : إن هذا القصر وما فيه من كمال قد أوجد نفسه ، أو وُجد هكذا صدفة بدون مُوجد ؛ أكنت مُصَدِّقه؟ الجواب: لا ، قطعا.

أيجوز بعد ذلك أن يكون هذا الكون الواسع بأرضه وسمائه وأفلاكه وأحواله ونظامه البديع الباهر قد أوجد نفسه ، أو وُجد صدفة بدون موجد؟!

والحاصل أنه إذا لم يمكن أن توجِد هذه المخلوقات نفسها بنفسها ، ولا أن توجَد صدفة ؛ تعين أن يكون لها موجِد ، وهو الله رب العالمين.

وقد ذكر الله تعالى هذا الدليل العقلي والبرهان القطعي في سورة الطور ، حيث قال ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾[4] ، يعني أنهم لم يخلقوا من غير خالق ، ولا هم الذين خلقوا أنفسهم ، فتعين أن يكون خالقهم هو الله تبارك وتعالى.

ولهذا لما سمع جبير بن مطعم رضي الله عنه رسول الله ﷺ يقرأ سورة الطور فبلغ هذه الآيات ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ

---

[1] المُقلة هي سواد العين وبياضها ، والتمقل هو تقليب العين في المنظور إليه وتحديق النظر فيها ، يقال: (تمقل في البضاعة) أي قلَّب نظره فيها ، ومقصود الناظم أن الله تعالى يرى ما في أحشاء البعوضة بغير كلفة.

[2] أي كثير الأهوال.

[3] ذكرها شهاب الدين أحمد الأبشيهي في كتابه «المستطرف في كل فن متستظرف» (ص ٣٧٤) ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، ط ١ ، سنة ١٤١٣ هـ .

وكذا ذكرها الزمخشري مختصرة في تفسيره المعروف بـ «الكشاف» (ص ١١٦٨) ، بتحقيق: مصطفى حسين أحمد ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت ، ط ٣ ، سنة ١٤٠٧ هـ.

[4] سورة الطور : ٣٥ .

هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾[1] ، وكان جبير يومئذ مشركًا ؛ قال : كاد قلبي أن يطير ، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي.[2]

فصل

وأما دلالة الشرع على وجود الله تعالى ؛ فالكتب السماوية كلها تنطق بذلك ، ولأن ما جاءت به من الأحكام المتضمنة لمصالح الخلق دليل على أنها من رب حكيم عليم بمصالح خلقه ، وكذا ما جاءت به من الأخبار الكونية التي شهد الواقع بصدقها دليل على أنها من رب قادر على إيجاد ما أخبر به.

وأيضا فإن ائتلاف القرآن وعدم تناقضه وتصديق بعضه بعضا ؛ يدل دلالة قاطعة على أنه من رب حكيم عليم ، قال تعالى ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾[3] ، فهذا دليل أيضا على وجود من تكلم بالقرآن وهو الله تعالى.

فصل

وأما دلالة الحس على وجود الله فمن وجهين:

أحدهما: أننا نسمع ونشاهد من إجابة الداعين وغوث المكروبين ما يدل دلالة قاطعة على وجوده تعالى ، إذ أن إجابة الدعاء تدل على أن هناك ربا سمع دعاء من دعاه فأجابه ، فإنه لم يدعُ إلا الله ، قال الله تعالى ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾[4] ، وقال تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[5].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر ، ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، فاستقبل رسول الله ﷺ قائما فقال: يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغيثنا.

قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا.

قال أنس: ولا والله ، ما نرى في السماء من سحابٍ ولا قَزَعَةٍ[6] ولا شيئا ، وما بيننا وبين سَلْع[7] من بيتٍ ولا دار ، قال: فطلعت من ورائه[1] سحابة مثل التُّرسِ[2] ، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت ، قال: والله ما رأينا الشمس سَبْتاً[3].

---

[1] سورة الطور : ٣٥ – ٣٧ .

[2] رواه البخاري مفرقا ، (٤٨٥٣) ، (٤٠٢٣).

[3] سورة النساء: ٨٢ .

[4] سورة الأنبياء : ٧٦ .

[5] سورة الأنفال : ٩ .

[6] القزعة هي القطعة من الغيم. انظر «النهاية».

[7] سلع اسم جبل بالمدينة.

ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ، ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، فاستقبله قائما فقال: يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يمسكها.

قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام[٤] والجبال والظِّراب[٥] والأودية ومنابت الشجر.

قال: فانقطعت ، وخرجنا نمشي في الشمس.[٦]

وما زالت إجابة الداعين أمرًا مشهودًا لمن صدق في لجوئه إلى الله تعالى وأتى بأسباب الإجابة.

الوجه الثاني: أن آيات الأنبياء التي تسمى بالمعجزات ويشاهدها الناس أو يسمعون بها ؛ برهان قاطع على وجود مرسِلهم ، وهو الله تعالى ، لأنها أمور خارجة عن نطاق البشر ، يجريها الله تعالى تأييدًا لرسله ونصرًا لهم.

مثال ذلك: آية موسى ﷺ حين أمره الله تعالى أن يضرب بعصاه البحر ، فضربه فانفلق أثنى عشر طريقًا يابسًا ، والماء بينها كالجبال ، قال الله تعالى ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[٧].

ومثال ثان: آية عيسى ﷺ حيث كان يحيي الموتى ، ويخرجهم من قبورهم بإذن الله ، قال الله تعالى ﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي﴾[٨].

ومثال ثالث حصل لمحمد ﷺ حين طلبت منه قريش آية ، فأشار إلى القمر ، فانفلق فرقتين فرآه الناس ، وفي ذلك نزل قوله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[٩] ، فهذه الآيات المحسوسة التي يجريها الله تعالى تأييدًا لرسله ونصرًا لهم ؛ تدل دلالة قطعية على وجوده تعالى.

---

[١] أي من وراء سلع.

[٢] الترس قطعة من الحديد مستديرة يتَّقي بها المحارب السهام. انظر «النهاية».

[٣] قال ابن الأثير في «النهاية»: قيل: أراد أسبوعا ، من السبت إلى السبت ، وقيل: أراد بالسبت مدة من الزمان قليلة كانت أو كثيرة.

[٤] الآكام جمع أكمة وهي الرابية. انظر «النهاية». قلت: والرابية معروفة ، وهي المكان المرتفع ، وتسمى بالربوة أيضا.

[٥] الظراب جمع ظرِب ، وهو الجبل الصغير. انظر «النهاية».

[٦] أخرجه البخاري (١٠١٩) ومسلم (٨٩٧).

[٧] سورة الشعراء: ٦٣ .

[٨] سورة المائدة: ١١٠ .

[٩] سورة القمر: ١– ٢ .

ولما كان الإقرار بوجود الله أمرا فطريا دل عليه الفطرة والحس ؛ قالت الرسل لأقوامهم ﴿أفي الله شك فاطر السماوات والأرض﴾[1] ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة ، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له ؛ قالت الرسل ﴿أفي الله شك﴾ ، وهذا يحتمل شيئين ، أحدهما: أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة ، ولكن قد يَعرِض لبعضها شك واضطراب ، فتحتاج إلى النظر في الدليل المُوصل إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه ﴿فاطر السماوات والأرض﴾ ، الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سَبق ، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما ، فلا بد لهما من صانع وهو الله لا إله إلا هو ، خالق كل شيء وإلٰهه ومليكه.

والمعنى الثاني في قولهم ﴿أفي الله شك﴾ أي أفي إلٰهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك ، وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له؟ فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى. انتهى.

وقال الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي رحمه الله في تفسير نفس الآية:

أي فإنه أظهر الأشياء وأجلاها ، فمن شك في الله ، فاطر السموات والأرض ، الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده ؛ لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات حتى الأمور المحسوسة ، ولهذا خاطبتهم الرسل خطاب من لا يُشك فيه ، ولا يصلح الريب فيه.[2]

---

[1] سورة إبراهيم: ١٠ .

[2] «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان».

الثاني: الإيمان بربوبيته

الإيمان بربوبية الله تعالى يعني الإيمان بأن الله وحده هو الرب لا شريك له ولا معين ، والرب: من له الخلق والملك والأمر – أي أمر تدبير هذا الكون – ، فلا خالق إلا الله ، ولا مالك إلا هو ، ولا آمر إلا هو ، قال تعالى مبينا انفراده بالخلق ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[1] ، وقال ﴿بديع السماوات والأرض﴾[2] ، وقال ﴿الحمد لله فاطر السماوات والأرض﴾.[3]

وأعظم ما خلق الله عشرة ، وهي السماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والناس والدواب والمطر والرياح ، وقد تمدح الله تعالى بخلقها كثيرا في القرآن لاسيما في أوائل بعض السور كسورة الجاثية ، قال تعالى ﴿ حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين * وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون﴾.

ودليل انفراده بالملك قوله تعالى ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا﴾[4] ، وقوله ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾[5] ، وقوله ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[6].

ودليل انفراده بالأمر قوله تعالى ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ ، وقال ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾[7] ، وقال ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه﴾[8] ، وقوله ﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾[9].

وسُئل أعرابي: بم عرفت ربك؟

فقال: (بنقض العزائم وصرف الهمم) ، وصدق ذلك الأعرابي ، فالإنسان يعزم أحيانا على الشيء وفي لحظة يجد نفسه قد نقض عزمه وعزم على تركه ، وقد يهم الإنسان بالشيء متجها إليه ثم ينصرف بدون سبب ، وهذا يدل على أن للأمور مدبرا فوق تدبير الإنسان ، وهو الله عز وجل.

---

[1] سورة الأعراف: 54 .

[2] سورة البقرة: 117 .

[3] سورة فاطر: 1 .

[4] سورة الإسراء: 111 .

[5] سورة الملك: 1 .

[6] سورة فاطر: 13 .

[7] سورة يٰس: 82 .

[8] سورة السجدة: 5 .

[9] سورة هود: 123 .

فصل

- والأمر نوعان ؛ أمرٌ شرعيٌّ ديني وأمرٌ كوني ، **فأمره الشرعي الديني** هو أمره المتعلق بالشرائع والنبوات ، فإن الله هو وحده الذي يأمر بما شاء من الشرائع ، وينسخ ما يشاء منها ، بحسب ما تقتضيه حكمته جلَّ وعلا ، وهو الذي يُشَرِّع للناس ما يناسبهم وما يُصلِح حالهم ، وما هو مقبول عنده من العبادات والأعمال ، لأنه هو الخبير بحالهم ، العليم بما يصلحهم ، الرحيم بهم.

مثال ذلك أن الله جل وعلا نسخ شريعة موسى بشريعة عيسى ، ثم نسخ شريعة عيسى بشريعة محمد ﷺ ، وهي الإسلام ، وجعلها متضمنة لجميع ما في الشرائع قبلها من المحاسن وزاد عليها ، وألغى ما فيها من التكاليف الشديدة ، وجعلها شريعة سمحة ليس فيها حرج ولا صعوبة.

ومِن ذلك أيضا أن في بعض الشرائع التي سبقت شريعة الإسلام أن الإنسان إذا أصاب ثوبه نجاسة (بول مثلا) فعليه أن يَقُصَّ المكان المتنجس من ثوبه للتخلص من تلك النجاسة ، أما في شريعة الإسلام فيكفي غسل موضع النجاسة بالماء.

ومن ذلك أيضا أن في شريعة التوراة أن من أراد أن يُصلي فعليه الذهاب إلى البَيْعة ، وكذلك في شريعة عيسى من أراد أن يُصلي فعليه الذهاب إلى الكنيسة ، أما في شريعة الإسلام فالإنسان له أن يُصلي في أي مكان شاء على وجه الأرض أو في السماء في الطائرة ، أو في البحر – في الباخرة.

ومن أوامر الله الشرعية الدينية أن الله يأمر بالعدل والإحسان ، قال تعالى ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يَعِظُكُم لعلكم تذكرون﴾[1].

وقال تعالى ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نِعِمَّا يعظكم به﴾[2] ، أي نِعْمَ ما يعظكم الله به ويهديكم إليه.

- والنوع الثاني من أمر الله هو الأمر الكوني ، وهو المتعلق بتدبير أمور الكون ، فالله وحده هو الذي يأمر بجريان السحاب ونزول المطر والحياة والموت والرزق والخلق والزلازل وتفريج الكربات ونهاية العالم ونحو ذلك من الأمور التي تحدث في الكون ، فإذا أمر الله بشيءٍ منها حصل لا محالة ، لا مُغالب له ولا مُبطل ، كما قال الله تعالى ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾[3] ، وقال تعالى ﴿وما أمرنا إلا واحدة

[1] سورة النحل: 90 .

[2] سورة النساء: 58 .

[3] سورة النحل: 40 .

كلمح بالبصر﴾[1] ، أي: وما أمرُنا للشيء إذا أردنا حصوله إلا أن نقول قولةً واحدة وهي (كن) فيكون ذلك الشيء كلمح البصر ، لا يتأخر طرفة عين.

فالحاصل أن أمر الله ينقسم إلى نوعين ؛ أمرٌ كونيٌّ ، وأمرٌ ديني شرعي ، يترتب عليه أحكام الجزاء يوم القيامة.[2]

فصل

ومما يدل على تفرد الله سبحانه بالأمر ؛ قدرته تعالى على إجراء تأثير ذلك الأمر على خلاف العادة ، ومن ذلك أنه جعل النار بردا وسلاما على إبراهيم عليه السلام ، قال الشنقيطي رحمه الله:
ومن أصرح الأدلة في ذلك قوله تعالى ﴿قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم﴾[3] ، فطبيعة الإحراق في النار معنى واحد لا يتجزأ إلى معان مختلفة ، ومع هذا أحرقت الحطب فصار رمادا من حرها ، في الوقت الذي هي فيه كائنة بردا وسلاما على إبراهيم ، فدل ذلك دلالة قاطعة على أن التأثير حقيقةً إنما هو بمشيئة خالق السماوات والأرض ، وأنه يُسبِّب ما شاء من المُسبَّبات على ما شاء من الأسباب ، وأنه لا تأثير لشيء من ذلك إلا بمشيئته جل وعلا.
ومن أوضح الأدلة في ذلك أنه ربما جعل الشيء سببا لشيء آخر مع أنه مناف له ، كجعله ضربَ ميتِ بني إسرائيل ببعضٍ من بقرة مذبوحة سببا لحياته[4] ، وضربه بقطعة ميتة من بقرة ميتة مناف لحياته ، إذ لا تُكسب الحياة من ضربِ ميتٍ ، وذلك يوضح أنه جل وعلا يُسبب ما شاء من المسبَّبات على ما شاء من الأسباب ، ولا يقع تأثير البتة إلا بمشيئته جل وعلا.
انتهى كلامه رحمه الله.[5]

فصل

---

[1] سورة القمر: 50 .

[2] انظر كلام ابن تيمية رحمه الله في الفرق بين الأمر الكوني والأمر الديني في كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، ص 278 – 279 ، تحقيق: د. عبد الرحمٰن اليحيى، الناشر: دار الفضيلة – الرياض.
وانظر ما قاله الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله في تفسيره في تفسير قول الله تعالى ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾. سورة الأعراف: 54 .

[3] سورة الأنبياء: 69 .

[4] انظر تفسير «أضواء البيان» ، عند قوله تعالى من سورة مريم ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾.

[5] يشير إلى قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وإذ قتلتم نفسا فادارءتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى﴾.

ولم يُعلم أن أحدًا من الخلق أنكر ربوبية الله سبحانه ، إلا أن يكون مكابرًا غير معتقد لما يقول ، كما حصل من فرعون حين قال لقومه ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[1] ، وقال ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرِي﴾[2] ، لكن ذلك ليس عن عقيدة ، بل عن تَكبُّرٍ وتَجَبُّرٍ ، قال الله تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[3] ، وقال موسى لفرعون فيما حكى الله عنه ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا﴾[4].

فصل

وقد كان المشركون في عهد النبي ﷺ يُقِرُّون بربوبية الله تعالى مع إشراكهم به في العبادة ، فأنكر الله عليهم ذلك ، لأن الإقرار بالربوبية لا يكفي للدخول في الإسلام حتى يُضم إليه إفرادُه بالعبودية ، قال تعالى لنبيه حاثا له على أن يقول للمشركين المعترفين لله بالربوبية ، المشركين معه غيره في العبادة ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُون * قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُون * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُون * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُون﴾[5].[6]

فصل

وعودا على موضوع الخلق ، فيحسن هنا ذكر لفتة لطيفة ، وهي أن الله تعالى خلق السماوات والأرض لحكم جليلة وغايات عظيمة ، فذكر في بعض الآيات أنه خلقهما لإعلام خلقه أنه على كل شيء قدير ، وأنه محيط بكل شيء ، كما في قوله تعالى ﴿الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن لتعلموا أن الله على كل كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾[7].

---

[1] سورة النازعات: 24 .

[2] سورة القصص: 38 .

[3] سورة النمل: 14 .

[4] سورة الإسراء: 102 .

[5] سورة المؤمنون: 84 – 89 .

[6] انظر ما قاله ابن كثير في تفسير هذه الآيات ، وكذا ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير آية يونس: 31 ، وآية يوسف: 106 ، وآية الإسراء: 9 من ابتداء قوله: ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جل وعلا ... الخ.

[7] سورة الطلاق: 12 .

وذكر في أكثر المواضع من القرآن أنه خلقهما ليعلم الناس أنه هو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه ، كما في قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وإلٰهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمٰن الرحيم﴾ ثم قال بعدها ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾ إلى آخر الآية.

وذكر في بعض الآيات أنه خلق السماوات والأرض ليبتلي الناس كما في قوله تعالى في مطلع سورة هود ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أحسن عملا﴾.

وذكر في الآيات أنه خلق السماوات والأرض ليجزي الناس بأعمالهم كما في سورة النجم ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾.

قال الشنقيطي رحمه الله: فقد يظن غيرُ العالِم أن بين هذه الآيات اختلافا ، مع أنها لا اختلاف بينها ، لأن الحُكمَ المذكور فيها كلها راجع إلى شيء واحد ، وهو معرفة الله وطاعته ومعرفة وعده ووعيده ، فقوله ﴿لتعلموا أن الله على كل شيء قدير﴾ وقوله ﴿اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾ راجع إلى شيء واحد ، هو العلم بالله ، لأن من عرف الله أطاعه ووحده.

وهذا العلم يُعلِّمهم الله إياه ويُرسل لهم الرسل بمقتضاه ليَهلِك من هَلك عن بَيِّنة ، ويحيا من حيَّ عن بينة ، فالتكليف بعد العلم ، والجزاء بعد التكليف ، فظهر بهذا اتفاق الآيات ، لأن الجزاء لا بُدَّ له من تكليف ، وهو الابتلاء المذكور في الآيات ، والتكليف لا بد له من علم ، ولذا دل بعض الآيات على أن حكمة الخلق للمخلوقات هي العلم بالخالق ، ودل بعضها على أنها الابتلاء ، ودل بعضها على أنها الجزاء ، وكل ذلك حق لا اختلاف فيه ، وبعضه مرتب على بعض.

انتهى كلامه رحمه الله.[1]

قلت: وهذا الذي وضَّحه الشيخ رحمه الله من الحِكَم من خلق السماوات والأرض هو (الحق) الذي أشار الله تعالى إليه في قوله ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾[2] ، وقال ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[3] ، فقوله ﴿بالحق﴾ أي لحكم باهرة ، ليس عبثا ولا سدى ، وهي إفراده بالعبادة ، وليعلم الناس عظيم قدرته وسعة علمه وإحاطته ، وتكليف الخلق وابتلاؤهم ، ثم جزاؤهم في الآخرة بأعمالهم ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

---

[1] «أضواء البيان» ، سورة الذاريات ، تفسير قوله تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

[2] سورة الأحقاف: 3 .

[3] سورة الأنبياء: 16 - 17 .

«ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا ، لا لحكمة تكليف وجزاء وحساب ؛ هدَّدهم بالويل من النار بسبب ذلك الظن السَّيء في قوله تعالى ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾[1]».[2]

وقد نزه الله تعالى نفسه عن خلق السماوات والأرض عبثا ، كما نزه أولو الألباب ربهم سبحانه وتعالى عن ذلك كما في قوله تعالى في آخر سورة آل عمران ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾.

فالحمد لله على نعمة القرآن.[3]

---

[1] سورة ص: 27 .

[2] قاله الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان» ، تفسير سورة الأحقاف ، عند الكلام على قوله تعالى ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾.

[3] انظر المرجع السابق فمنه استفدت عامة ما ذُكِر من الحكمة من خلق السماوات والأرض ، وانظر كذلك كلامه في سورة الذاريات ، تفسير قوله تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

الثالث: الإيمان بألوهيته

الإيمان بألوهية الله يعني الإيمان بأنه وحده الإله الحق لا شريك له ، المستحق للعبادة دون مَن سواه ، ومعنى «الإله» أي المألوه ، وهو المعبود حُبًا وتعظيمًا ، قال الله تعالى ﴿و إلهكم إله وَاحِدٌ لاَّ إله إِلاَّ هُوَ الرحمٰن الرَّحِيمُ﴾[1] ، وقال تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إله إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2] ، وكل ما اتُّخذ إلها يُعبد من دون الله أو مع الله فعبادته باطلة ، قال الله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرِ﴾[3].

فصل في براهين توحيد الألوهية

واعلم رحمك الله أن البرهان الأعظم على استحقاق الله تعالى لأن يُعبد وحده دون ما سواه هو تفرده تعالى بربوبية هذا الكون[4] ، لا شريك له في ذلك ولا معين ، والرب هو من بيده الخلق والملك والرزق والأمر – أي أمر تدبير هذا الكون – ، فلا خالق إلا الله ، ولا مالك إلا هو ، ولا رازق إلا هو ، ولا آمر إلا هو ، قال تعالى مبينا تفرده بالخلق ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[5] ، وقال تعالى ﴿بديع السماوات والأرض﴾[6] ، بديع أي مبدِع[7] ، والمعنى مُوجد السماوات والأرض.

وقال تعالى ﴿الحمد لله فاطر السماوات والأرض﴾[8] ، ومعنى فاطر أي موجد[9].

ودليل انفراده بالملك قوله تعالى ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك﴾[10] ، وقوله ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾[11] ، وقوله تعالى ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[12].

---

[1] سورة البقرة: ١٦٣ .

[2] سورة آل عمران: ١٨ .

[3] سورة الحج: ٦٢ .

[4] سيأتي ذكر براهين أخرى بعد هذا الفصل.

[5] سورة الأعراف: ٥٤ .

[6] سورة البقرة: ١١٧ .

[7] انظر «مفردات ألفاظ القرآن الكريم» للراغب الأصفهاني رحمه الله.

[8] سورة فاطر: ١ .

[9] انظر «مفردات ألفاظ القرآن الكريم» للراغب الأصفهاني رحمه الله.

[10] سورة الإسراء: ١١١ .

[11] سورة الملك: ١ .

[12] سورة فاطر: ١٣ .

ودليل انفراده بالأمر – ويعبر عنه أيضا بالتدبير – قوله تعالى ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ ، وقوله ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾[1] ، وقوله ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه﴾[2] ، وقوله ﴿وإليه يُرجع الأمر كله﴾[3].

فتدبير هذا الكون من إحياءٍ وإماتةٍ ، ومطرٍ وجـدبٍ ، وغنًى وفقرٍ ، وصحةٍ ومرضٍ ، وأمنٍ وخوفٍ ، وغير ذلك مما يجري في هذا الكون ؛ إنما هو بأمر الله تعالى.

ودليل انفراده بالرزق قوله تعالى ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء﴾[4].

وقد كانت دعوة الرُّسل – عليهم الصلاة والسلام – مُنصَبَّةً على هذا النوع من التوحيد – أي توحيد الألوهية – ، وكانوا قاطبة يقولون لأقوامهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَه غَيْرُه﴾[5] ، ولكن أبى ذلك المشركون ، واتخذوا من دون الله آلهة ، يعبدونهم مع الله سبحانه وتعالى ، ويستنصرون بهم ويستغيثون.

وضد توحيد الألوهية الشرك في عبادته تعالى ، وهو صرف شيء من العبادات لغير الله ، أيًّا كانت تلك العبادة ، كعبادة القبور ، بدعائها ، والذَّبح لها ، والنّذر لها ، والطَّواف بـها ، والتَّمسُّح بأعتابها ، ونحو ذلك من الأفعال ، فهذه من الأفعال الشركية التي تنقض إيمان العبد بأن الله وحده هو المستحق لأن يعبد دون ما سواه.

فصل في ذكر البراهين الشرعية والعقلية على بطلان الشرك في عبادة الله

وقد أبطل الله تعالى اتخاذَ المشركين آلهة يعبدونها معه ببراهين شرعية وعقلية كثيرة ، فأما الشرعية فمثل قوله تعالى ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾[6] ، وقوله تعالى لنبيه ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾[7].

وأما البراهين العقلية على بطلان الشرك فكثيرة ، منها:

---

[1] سورة يٰس: ٨٢ .

[2] سورة السجدة: ٥ .

[3] سورة هود: ١٢٣ .

[4] سورة الروم: ٤٠ .

[5] سورة الأعراف: ٥٩ .

[6] سورة المائدة: ٧٢ .

[7] سورة الزمر: ٦٦ .

الأول: أنه ليس في هذه الآلهة التي اتخذوها شيء من خصائص الألوهية ، فهي مخلوقة لا تَخلُق ، ولا تجلب نفعًا لعابديها ، ولا تدفع عنهم ضررًا ، ولا تملك لهم حياة ولا موتًا ، ولا تملك شيئًا من السماوات والأرض ، ولا تشارك الله في ملكيتها ، قال الله تعالى ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾[1] ، وقال تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم من دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم من ظَهِيرٍ * وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[2] ، وقال ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[3].

وإذا كانت هذه حال تلك الآلهة ، فإن اتخاذها آلهة من أسفَهِ السَّفهِ وأبطلِ الباطل.

الثاني: أن هؤلاء المشركين كانوا يُقِرُّون بأن الله تعالى هو وحده الرب الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء ، وهو يُجير[4] ولا يُجارُ عليه ، وهذا يستلزم أن يوحِّدوه بالألوهية كما وحَّدوه بالربوبية ، كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاء وَأَنزلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُون﴾[5] ، وقال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُون﴾[6] ، وقال ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُون * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُون﴾[7].[8]

فصل

---

[1] سورة الفرقان: ٣ .

[2] سورة سبأ: ٢٢- ٢٣ .

[3] سورة الأعراف : ١٩١- ١٩٢ .

[4] يُجِير أي ينقذ ، وقوله: (ولا يُجار عليه) أي لا يستطيع احد أن ينقِذ أحدا من عذابه.. انظر «لسان العرب» ، مادة: جور.

[5] سورة البقرة: ٢١-٢٢ .

[6] سورة العنكبوت: ٦١ .

[7] سورة يونس: ٣١-٣٢ .

[8] والبراهين العقلية على بطلان الشرك كثيرة ، وقد يسر الله إعداد بحث بعنوان «خمسون دليلا على بطلان دعاء غير الله» ، حشدت فيه جمعا من الأدلة الشرعية والعقلية على بطلان الشرك ، وهو منشور على شبكة المعلومات ، فليراجعه من أراد الاستزادة.

وقد اعتنى علماء المسلمين من المتقدمين والمتأخرين بموضوع توحيد الألوهية ، وألفوا في بيانه وبيان ما يناقضه مؤلفات عدة ، وغالبها يقع ضمن مؤلفات أخرى وليست مؤلفات مستقلة ، إلا أن كتاب «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله من أفضل الكتب في توحيد الألوهية ، ففيه ذكر فضل التوحيد وأنواعه ونواقضه ومكملاته ، وقد اعتنى العلماء به منذ أُلِّف تدريسا وشرحا ، فله شروح كثيرة تتجاوز العشرين شرحا ، أنفسها شرحان ؛ الأول «تيسير العزيز الحميد بشرح كتاب التوحيد» لحفيده الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله[1] ، والثاني «القول المفيد بشرح كتاب التوحيد» للشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله[2].

[1] الشيخ سليمان من فحول علماء نجد ، ولد سنة ١٢٠٠ هـ ، درس على عدة مشايخ ، وعنده إجازة في رواية الكتب الستة ، درَّس وولي القضاء ، وتوفي شابا شهيدا بإذن الله سنة ١٢٣٤ هـ ، له عدة مؤلفات ، من أشهرها كتابه «تيسير العزيز الحميد» ، والكتاب على مدى ثلاث قرون ينهل منه العلماء وطلبة العلم إلى وقتنا هذا ، وهو عمدة في علم توحيد العبادة ، وما بعده عيال عليه ، رحمه الله رحمة واسعة.

[2] هو الشيخ الأصولي الفقيه المفسر محمد بن صالح بن عثيمين ، من علماء القرن الخامس عشر الهجري ، برَّز في العقيدة والفقه والتفسير ، نفع الله به الناس في زمانه نفعا عظيما ، وانتشر علمه في الآفاق ، سواء منه ما كان مسجلا على الأشرطة أو ما كان مدونا في الكتب ، له طلبة كثر ، جُمعت فتاواه ورسائله فوقعت إلى حين كتابة هذه الأسطر في ٢٩ مجلدا ، وبعد وفاته استؤجرت قناة فضائية لبث علمه ، فتضاعف انتشار علمه على ما كان في حياته ، وهذا من دلائل الإخلاص ، نحسبه كذلك والله حسيبه ، والله يؤتي فضله من يشاء.
انظر ترجمته في كتاب «ابن عثيمين الإمام الزاهد» للدكتور ناصر بن مسفر الزهراني ، الناشر: دار ابن الجوزي – الدمام.

الرابع: الإيمان بأسماء الله وصفاته

مدخل

الإيمان بأسماء الله وصفاته له مكانة عظمى في العقيدة الإسلامية ، فقد تمدح الله كثيرا في كتابه العزيز بأسمائه وصفاته ، كقوله تعالى ﴿وكان الله سميعا بصيرا﴾ ، وقوله ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ ، وغير ذلك مما لا يحصى كثرة.

كما أثنى النبي ﷺ على ربه في مواضع كثيرة من السنة الشريفة ، ونعته فيها بنعوت الجلال وصفات الكمال.

والإيمان بأسماء الله وصفاته يوجب للعبد خشيته ، ومن ثَمَّ عبادته على الوجه الذي يُرضي الله تعالى ، فإن الأمر كما قيل: (من كان بالله أعرف كان له أخوف)[1] ، ولهذا كان العلماء بأسماء الله وصفاته هم أخشى الناس لله تعالى ، كما قال تعالى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

ولما كان الإيمان بأسماء الله وصفاته بهذه الأهمية ؛ وجب على المؤمن الإيمان بها على الوجه المطلوب شرعا ، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ من الأسماء والصفات على الوجه اللائق به ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل ، ودليل وجوب إثبات الأسماء الحسنى لله تعالى قوله ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾[2] ، ودليل وجوب إثبات صفات الكمال له قوله تعالى ﴿ولله المثل الأعلى﴾[3] ، أي الوصف الكامل ، وقوله ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[4].

والإيمان الصحيح بأسماء الله وصفاته يقتضي أمرين ؛ الأول: فهمها كما جاءت ، وضده تحريف معانيها عما تقتضيه اللغة العربية وفهم السلف الصالح لها.

والأمر الثاني: الوقوف في أسماء الله وصفاته عند ما ورد في الكتاب والسنة ، وضده ابتداع اسم أو وصف لله لم يَرِد في أحدهما.

وقبل الدخول في تفصيل الكلام في هذين الأمرين فإنه يحسن بنا التنبيه إلى قاعدة هامة جدا في باب فهم الأسماء والصفات ، وهي أن معيار الفهم الصحيح للأسماء والصفات هو مطابقة ذلك الفهم لفهم السلف

---

[1] رواه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (786) عن أحمد بن عاصم الأنطاكي.

[2] سورة الأعراف: 180 .

[3] سورة النحل: 60 .

[4] سورة الشورى: 11 .

الصالح ، وهم الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين لهم بإحسان وأتباعهم ، أهل القرون الثلاثة المفضلة الأولى ، التي شهد لها النبي ﷺ بالخيرية في قوله: خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم.[1]

وكيف لا تكون تلك القرون خير القرون وهم أتباع الصحابة ، الذين شهد لهم الله تعالى بالخيرية في القرآن في قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾.

وأخبر أنهم أحق بكلمة التقوى وأنهم أهلها ، فقال في سورة الفتح ﴿وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها﴾.

وشهِد لهم في آخر سورة الأنفال بأنهم هم المؤمنون حقا ، قال تعالى ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم﴾.

ونوَّه سبحانه وتعالى برضاه عنهم في سورة التوبة ، فقال عزَّ من قائل عليما ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم﴾.

بل قد أثنى الله عليهم في الكتب السابقة – التوراة والإنجيل – فقال في آخر سورة محمد ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في **التوراة** ومثلهم في **الإنجيل** كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما﴾.

أقول: وكيف لا تكون تلك القرون الثلاثة خير القرون ، وهم أتباع الصحابة ، الذين قال الله تعالى فيهم ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾[2]؟ أي: فإن آمن الناس بمثل إيمانك يا محمد وإيمان أصحابك – ويدخل في ذلك إيمانهم بالأسماء والصفات – فقد اهتدوا ، وإن تولوا عن طريقكم وحادوا عنه فإنما هم يشاقُّون الله ورسوله وقد قال الله تعالى ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾[3].

وبموجب هذه الأدلة وغيرها مما ورد في فضل الصحابة مما لا يحصى كثرة ؛ أجمع المسلمون على عدالتهم وفضلهم وسبقِهِم في الإسلام على كل من جاء بعدهم ، وأنهم القدوة الدينية لمن جاء بعدهم.

---

[1] تقدم تخريجه.

[2] سورة النساء: 115 .

[3] سورة البقرة: 137 .

إذا تقرَّر هذا ؛ فلا أَحَدَ أعلمُ بمراد الله ورسوله في باب الأسماء والصفات – أو غيره من أبواب الدين – منهم ، أي الصحابة رضوان الله عنهم وأتباعهم ، أصحاب القرون الثلاثة المفضلة الأولى ، والمعبر عنهم بالسّلف الصالح ، فالواجب على كل من جاء بعدهم اقتفاء أثرهم ، وردُّ كل ما خالفَ فَهْمَهم ، واعتقاد أنه فهم باطل ، وافتراء للكذب على الله تعالى ، إذ كيف تجهل القرون الثلاثة المفضلة الفهم الصحيح لمعاني الأسماء والصفات ثم يفهمها من جاء بعدهم بقرون؟! هذا لا يقبله شرع ولا عقل.

فصل في بيان الواجب الأول في أسماء الله وصفاته

وعوْداً على بَدءٍ ؛ فالواجب الأول على كل مؤمن بالله تعالى في باب الأسماء والصفات هو **فَهمُها كما جاءت** ، كما تقتضيه اللغة العربية ، وكما فهمها السلف الصالح ، لأن فهمهم هذا قد تلَقَّوه عن النبي ﷺ ، وأنعِم به من فهم ، وكل ما خالف فهم الصحابة فليس من دين الله ، بل هو منهج مخترع مُحدث ، ليس من الإسلام في شيء ، لأن ما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا.

وضد هذا المنهج النبوي في فهم الأسماء والصفات هو الإلحاد فيها ، وهو ثمانية أنواع ، تدور كلها إما على تحريف المعنى الصحيح إلى معنًى غير مراد ، أو إبطال المعنى بالكلية ، ويسمى التعطيل ، أو اشتقاق أسماء للمخلوقين من أسماء الله تعالى ، وسيأتي الكلام على كل نوع من هذه الأنواع بالتفصيل إن شاء الله تعالى.[1]

والإلحاد في أسماء الله وصفاته منافٍ للإيمان بأسماء الله وصفاته ، ومن القول على الله بلا علم ، ومن البدع الكلامية التي اشتد نكير السلف الصالح وأتباعهم على القائلين بها ، ومن المعاصي التي توعد الله فاعليها بالعذاب عياذا بالله ، قال تعالى ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾[2].

فصل في ذكر بعض الآثار عن السلف في فهم الصفات

فإن قيل: هل وَرَدَ عن السلف – رضوان الله عليهم – ما يُثبت أنهم كانوا يفهمون الأسماء والصفات كما جاءت ولا يتعرضون لمعانيها بأي نوع من أنواع التحريف؟

فالجواب نعم ، فقد روى البيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبي داود الطيالسي[3] قال:

---

[1] انظر للفائدة كلاما مختصرا للشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾. (الأعراف: 180)

[2] سورة الأعراف: 180 .

[3] هو سليمان بن داود بن الجارود ، أبو داود الطيالسي البصري ، ثقة حافظ ، مات سنة 204 ، انظر «تقريب التهذيب».

كان سفيان الثوري[1] وشُعبة[2] وحماد بن زيد[3] وحماد بن سلمة[4] وشَريك[5] وأبو عَـوانة[6] لا يَحُدُّون[7] ولا يُشَبِّهون ولا يُمَـثِّلون ، يَروُون الحديث ، لا يقولون (كيف) ، وإذا سُئلوا أجابوا بالأثر.

قال أبو داود: وهو قولنا.

قلت[8]: وعلى هذا مضى أكابرنا. انتهى.[9]

[1] هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، الكوفي ، أبو عبد الله ، ثقة حافظ ، فقيه عابد ، إمام حجة ، سيد أهل زمانه علما وعملا ، حدَّث عنه خلق لا يُحصون ، ويقال إنه أخذ عن ست مئة شيخ ، مات سنة 164 هـ ، انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» (382/4) و «تقريب التهذيب».

[2] هو شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي مولاهم ، أبو بسطام الواسطي ثم البصري ، ثقة حافظ متقن ، كان الثوري يقول: (هو أمير المؤمنين في الحديث) ، وهو أول من فتش بالعراق عن الرجال وذب عن السنة ، وكان عابدا ، مات سنة 160 هـ ، انظر «تقريب التهذيب».

[3] هو حماد بن زيد بن درهم الأزدي الجهضمي ، أبو إسماعيل البصري ، ثقة ثبت فقيه ، كان من أئمة العلماء في زمانه ، مات سنة 179 هـ ، انظر «تقريب التهذيب» ، و «السير» (456/7).

[4] هو حماد بن سلمة بن دينار البصري ، أبو سلمة ، الإمام القدوة ، شيخ الإسلام ، من المكثرين من رواية الحديث النبوي ، ثقة عابد ، قال أحمد بن حنبل: إذا رأيت الرجل يغمز حماد بن سلمة فاغمزه على الإسلام ، فإنه كان شديدا على المبتدعة. مات سنة 167 هـ ، انظر «تقريب التهذيب» ، و «السير» (444/7).

[5] هو شَريك بن عبد الله النخعي الكوفي ، القاضي بواسط ثم الكوفة ، أبو عبد الله ، صدوق يخطئ كثيرا ، تغير حفظه منذ ولي القضاء بالكوفة ، وكان عادلا فاضلا عابدا ، شديدا على أهل البدع ، مات سنة 177 أو 178 هـ ، انظر «تقريب التهذيب».

[6] هو أبو عوانة ، وضاح بن عبد الله اليشكري الواسطي البزاز ، ثقة ثبت ، مات سنة 175 أو 176 هـ ، انظر «تقريب التهذيب».

[7] أي لا يصفون الله بـ «الحد» ، لأن الله سبحانه وتعالى لم يصف نفسه بذلك.

[8] القائل هو البيهقي رحمه الله.

[9] كتاب «الأسماء والصفات» (334/2-335) ، وهو في «السنن الكبرى» (3/3).

وقال الوليد بن مسلم[1]: سألت سفيان[2] والأوزاعي[3] ومالك بن أنس[4] والليث بن سعد[5] عن هذه الأحاديث ، فقالوا: نُمِرُّها كما جاءت.[6]

قال شمس الدين الذهبي الشافعي[7] في سفيان الثوري: وقد بثَّ هذا الإمام الذي لا نظير له في عصره كثيرا من أحاديث الصفات ، ومذهبه فيها الإقرارُ والإمرارُ والكفُّ عن تأويلها ، رحمه الله تعالى.[8]

وقال سفيان بن عيينة[9] في أحاديث الصفات: هذه الأحاديث نرويها ونُقِرُّ بها كما جاءت بلا كيف.[10]

أي: بلا تكييف ، وهو ذكر كيفية الصفة[11] ، وسيأتي الكلام على تعريف التكييف إن شاء الله.

علق شمس الدين الذهبي على كلام سفيان فقال: أي على ظاهره ، لا يجوز صرفُه إلى المجاز بنوع من التأويل.[12]

وقال سفيان أيضا: ما وصف الله نفسه فقراءته تفسيره ، ليس لأحد أن يُفسِّره إلا الله عز وجل[13].[14]

---

[1] الوليد بن مسلم الدمشقي ، الإمام عالم أهل الشام ،كان من أوعية العلم ، ثقة حافظا ، من رواة الحديث النبوي ، توفي سنة 195 ، انظر ترجمته في «السير» (211/9).

[2] أي الثوري.

[3] هو عبد الرحمٰن بن عمرو بن يُحمد ، شيخ الإسلام ، وعالم أهل الشام ، له رواية معروفة في الحديث ، توفي سنة 151 ، وقد ترجم له الذهبي ترجمة مطولة في «السير» (107/7).

[4] مالك بن أنس هو الإمام المشهور ، شيخ الإسلام ، حجة الأمة ، إمام دار الهجرة ، عرف به مذهبه الفقهي ، وصاحب كتاب «الموطأ» ، الذي جمع فيه حديث رسول الله ﷺ ، ترجم له الذهبي ترجمة عاطرة مطولة في ثمانين صفحة ونيف ، انظر «السير» (48/8 – 135).

[5] هو الإمام الحافظ شيخ الإسلام ، وعالم الديار المصرية ، الليث بن سعد بن عبد الرحمٰن الفهمي ، أبو الحارث المصري ، ثقة ثبت ، فقيه إمام مشهور ، من رواة الحديث النبوي ، ومن أقران الإمام مالك ، ، مات سنة 75 هـ ، انظر ترجمته في «السير» (136/8).

[6] رواه أبو بكر الخلال – تلميذ الإمام أحمد – في كتابه «السنة» (259/1) واللفظ له ، والبيهقي في «السنن الكبرى» (2/3) ، والآجري في «الشريعة» (104/2) ، والدارقطني في «الصفات» (67).

[7] هو العلامة المؤرخ ، شيخ الجرح والتعديل ، أبو عبد الله ، محمد بن أحمد الذهبي ، تركماني الأصل ، شافعي المذهب ، له مؤلفات لا يستغني عنها من جاء بعده ، كـ «سير أعلام النبلاء» ، و«تاريخ الإسلام» ، و «تذكرة الحفاظ» ، و «العلو للعلي الغفار» ، له رواية للحديث النبوي ، وهو من تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله ، توفي سنة 748 ، انظر ترجمته في «شذرات الذهب» (153/3).

[8] «العلو» ، ص 138 .

[9] هو الإمام الكبير حافظ العصر ، شيخ الإسلام ، أبو محمد ، سفيان بن عيينة بن أبي عمران ، الكوفي ثم المكي ، من المكثرين من رواية الحديث النبوي ، توفي سنة 198 ، انظر ترجمته في «السير» (454/8).

[10] رواه ابن عبد البر عنه في «التمهيد» (136/6) ،كتاب القرآن ، باب ما جاء في الدعاء ، وهو في (148/7 – 149) من ط المغربية.

[11] انظر «فتح رب البرية بتلخيص الحموية» ، ص 31 ، للشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله ، الناشر: دار ابن الجوزي – الدمام.

[12] «العرش» ، ص 149 .

[13] أي: ليس لأحدٍ أن يُفسِّره بذكر كيفيته إلا الله تعالى ، لأنه هو العالم بذلك وحده ، أما البشر فهو غيبٌ عنهم فكيف يُفسِّرونه؟

[14] رواه ابن بطة في «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية» (166/3) ، وابن منده بنحوه في كتاب «التوحيد» (895) ، تحقيق محمد حسن إسماعيل ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

زاد البيهقي: أو رسله صلوات الله عليهم.[1]

وفي رواية: كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته ، والسكوت عليه.[2]

وفي رواية: كل شيء وصف الله به نفسه في القرآن فقراءته تفسيره ، لا كيف ولا مثل.[3]

وقال الإمام وكيع بن الجراح[4] لما سُئل عما يُروى أن الكرسي موضع القدمين ، ونحو هذا ، قال:

كان إسماعيل بن أبي خالد[5] والثوري ومِسعر[6] يروون هذه الأحاديث لا يُفسِّرون شيئاً[7].[8]

واقشعرَّ رَجُلٌ في مجلسِ وكيع لما سمع حديث عمر رضي الله عنه قال: إذا جلس الرب عز وجل على الكرسي ...[9]

فغضِب وكيع[10] وقال: أدركنا الأعمش[11] وسفيان[12] يُحدِّثون بهذه الأحاديث لا ينكرونها.[13]

وقال وكيع: نُسَلِّمُ[1] هذه الأحاديث كما جاءت ، ولا نقول (كيف كذا؟) ، ولا (لِم كذا؟) ، يعني مثل حديث: (يحمل السماوات على إصبع).[2]

---

[1] «الأسماء والصفات» (2/338-339) لأبي بكر البيهقي ، وصححه محققه.

[2] رواه الصابوني في «عقيدة السلف وأصحاب الحديث» (ص 49) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (2/307) ، واللفظ للصابوني.

[3] رواه الدارقطني في كتاب «الصفات» (ص 70) ، تحقيق د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي ، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (3/478).

[4] الإمام وكيع بن الجراح ولد سنة 129 ، كان من بحور العلم وأئمة الحفظ ، مات سنة 197 ، انظر ترجمته في «السير» (9/140).

[5] هو الإمام الكبير الحافظ ، أبو عبد الله البجلي ، الأحمسي ، مولاهم الكوفي ، من رواة الحديث النبوي ، سمع من خمسة من أصحاب النبي ﷺ ، مات سنة 146 . انظر ترجمته في «السير» (6/176).

[6] هو الإمام الثبت شيخ العراق ، الحافظ ، مِسعر بن كِدام بن عبيدة ، من رواة الحديث النبوي ، قال شعبة بن الحجاج: (كنا نسمي مِسعرا: المصحف) ، يعني من إتقانه. توفي سنة 155 . انظر ترجمته في «السير» (7/163).

[7] معنى (لا يُفسِّرون) أي لا يُكيِّفون شيئا من صفات الرب عز وجل بأن يدَّعوا معرفة كيفية شيء منها ، لأن معرفتها من الغيب الذي استأثر الله بعلمه.

[8] رواه الذهبي في «العلو» ص 146 .

[9] هو أثر موقوف على عمر وليس بحديث مرفوع ، وتمامه: ... سُمِع له أطيط كأطيط الرَّحِل الجديد.

وقد رواه عبد الله بن أحمد في كتاب «السنة» (1/231) وغيره.

[10] أي غضب من كون الرجل اقشعر لما سمع ذكر جلوس الرب على الكرسي في الحديث.

[11] هو سليمان بن مهران ، الإمام شيخ الإسلام ، شيخ المقرئين والمحدثين ، رأى أنس بن مالك وروى عنه ، مات سنة 147 ، له ترجمة مطولة في «السير» (6/226).

[12] أي الثوري.

[13] «السنة» لعبد الله بن أحمد (1/232).

وقال أبو عبيد القاسم بن سلاَّم[3]:

هذه الأحاديث حقٌّ لا يُشكُّ فيها ، نَقَلَها الثقاتُ بعضهم عن بعض حتى صارت إلينا ، نصدق بها ونُؤمن بها على ما جاءت.

قال أبو الفضل[4]: ونحن نقول في هذه الأحاديث ما قال أحمد بن حنبل ، متبعين له ولآثاره في ذلك.[5]

علَّق الذهبي على كلام أبي عبيد فقال:

قد صنَّفَ أبو عبيد كتاب «غريب الحديث» ، وما تعرض لأخبار الصفات الإلٰهية بتأويل أبدا ، ولا فَسَّر منها شيئا ، وقد أخبر بأنه ما لَحِق أحدا يُفسرها[6] ، فلو كان والله تفسيرها سائغا أو حتما لأوشك أن يكون اهتمامهم بذلك فوق اهتمامهم بأحاديث الفروع والآداب ، فلمَّا لم يتعرضوا لها بتأويل ، وأقروها على ما وردت عليه ؛ عُلِم أن ذلك هو الحق الذي لا حَيْدَةَ عنه.[7]

وقال أبو بكر الخلال[8]: سمعت عبد الوهاب الوراق[9] يقول: سألت أسود بن سالم[10] عن هذه الأحاديث فقال: نحلف عليها بالطلاق والمشي[11] إنها حق.[12]

فصل في ذكر تقريرات بعض أئمة المذاهب في فهم الأسماء والصفات

---

[1] التسليم هو الانقياد والخضوع ، فمعنى قوله (نُسَلِّم هذه الأحاديث) أي نؤمن بما دلت عليه ولا نتجاوز ذلك بتأويل معانيها أو تكييفِها أو تعطيلِها.

[2] ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (165/9) في ترجمة وكيع.

[3] هو الإمام المجتهد أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي اللغوي الفقيه ، صاحب المصنفات ، مات سنة 224 هـ ، انظر «تذكرة الحفاظ» (6/1).

[4] هو عباس بن محمد الدوري ، راوي الأثر عن أبي عبيد.

[5] رواه أبو بكر الخلال في «السنة» (258/1) ، والآجري في «الشريعة» (622) ولفظه: هذه عندنا حق ، نقلها الناس بعضهم عن بعض.

[6] أي ما أدرك أحدا ممن قبله يُفسرها بذكر الكيفية.

[7] «السير» (162/8).

[8] هو الإمام العلامة الحافظ الفقيه ، شيخ الحنابلة وعالمهم ، أبو بكر ، أحمد بن محمد بن هارون البغدادي الخلال ، من أجل تلامذة الإمام أحمد ، أخذ الفقه عن الإمام أحمد وكثير من أصحابه ، صنف كتاب «السنة» ، جمع فيه أحاديث وآثار رواها بإسناده في العقيدة عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين ، وله مصنفات جمع فيها مسائل كثيرة عن الإمام أحمد ، فكم من حسنة له على من بعده من المسلمين ، توفي سنة 311 ، انظر ترجمته في «السير» (297/14) و«طبقات الحنابلة» (22/3).

[9] هو الإمام القدوة الرباني الحجة ، أبو الحسن ، عبد الوهاب بن عبد الحكم بن نافع ، البغدادي الوراق ، من رواة الحديث النبوي ، توفي سنة 251 ، انظر «السير» (323/12).

[10] (كان ثقة ورعا فاضلا ، مات سنة ثلاث عشرة أو أربع عشرة ومئتين) ، قاله ابن جرير الطبري ، سمع الحديث من حماد بن زيد وسفيان بن عيينة وغيرهما ، ورُوي عنه الحديث ، انظر ترجمته في «تاريخ بغداد» (498/7).

[11] أي النذر بالمشي إلى المسجد الحرام إن لم تكن أحاديث الصفات حق على ظاهرها.

[12] «السنة» لأبي بكر الخلال (258/1-259) ، وانظر «الإبانة» (61/3).

أقوال الحنفية

قال محمد بن الحسن الشيباني[1] – صاحب أبي حنيفة –: **اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب** على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عز وجل من غير تفسيرٍ ولا وصفٍ ولا تشبيهٍ ، فمن فَسَّر شيئا من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ وفارق الجماعة ، فإنهم لم يصِفوا ولم يُفسروا ، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا ، فمن قال بقول جَهمٍ[2] فقد فارق الجماعة ، لأنه قد وصفه بصفةٍ لا شيء.[3]

أقوال الشافعية

قال الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله: آمنت بكلام الله على مراد الله ، وآمنت بكلام رسول الله على مراد رسول الله.[4]

وروى الخطيب البغدادي الشافعي[5] في «الكفاية» بإسناده إلى الشافعي أنه قال:

الأصل قرآن وسنة ، فإن لم يكن فقياسٌ عليهما ، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله ﷺ وصحَّ الإسناد منه فهو سنة.

ثم قال: والخبر المفرد على ظاهره ، وإذا احتمل المعاني فما أشبه منها ظاهره أولاها به[6].[7]

"وقال الإمام الشافعي فيما رواه عنه يونس بن عبد الأعلى – وقد سُئِل عن صفات الله — فقال:

لله أسماء وصفات لا يَسَعُ أحدا قامت عليه الحجة ردَّها ، لأن القرآن نزل بها ، وصح عن رسول الله ﷺ القول بها ، فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر ، فأما قبل ثبوت الحجة عليه من جهة الخبر فمعذور بالجهل ، لأن عِلم ذلك لا يُدرك بالعقل ، ولا بالرَّوِيَّةِ والفكر".[1]

---

[1] هو محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني ، صاحب أبي حنيفة وأبي يوسف ، فقيه العراق ، روى عن أبي حنيفة ومالك بن أنس والأوزاعي ، أخذ عنه الشافعي فأكثر جدا ، واستفاد منه أحمد ومالك ، وَلِي القضاء ، وتوفي سنة 189 ، انظر «سير أعلام النبلاء» (134/9).

[2] يقصد الجهم بن صفوان ، مؤسس مذهب الجهمية ، وبئس المذهب والمؤسِّس.

[3] «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (480/3).

[4] ذكره عبد الله بن أحمد بن قدامة (620 هـ) في كتابه «ذم التأويل» (ص 222 ، 256) ، ويقع ضمن مجموع يحوي ثلاث كتب (لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد ، إثبات صفة العلو ، ذم التأويل) ، بتحقيق بدر بن عبد الله البدر ، الناشر: دار ابن الأثير – الكويت.

[5] هو الحافظ الكبير الإمام محدث الشام والعراق أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي ، مات سنة 412 هـ. انظر ترجمته في «تذكرة الحفاظ» (221/3).

[6] أي إذا احتمل الخبر عدة معاني فإن أولاها بأن يفسر به هو المعنى الظاهر المتبادر القريب للذهن.

[7] رواه الخطيب في «الكفاية في علوم الرواية» (564/2-565) ، الناشر: دار الهدى – مصر.

وقال الخطيب البغدادي رحمه الله: أما الكلام في الصفات ؛ فأما ما رُوي منها في السُّنن الصِّحاح فمذهب السَّلف إثباتُها ، وإجراؤها على ظواهرها ، ونفي الكَيف والتشبيه عنها ، والأصل في هذا أن الكلام في الصِّفات فرعٌ عن الكلام في الذَّات ، ونحتذي في ذلك حَذْوه ومِثاله ، وإذا كان معلوما أن إثبات رب العالمين إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف ؛ فكذلك إثبات صفاته ، فإنما هو إثبات وجود ، لا إثبات تحديد وتكييف ، فإذا قلنا: يدٌ وسمعٌ وبصرٌ ؛ فإنما هو إثبات صفاتٍ أثبتها الله لنفسه ، ولا نقول إنَّ معنى اليد القُدرة ، ولا نقول إنَّ معنى السمع والبصر ؛ العلم ، ولا نقول إنها جوارح وأدوات الفعل ، ونقول: إنما وَجَبَ إثباتها لأنَّ التوقيفَ[2] وَرَدَ بها ، وَوَجَبَ نفيُ التشبيه عنها ، لقوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[3] ، وقوله ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾.[4]

وقال الإمام البغوي الشافعي[5] رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿ولُعِنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾[6]: قال أئمة السلف من أهل السنة في هذه الصفات: أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيف.

وقال شمس الدين الذهبي الشافعي رحمه الله في مقدمة كتابه «العلو للعزيز الغفار»:

فإن أحببت يا عبد الله الإنصاف فقف مع نصوص القرآن والسنن ، ثم انظر ما قاله الصحابة والتابعون وأئمة التفسير في هذه الآيات ، وما حكوه من مذاهب السلف ، فإما أن تنطق بعلم ، وإما أن تسكتَ بِحِلم.

وَدَعِ المِراءَ والجدالَ فإن المِراءَ في القرآنِ كفرٌ ، كما نطق بذلك الحديث الصحيح[7].

---

[1] هكذا بنصه من كتاب «الأربعين في صفات رب العالمين» للذهبي ، ص 84 ، تحقيق: عبد القادر بن محمد عطا ، الناشر: مكتبة العلوم والحكم – المدينة ، سنة 1413 .

[2] أي الأدلة الشرعية التي يجب الوقوف عندها.

[3] سورة الشورى: 11 .

[4] رواه الذهبي بإسناده عنه كما في كتاب «العرش» له (148 - 149).

[5] هو الشيخ الإمام العلامة القدوة الحافظ شيخ الإسلام محيي السنة ، أبو الحسين ، الحسين بن مسعود بن الفراء البغوي ، الشافعي المفسر ، صاحب التصانيف ، كـ «شرح السنة» في الحديث ، و «معالم التنزيل» في التفسير ، توفي سنة 516 . انظر ترجمته في «السير» (439/19).

[6] سورة المائدة: 64 .

[7] رواه أبو داود (4603) وأحمد (258/2) بلفظ (جدال في القرآن كفر) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وحكم عليه الألباني بأنه حسن صحيح ، وانظر «الصحيحة» (546/5) و «المشكاة» (79/1).

ورواه أحمد (300/2) عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ أطول: نزل القرآن على سبعة أحرف ، المِراء في القرآن كفر – ثلاث مرات – ... الحديث.

قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي حفظه الله في شرحه لهذا الحديث:

ومعنى الحديث أن الجِدال بالقرآن من الأعمال الكفرية ، فلا يجوز للإنسان أن يجادل في القرآن ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

وسترى أقوالَ الأئمة في ذلك على طبقاتهم بعد سرد الأحاديث النبوية ، جمع الله قلوبنا على التقوى ، فإننا على أصلٍ صحيحٍ وعقْدٍ متينٍ من أن الله تقدّسَ اسمه لا مِثل له ، وأن إيماننا بما ثبت من نعوته كإيماننا بذاته المقدسة ، إذ الصفات تابعة للموصوف ، فنعقل وجود الباري ونميز ذاته المقدسة عن الأشباه من غير أن نَتَعقَّل الماهية.

فكذلك القول في صفاته ؛ نؤمن بها ، ونعقل وجودها ، ونعلمها في الجملة ، من غير أن نتعقلها أو نشبهها أو نكيفها أو نمثلها بصفات خلقه ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.[1] اهـ.

وقال الإمام الحافظ أبو الفداء ، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي[2] رحمه الله عند تفسير قوله تعالى ﴿ثم استوى على العرش﴾[3]:

وأما قوله تعالى ﴿ثم استوى على العرش﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدا ليس هذا موضع بسطها ، وإنما يُسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح ؛ مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من **أئمة المسلمين قديما وحديثا** ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلى أذهان المُشبِّهين منفي عن الله ، لا يُشبِهُهُ شيء من خلقه ، و ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ ، بل الأمر كما قال الأئمة ، منهم نُعَيم بن حماد الخزاعي[4] – شيخ البخاري – قال: (من شبَّه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه) ، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصريحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ، ونفى عن الله تعالى النقائص ؛ **فقد سلك سبيل الهدى**. انتهى كلامه رحمه الله.

فلا يجوز المراء والجدال في القرآن ، فقد يكون كفرا أكبر ، وقد يكون كفرا أصغر ، بحسب قصد فاعله ، فإن جادل في آيات الله على وجه التعنت والعناد والإنكار لما دلت عليه يكون كفرا أكبر ، وإن كان جِداله دون ذلك يكون كفرا أصغر. انتهى

«الإعانة على تقريب الشرح والإبانة ، حديث: «المراء في القرآن كفر» ، باختصار يسير.

[1] انظر (101/1 ، 183) ، تحقيق محمد بن ربيع بن هادي ، ط 2 ، الناشر: دار الراية – الرياض.

[2] هو عماد الدين ، إسماعيل بن عمر بن كثير ، البُصروي الأصل ، الدمشقي الشافعي ، ولد في مطلع القرن الثامن ، درس على شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وبرع في الفقه والتفسير والنحو والتاريخ ، له تصانيف مفيدة ، أشهرها كتابه «تفسير القرآن العظيم» ، وكتاب «البداية والنهاية» في التاريخ ، توفي سنة 774 .

انظر ترجمته في «الدرر الكامنة» لابن حجر ، و «شذرات الذهب» لابن العماد ، و «البدر الطالع» للشوكاني ، رحمهم الله.

[3] سورة الأعراف: 54 .

[4] هو الإمام العلامة الحافظ الفرَضي صاحب التصانيف ، حدَّث عن جماعة منهم عبد الله بن المبارك ، وروى عنه جماعة منهم البخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجه ، قال الذهبي: كان من كبار أوعية العلم.

انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (595/10) و «تذكرة الحفاظ» (6/2).

قلت: وانظر ما قاله إمام الشافعية في وقته الإمام قوَّام السنة ، إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني[1] رحمه الله في كتابه «الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة»[2].

أقوال الحنابلة

قال الخلال في كتاب «السنة»: حدثنا أبو بكر المَرُّوذي رحمه الله قال:
سألت أبا عبد الله[3] عن الأحاديث التي تَرُدُّها الجهمية في الصفات والرؤية والإسراء[4] وقصة العرش[5] ، فصحَّحها أبو عبد الله وقال: قد تلقَّتها العلماء بالقبول ، نُسَلِّم الأخبار كما جاءت.
فقلت له: إن رجلا اعترض في بعض هذه الأخبار كما جاءت.
فقال: يُجفى[6].
وقال: ما اعتراضُه في هذا الموضع؟ يُسَلِّم الأخبار كما جاءت.[7]
وقال حنبل[8]: سمعت أبا عبد الله يقول: قال النبي ﷺ : (يضع قدمه)[9] ، نؤمن به ، ولا نرُد على رسول الله ﷺ ما قال ، بل نؤمن بالله وبما جاء به الرسول ، قال الله عز وجل ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[10].[11]

---

[1] هو الإمام الحافظ أبو القاسم ، إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني ، أحد أئمة الشافعية وحفاظ الحديث ونقادهم ، مات سنة 535 . انظر ترجمته في «السير» (80/20).
والذي وصفه بأنه إمام الشافعية في وقته الإمام ابن القيم في كتابه «اجتماع الجيوش الإسلامية» ، ص 268 ، الناشر: دار عالم الفوائد – مكة.

[2] (101/1 ، 183 ، 188 - 190) ، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي ، الناشر: دار الراية – الرياض.

[3] يعني الإمام أحمد.

[4] الجهمية تنكر حديث عروج النبي ﷺ بجسده وروحه إلى السماء يقظة ، والذي ورد في قصة الإسراء ، قالوا: (عُرِج بروحه دون جسده) ، ليفِرُّوا بذلك من القول بعلو الرب عز وجل بظنهم ، تعالى الله عما يقولون علواكبيرا ، وحديث المعراج مخرج في البخاري (3207) ومسلم (163) ، وانظر «بيان تلبيس الجهمية» (116/6) لابن تيمية رحمه الله ، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – المدينة.

[5] الجهمية تؤول النصوص الواردة في ثبوت العرش واستواء الله عليه وتقول إن الله في كل مكان ، تعالى الله عما يقولون علواكبيرا.

[6] أي يُهجر.

[7] «السنة» لأبي بكر الخلال (246/1-247).

[8] هو حنبل بن إسحاق بن حنبل ، ابن عم الإمام أحمد ، رحمهما الله ، انظر ترجمته في «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى الفراء (383/1).

[9] انظر صحيح البخاري (7384) ومسلم (2848) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

[10] سورة الحشر: 7 .

[11] «طبقات الحنابلة» (386/1).

وقال العلامة ابن القيم[1] رحمه الله ما مُحصَّلُهُ أن الصحابة اختلفوا في تأويل بعض الآيات ، وذكر أمثلة على ذلك ، ثم قال: ولم يتنازعوا في تأويل آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد ، بل اتفقت كلمتهم وكلمة التابعين بعدهم على إقرارها وإمرارها **مع فهم معانيها وإثبات حقائقها** ، وهذا يدل على أنها أعظم النوعين بيانا ، وأن العناية بِبيانها أهم ، لأنها من تمام تحقيق الشهادتين ، وإثباتُها من لوازم التوحيد ، فبيَّنها الله ورسوله بيانا شافيا لا يقع فيه لبسٌ ولا إشكال يُوقِعُ الراسخين في العلم في منازعة ولا اشتباه.

ومن شرح الله لها صدره ، ونوَّر لها قلبه ؛ يعلم أن دلالتها على معانيها أظهر من دلالة كثير من آيات الأحكام على معانيها ، ولهذا آيات الأحكام لا يكاد يَفهم معانيها إلا الخاصة من الناس ، وأما آيات الأسماء والصفات فيشترِك في فهم معناها الخاص والعام ، أعني فِهمَ أصلِ المعنى ، لا فَهمَ الكُنْهِ والكيفيةِ ، ولهذا أشكل على بعض الصحابة[2] قوله تعالى ﴿حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾[3] حتى بُيِّن لهم بقوله ﴿من الفجر﴾ ، ولم يُشكِل عليه[4] ولا على غيره قوله ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾[5] الآية ، وأمثالها من آيات الصفات.

وأيضا فإن بعض آيات الأحكام مجملة عُرِفَ بيانُها بالسُّنة كقوله تعالى ﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾[6] ، فهذا مُجملٌ في قدر الصيام والإطعام ، فبيَّنته السُّنةُ بأنه صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين أو ذبح شاة ، ونظائره كثيرة كآية السرقة وآية الصلاة وآية والحج.

وليس في آيات الصفات وأحاديثها مُجملٌ يحتاج إلى بيان من خارج ، بل بيانها فيها ، وإن جاءت السنة بزيادة في البيان والتفصيل.

فلم تكن آيات الصفات مجملة محتمِلة ، لا يُفهم المراد منها إلا بالسنة ، بخلاف آيات الأحكام.[7] انتهى.

وقال أيضا رحمه الله في «إعلام الموقعين»: فصل في تحريم الإفتاء في دين الله بالرأي:

---

[1] هو محمد بن أبي بكر بن سعد الزُّرَعي ثم الدمشقي ، المعروف بابن قيم الجوزية ، من علماء المائة الثامنة ، لازم شيخه ابن تيمية إلى أن مات سنة 728 ، فكان من كبار تلامذته ، ثم حمل بعده لواء الدعوة والجهاد العلمي إلى أن مات سنة 751 ، كان واسع المعرفة ، قوي الحجة ، دقيق الاستنباط ، كثير المصنفات ، ومؤلفاته مقبولة عند جميع الناس ، حتى صار من بعده عيالا عليه ، نصر العقيدة الإسلامية نصرا مؤزرا ، ورد على المبتدعة نظما ونثرا ، لاسيما المتفلسفة والقبورية والمؤولة والمتصوفة ، رحمه الله رحمة واسعة ، فقد جدد هو وشيخه دين الله ، فكانا منعطفا في حياة الأمة الإسلامية. انظر ترجمته في «شذرات الذهب» لابن العماد و «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب ، ومن أجمع من ترجم له الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رحمه الله في كتابه «ابن قيم الجوزية ، حياته وآثاره».

[2] يعني عدي بن حاتم رضي الله عنه.

[3] سورة البقرة: 187 .

[4] يعني عديا ، الصحابي نفسه.

[5] سورة البقرة: 186 .

[6] سورة البقرة: 196 .

[7] «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» (210/1 – 212) باختصار.

وقد تَنَازَعَ الصَّحَابَةُ في كَثِيرٍ من مَسَائِلِ الْأَحْكَامِ ، وَهُمْ سَادَاتُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَكْمَلُ الْأُمَّةِ إيمَانًا ، وَلَكِنْ بِحَمْدِ اللَّه **لم يَتَنَازَعُوا في مَسْأَلَةٍ وَاحِدَةٍ من مَسَائِلِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ** ، بَلْ كلهم على إثْبَاتِ ما نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ كَلِمَةً وَاحِدَةً من أَوَّلِهِمْ إلَى آخِرِهِمْ ، لم يَسُومُوهَا[1] تَأْوِيلًا ، ولم يُحَرِّفُوهَا عن مَوَاضِعِهَا تَبْدِيلًا ، ولم يُبْدُوا لِشَيْءٍ منها إبْطَالًا ، وَلَا ضَرَبُوا لها أَمْثَالًا ، ولم يَدْفَعُوا في صُدُورِهَا وَأَعْجَازِهَا ، ولم يَقُلْ أَحَدٌ منهم: (يَجِبُ صَرْفُهَا عن حَقَائِقِهَا وحملُها على مَجَازِهَا) ، بَلْ تلقَّوها بِالْقَبُولِ وَالتَّسْلِيمِ ، وَقَابَلُوهَا بِالْإِيمَانِ وَالتَّعْظِيمِ ، وَجَعَلُوا الْأَمْرَ فيها كُلَّهَا أَمْرًا وَاحِدًا ، وَأَجْرَوْهَا على سَنَنٍ وَاحِدٍ[2] ، ولم يَفْعَلُوا كما فَعَلَ أَهْلُ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ ، حَيْثُ جَعَلُوهَا عِضِينَ[3] ، وَأَقَرُّوا بِبَعْضِهَا وَأَنْكَرُوا بَعْضَهَا من غَيْرِ فُرْقَانٍ مُبِينٍ ، مع أَنَّ اللَّازِمَ لهم فِيمَا أَنْكَرُوهُ كَاللَّازِمِ فِيمَا أَقَرُّوا بِهِ وَأَثْبَتُوه.[4]

وقال ابن عبد الهادي الحنبلي[5] رحمه الله في «الصَّارم المنكي»:

ولا يجوز إحداث تأويل في آيةٍ أو سُنّةٍ لم يكن على عهد السلف ولا عرفوه ولا بَيّنوه للأمة ، فإن هذا يتضمن أنهم جَهِلوا الحق في هذا وضلوا عنه ، واهتدى إليه هذا المعترض المستأخر[6] ، فكيف إذا كان التأويل يخالف تأويلهم ويناقضه؟[7]

ولما كان إثبات الصفات كما جاءت هو طريق الصحابة ؛ لم يختلفوا رضي الله عنهم في شيء منها ، بخلاف من أتى بعدهم من أهل التحريف والتمثيل وغيره من المسالك المعوجَّة.

أقوال المالكية

---

[1] السَّوم هو تجشم إنسانٍ مشقة أو ظلما ، كما قال تعالى ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ ، فسومُ الأسماء والصفات تأويلا – كما في السياق هنا – أي ظلمها بذلك التأويل ، وغمطُها حقها الشرعي وهو إمرارها كما جاءت.

[2] أي طريقة واحدة.

[3] عِضِين أي مفرقة ، تفرق كلامهم فيها واختلف.

[4] (91/2) ، تحقيق مشهور حسن سلمان ، الناشر: دار ابن الجوزي – الدمام.

[5] هو الإمام العلامة محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي الحنبلي ، من تلامذة جمال الدين المزي وشيخ الاسلام ابن تيمية والذهبي ، قال الذهبي: (ما اجتمعت به قط إلا واستفدت منه رحمه الله تعالى). عني بالحديث وفنونه ، عدَّ له ابن رجب في ترجمته في كتاب «ذيل طبقات الحنابلة» ما يزيد على سبعين مصنفا ، توفي سنة 744 وعمره أربعون سنة أو أقل.

انظر ترجمته في آخر كتاب «تذكرة الحفاظ» للذهبي ووصفه هناك بالإمام الأوحد ، و«ذيل تذكرة الحفاظ» لمحمد بن علي الحسيني ، ص 32 ، و«الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لابن حجر ، و«الذيل على طبقات الحنابلة» لابن رجب الحنبلي ، (115/5) ، تحقيق: عبد الرحمٰن بن سليمان العثيمين ، الناشر: مكتبة العبيكان – الرياض.

[6] أي الذي جاء في القرون المتأخرة ، التي تلت القرون الثلاثة المفضلة.

[7] ص 321 ، الناشر: دار الإفتاء بالمملكة العربية السعودية.

روى الإمام محمد بن عبد الله بن أبي زمنين الأندلسي رحمه الله بسنده عن عبد الرحمٰن بن القاسم رحمه الله[1] قال: لا ينبغي لأحد أن يصف الله إلا بما وصف به نفسه في القرآن ، ولا يُشبِّه يديه بشيء ، ولا وجهه بشيء ، ولكن يقول: له يدان كما وصف نفسه في القرآن ، وله وجه كما وصف نفسه ، يقف عند ما وصف به نفسه في الكتاب ، فإنه تبارك وتعالى لا مثل له ولا شبيه ، ولكن هو الله لا إله إلا هو كما وصف نفسه ، ويداه مبسوطتان كما وصفها ﴿والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه﴾[2] كما وصف نفسه.[3]

وقال الإمام أبو عمرو الداني[4] رحمه الله بعدما رَوى عن مكحول والزهري قولَهما في الصفات: (أَمِرَّ الأحاديثَ كما جاءت) ، قال:

وهذا دين الأمة ، وقولُ أهل السنة في هذه الصفات أن تُمَرَّ كما جاءت بغير تكييف ولا تحديد ، فمن تجاوز المروِيَّ فيها وكيَّف شيئا منها ومثَّلها بشيءٍ من جوارِحنا وآلاتنا فقد ضلَّ واعتدى ، وابتدَع في الدين ما ليس منه ، **وخرَقَ إجماع المسلمين** ، وفارق أئمة الدين.[5]

وقال حافظ المغرب أبو عمر ، ابن عبد البر[6] المالكي رحمه الله: ليس في الاعتقاد كلِّهِ في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصا في كتاب الله أو صَحَّ عن رسول الله ﷺ أو أَجمَعَت عليه الأمة ، وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك –كلِّه أو نحوِهِ – يُسَلَّمُ له[7] ولا يُنَاظَرُ[1] فيه.

---

[1] هو الإمام عبد الرحمٰن بن القاسم ، قال عنه الذهبي في «تاريخ الإسلام» (1149/4): أحد الأعلام ، وأكبر أصحاب مالك القائمين بمذهبه ... توفي سنة إحدى وتسعين ومئة. انتهى.

[2] سورة الزمر: 67 .

[3] «أصول السنة» ، ص 42 ، تحقيق أحمد بن علي القفيلي ، الناشر: دار الفرقان – مصر.

[4] هو الحافظ الإمام شيخ الإسلام أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الأموي القرطبي الداني ، كان أحد الأئمة في علم القراءات ، وله عدة تواليف ، وله كتاب «الأرجوزة في أصول السنة» في نحو ثلاثة آلاف بيت ، قال الذهبي: بلغني أن مصنفاته مئة وعشرون تصنيفا. مات رحمه الله سنة 444 ، انظر ترجمته في «تذكرة الحفاظ» (212/3) ، و «تاريخ الإسلام» (659/9) ، و«معرفة القراء الكبار» كلها للذهبي.

[5] «الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات» ، 56 – 59 .

[6] هو شيخ الإسلام ، حافظ المغرب ، أبو عمر ، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النَّمَري ، الأندلسي ، القرطبي ، المالكي ، محدث فقيه ، صاحب التصانيف الفائقة ، أشهرها كتاب «التمهيد» في شرح أحاديث موطأ مالك ، وكتاب «الاستذكار» في شرح آثاره ، وكتاب «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» ، و «جامع بيان العلم وفضله» ، له رواية للحديث النبوي ، توفي سنة 463 ، انظر ترجمته في «تذكرة الحفاظ» (217/3).

[7] أي يُسلَّم للخبر ، فأخبار آحاد الناس مقبولة إن صحت.

ثم روى بسنده عن الأوزاعي قال: كان مكحول[2] والزُّهري[3] يقولان: أرُوُوا هذه الأحاديث كما جاءت ، ولا تُناظِروا فيها.

قال أبو عمر[4]: نحو حديث التنزل ، وحديث: إن الله عز وجل خلق آدم على صورته ، وأنه يُدخِلُ قدمه في جهنم ، وأنه يضع السماوات على إصبع ، وأن قلوب بني آدم بين أُصبُعين من أصابع الرحمٰن ، يُقلِّبها كيف يشاء ، وإن ربكم ليس بأعور ، وما كان مثل هذه الأحاديث.[5]

وقال الإمام محمد بن أحمد القرطبي المالكي[6] رحمه الله:

فإذا كان معلوما أن إثبات الباري سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية ؛ فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف ، فإذا قلنا: (يد وسمع وبصر ونحوها) ؛ فإنما هي صفات أثبتها الله تعالى لنفسه ، لا نقول (إن معنى اليد: القوة والنعمة) ، ولا (معنى السمع والبصر: العلم) ، ولا نقول: (إنها جوارح وأدوات الفعل) ، ذهب إلى القول بهذا جماعة من الأئمة ، فلم يتأولوا ، وكذلك جميع الصفات أجرَوها على ظاهرها ، ونفوا الكيفية والتشبيه عنها.[7]

قلت: وانظر ما قاله الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي[8] رحمه الله وهو من متأخري المالكية ، فقد قرر ما قرره أسلافه ، ولولا خشية الإطالة لنقلنا كلامه ، ولذا نكتفي بالإحالة على ما قرره في هذا الباب.[1]

---

[1] المناظرة هي المناقشة بين طرفين ، فقوله (لا يُناظر فيه) أي لا تُجعل صفات الله تعالى عُرضةً للمناقشة والجدل ، بل الواجب هو التسليم لمعناها الظاهر وإمرارها كما جاءت.

[2] هو عالم أهل الشام ، أبو عبد الله مكحول بن أبي مسلم الهذلي ، الفقيه الحافظ ، مات سنة 113 . انظر «تذكرة الحفاظ» (82/1).

[3] هو أعلم الحفاظ ، أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري ، مات سنة 124 ، وقيل غير ذلك. انظر «تذكرة الحفاظ» (83/1).

[4] أبو عمر هي كنية ابن عبد البر رحمه الله.

[5] «جامع بيان العلم وفضله» ، باب ما يكره فيه المناظرة.

[6] «إمام متفنن متبحر في العلم ، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور فضله ، وقد سارت بتفسيره العظيم الشأن الركبان ، وهو كامل في معناه ، وله كتاب «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» ، وكتاب «التذكرة» وأشياء تدل على إمامته وذكائه وكثره اطلاعه». انتهى باختصار يسير من «تاريخ الإسلام» للذهبي (229/15 – 230). توفي رحمه الله سنة 671 هـ.

[7] «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» (10/2) ، باختصار يسير. الناشر: دار الصحابة للتراث – طنطا.

[8] هو الشيخ العلامة الأصولي المفسر ، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، من علماء القرن الرابع عشر المبرَّزين ، كان غزير العلم ، متوقد الذكاء ، ذو حافظة نادرة ، وذو بصيرة بمذاهب المتكلمين ووجوه بطلانها ، انظر ما قاله رحمه الله عند تفسير الآية 54 من سورة الأعراف.

وللشيخ نحو عشرين كتابا ، أكثرها في التفسير والفقه والعقيدة ، أشهرها ذكرا «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» ، و «مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر» ، وقد جُمِعت مؤلفاته في موسوعة علمية واحدة «آثار الشيخ محمد الأمين الشنقيطي».

خلاصة

خلاصة ما تقدم من التقريرات العلمية أن أهل السنة يفهمون صفات الله تعالى كما فهمها النبي ﷺ وصحابته والتابعون ، أصحاب القرون الثلاثة الأولى ، من غير غلو ولا جفاء ، فلا يُغالون في إثبات الصفات بتمثيلها بصفات المخلوقين ، ولا يقِفون من صفات الرب موقف الجفاء بنفي حقائقها ومعانيها كما فعلت الجهمية ، بل يقفون موقفا وسطا ، فيؤمنون مثلا بمجيء الرب يوم القيامة لفصل القضاء بين العباد بحسب معنى المجيء المفهوم في اللغة العربية التي خاطبهم الله بها ، ويؤمنون به ، ولكنهم لا يُمثِّلونه على نحو معين ، وذلك لسببين ؛ **الأول**: أن كيفية صفات الرب من الغيب الذي أخفاه الله عنا ، وما كان من الغيب فتصوُّره في الذهن من العبث.

والثاني أن أهل السنة يؤمنون أن الله ﴿ليس كمثله شيء﴾ ، والمثلية تعم ذاته وصفاته ، فإذا كان الأمر كذلك فادعاء علم كيفية صفاته من الكذب والقول على الله بغير علم ، حمانا الله من ذلك.

فصل في بيان الواجب الثاني في أسماء الله وصفاته

أما الأمر الثاني الواجب في أسماء الله وصفاته فهو التَّوقف في إثبات الأسماء والصفات على ما جاء في الكتاب والسنة[2] **، وعدم اختراع أسماء وصفات لله لم ترد فيهما** ، وهذا هو هدي السلف رحمهم الله ، قال الإمام أحمد: لا يوصف الله بشيء أكثر مما وصف به نفسه عز وجل.[3]

توفي رحمه الله عام 1393 هـ.

باختصار من ترجمته المذكورة في مقدمة كتاب «الأضواء» ، الناشر: دار عالم الفوائد – مكة.

[1] انظر المراجع التالية:

1. «منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات» ، وقد طبع عدة طبعات.
2. كتابه «أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن» ، تفسير سورة الأعراف: الآية 54 .
3. كتابه «منع جواز المجاز في المنزَّل للتعبد والإعجاز» ، فصل: (بيان معنى الحقيقة في آيات الصفات) ، وهو مطبوع مع كتابه «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» ، ضمن مجموع مؤلفاته الموسومة: (آثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي) ، الناشر: دار عالم الفوائد – مكة.

[2] ما تقدم ذكره هو الأمر الأول الواجب في أسماء الله وصفاته ، وهو: فَهمها كما جاءت ، كما تقدمت الإشارة إليه في أول هذا القسم من الكتاب ، ومن هنا يبدأ الكلام في الأمر الثاني الواجب في أسماء الله وصفاته.

[3] رواه القاضي أبو يعلى عنه في «طبقات الحنابلة» (386/1) في ترجمة حنبل بن إسحاق.

وقال مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير[1]: الحمد لله الذي مِنَ الإيمانِ به الجهلُ بغيرِ ما وصفَ مِنْ نفسِهِ.
ثم أخذه عنه عبد العزيز بن الماجَشون[2] ، ثم أخذه عنه سَحنون[3].[4]
وقال ابن عبد البر المالكي رحمه الله:
ألا ترى أنا نقول: له عرش ، ولا نقول: له سرير ، ومعناهما واحد.
ونقول: هو الحكيم ، ولا نقول: هو العاقل.
ونقول: خليل إبراهيم ، ولا نقول: صديق إبراهيم ، وإن كان المعنى في ذلك كله واحدا.

لا نُسمِّيه ولا نَصِفه ولا نُطلق عليه إلا ما سَمَّى به نفسه ، على ما تقدم ذِكرُنا له من وَصْفِه لنفسِه لا شريك له ، ولا نَدفع ما وصف به نفسه ، لأنه دفعٌ للقرآن[5].[6]

---

[1] هو الإمام القدوة الحجة مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير العامري البصري ، أحد الأعلام ، حدَّث عن عثمان وعلي وأبي ذر وأبيه وعمار بن ياسر وعمران بن حصين وعائشة وعياض بن حمار وعبد الله بن مغفل رضي الله عنهم.
انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» (1172/2) ، و «السير» (187/4) ،كلاهما للذهبي رحمه الله.
وقال ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (72/7): كان ثقةً ، له فضل وورعٌ ورواية وعقل وأدب.

[2] هو الإمام العلم الفقيه ، عبد العزيز بن عبد الله بن الماجشون ، من أقران الإمام مالك ، قال ابن وهب: حججت مرة فسمعت منادٍ ينادي: لا يفتي إلا مالك وعبد العزيز بن الماجشون". توفي رحمه الله سنة 164 . انظر ترجمته في «تذكرة الحفاظ» (163/1).

[3] سحنون بفتح السين وضمها هو الإمام العلامة فقيه المغرب ، عبد السلام بن حبيب التَّنوخي المالكي ، قاضي القيروان ، ساد أهل المغرب في تحرير المذهب المالكي ، وانتهت إليه رئاسة العلم. من أعظم آثاره العلمية كتاب «المدونة» ، والتي دَوَّنَ فيها أسئلة أسد بن الفرات لابن القاسم المالكي ، شيخ سحنون. توفي رحمه الله سنة 240 هـ. انظر ترجمته في «السير» (63/12).

[4] قال ابن عبد البر في «التمهيد» (136/6): قال سحنون: من العلم بالله ؛ الجهل بما لم يُخبِر به عن نفسه.
وذكره ابن قدامة المقدسي الحنبلي عنه في «ذم التأويل» ، ص 263 .
وهذا الكلام أخذه سحنون عن ابن الماجشون ، قال: أخبرني الثقة عن الثقة عن الحسن بن أبي الحسن قال: لقد تكلم مُطرِّف ابن عبد الله بن الشخير على هذه الأعواد بكلام ما قيل قبله ولا يقال بعده.
قالوا: وما هو يا أبا سعيد؟
قال: قال: الحمد لله الذي من الإيمان به الجهل بغير ما وصف من نفسه.
انتهى كلام ابن عبد البر رحمه الله من «التمهيد» من كتاب القرآن ، باب ما جاء في الدعاء ، وهو في (146/7) من ط المغربية.

[5] أي ردٌّ للقرآن.

[6] «التمهيد» (129/6) ،كتاب القرآن ، باب ما جاء في الدعاء ، وهو في (136/7) من ط المغربية.

فصل في بيان ما ينافي الإيمان بأسماء الله وصفاته

مقدمة

ضِدُّ الإيمان بأسماء الله وصفاته الإلحادُ فيها ، قال تعالى ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾[1].

والإلحاد في اللغة هو الميل ، ومنه سُمِّي اللَّحدُ في القبر لحدا ، لأنه مائل إلى جانب القبر ، فالإلحاد في أسماء الله وصفاته هو الميل فيها عما يجب فيها من الحقوق[2] ، وهو منافٍ للإيمان بأسماء الله وصفاته ، ومن القول على الله بلا علم ، ومن البدع الكلامية التي اشتد نكير السلف الصالح وأتباعهم على القائلين بها ، ومن المعاصي التي توعد الله فاعليها بالعذاب عياذا بالله كما في الآية المتقدمة ﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾.

والإلحاد أنواع ثمانية ، نذكرها على سبيل السَّرد ، ثم نشرح كل واحدٍ منها بما يسر الله تعالى:

الأول: التعطيل

الثاني: التمثيل

الثالث: التكييف

الرابع: التحريف

الخامس: التفويض

السادس: تسمية الله بما لم يُسِمِّ به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ ، أو وصفه بما لم يصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ .

السابع: إنكار أن يكون لله أسماء

الثامن: اشتقاق أسماء للمعبودات الباطلة من أسماء الله الحسنى

فصل

قبل الدخول في شرح أنواع الإلحاد في أسماء الله وصفاته ؛ فإنه يحسن التنبيه إلى أن هذه الأنواع الثمانية أو أكثرها ليست إلا منتجات ما يسمى بعلم الكلام ، وهو العلم الذي يبحث في ذات الله وصفاته على

---

[1] سورة الأعراف: 180 .

[2] تقدم في أول هذا البحث ذكر أن الواجب في أسماء الله تعالى وصفاته أمران: الأول: فهمها كما جاءت ، والثاني: الوقوف على الوارد منها.

طريقة الفلاسفة ومنتجات عقول البشر ، وليس من منطلق فهم السلف الصالح ، الذي قاعدته التسليم للكتاب والسنة ، وفهم النبي ﷺ وصحابته لآيات الصفات.

فعلم الكلام يدور على إثبات أمور العقائد بالأدلة العقلية والطرق الجدلية مع الإعراض عما في القرآن والسنة من الأدلة النقلية الدالة على أصول الدين.

ولا شك أن من قدم العقل على الشرع ، واستغنى بفهمه وعقله عن فهم النبي ﷺ وصحابته فإنه ضال ، ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله: لا يفلح صاحب كلام أبدا ، ولا تكاد ترى أحدا نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل[1].[2]

وقال الشافعي رحمه الله: من ارتدَى بالكلام لم يُفلح.[3]

وقال أيضا: حُكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال ، ويُحملوا على الإبل ، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل ، وينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة ، وأقبل على الكلام.[4]

قال ابن القيم رحمه الله بعدما نقل كلام الشافعي: وقد اتفقت الأئمة الأربعة على ذم الكلام وأهله ، وكلام الإمام الشافعي ومذهبه فيهم معروف عند جميع أصحابه.[5]

قلتُ: ومما يبين بطلان علم الكلام تراجع بعض أئمته عنه ، فمن ذلك ما قاله إمام الحرمين ، شيخ الشافعية ، أبو المعالي ، عبد الملك بن الإمام عبد الله بن يوسف الجويني النيسابوري[6] رحمه الله في مرض موته متراجعا عن المقالات الكلامية التي كان يقول بها:

---

[1] الدغل هو الفساد. انظر «لسان العرب».

[2] رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (1796).

[3] رواه البيهقي بإسناده عن الشافعي في كتابه «مناقب الشافعي» (463/1).

[4] رواه البيهقي بإسناده عن الشافعي في كتابه «مناقب الشافعي» (462/1) ، وابن أبي حاتم الرازي في «آداب الشافعي ومناقبه» (ص 143) ، وكذا ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (1794).

[5] «إعلام الموقعين» (220/4) ، فصل: فقهاء المذهب المقلدون – إخراج النصوص عن ظاهرها بالتأويل الفاسد.

[6] هو إمام الحرمين ، أبو المعالي ، عبد الملك بن الإمام عبد الله بن يوسف الجويني ، النيسابوري ، شيخ الشافعية في زمانه ، وقع في الاعتزال في أول أمره ، ثم لما اراد الله به خيرا رجع إلى طريقة أهل السنة والجماعة ، وألف في ذلك كتاب «الرسالة النظامية في الأحكام الإسلامية» ، وله مقالات مشهورة عنه قالها بعد تراجعه عن الاعتزال ، منها قوله: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما اشتغلت بالكلام) ، أي علم الكلام ، وهو العلم الذي يبحث في ذات الله وصفاته على طريقة الفلاسفة ومنتجات عقول البشر ، وليس من منطلق فهم السلف الصالح ، الذي قاعدته التسليم للكتاب والسنة ، وفهم النبي ﷺ وصحابته ، فهو لا يعدو عن كونه كلام البشر ، فسمي بعلم الكلام ، وهو مذموم بلا شك ، ودرجة الانحراف فيه تتفاوت بحسبه.

ومما قاله رحمه الله متراجعا عن المقالات الكلامية ؛ قوله في مرض موته لمن حوله: اشهدوا علي أني قد رجعت عن كل مقالة تخالف السنة ، وأني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور.

وقال يوما لأصحابه: يا أصحابنا ، لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به.

اشهدوا علي أني قد رجعتُ عن كل مقالة تخالف السنة ، وأني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور.

وقال يوما لأصحابه: يا أصحابنا ، لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفتُ أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به.

وقال مرَّةً: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما اشتغلت بالكلام.

وله كلام طويل في تراجعه عن مذهبه الكلامي ذكره في رسالته المعروفة بـ «الرسالة النظامية» ، ونقلها الذهبي في ترجمته في «سير أعلام النبلاء»[1].

وكلام السلف في ذم علم الكلام كثير جدا ، وقد ألف شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري الهروي كتابا ضخما بعنوان «ذم الكلام وأهله» ، فليراجعه من أراد التوسع.

توفي رحمه الله سنة 478 ، وقد ترجم له الذهبي في «السير» (468/18).

[1] (468/18).

شرح أنواع الإلحاد الثمانية

الأول: التعطيل ، وهو التفريغ ، أي تفريغ الاسم أو الصفة عما دَلَّت عليه من معنى ، لأن معنى التعطيل في اللغة هو التَّخلية والترك ، ومنه قوله تعالى ﴿وبئر معطلة﴾[1] ، أي متروكة ومهجورة ، وحقيقة التعطيل إنكار ما أثبت الله لنفسه من الأسماء والصفات ، سواء كان تعطيلا كليا أو جزئيا ، وسواء كان ذلك بتحريف المعنى أو جحْده.

وتعطيل أسماء الرب وصفاته هو منهج الجهمية كما ذكرنا في أول هذا الكتاب ، ولذا يُسمَّون أيضا بالمعطلة ، وشبهتهم فيما ذهبوا إليه أنَّ إثبات الأسماء والصفات يستلزم تشبيهَ اللهِ بخلقه ، وهذا الزعمُ باطل لوجوه منها:

الأول: لو كان إثباتها يستلزم التشبيه للزِم التناقض في كلام الله ، وتكذيب بعضه بعضًا ، وهذا مُحال ، والحق أن الله تعالى أثبت لنفسه الأسماء والصفات ، مع نفيه أن يكون كمثله شيء.

الثاني: أنه لا يلزم من اتفاق الشيئين في اسمٍ أوصفةٍ أن يكونا متماثلين ، فأنت ترى الشخصين يتفقان في كون كلٍ منهما سميعًا بصيرًا متكلمًا ، ولا يلزم من ذلك أنْ يتماثلا في قُدُرات السمع والبصر التي يتمتع بها كل واحد منهما ، وترى الحيوانات لها أيدٍ وأرجلٌ وأعينٌ ، ولا يلزم من هذا الاتفاق أن تكون أيدِيْها وأرجلُها وأعينُها متماثلةً في صُوَرِها.

فإذا ظهر التباين بين المخلوقات فيما تتفق فيه من أسماء أوصفات ؛ فالتباين بين الخالق والمخلوق أبينُ وأعظم.

وما من معطلٍ عطَّلَ صفةً لله تعالى إلا وقع في شرٍّ مما زعم أنه فرَّ منه ، فالذين تأوَّلوا نصوص العلو والفوقية والاستواء بدافع تنزيه الله – بزعمهم – من التحيز والحصر ، وقالوا: (هو في كل مكان) ؛ وقعوا في شرٍّ من تنزيهِهم المزعوم ، وهو ما يلزِم من كلامهم من أن الله يحِل في أجواف الحيوانات وأماكن الخلاء ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.[2]

---

[1] سورة الحج: 45 .

[2] انظر للتوسع في معرفة بطلان مقولة الجهمية والمعطلة (إن إثبات الصفات لله يستلزم التشبيه) هٰذان المصدران:

الأول: «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» ، الفصل الثامن: في بيان خطئهم في فهمهم من النصوص المعاني الباطلة التي تأوَّلوها لأجلها ، فجمعوا بين التشبيه والتعطيل. وقد رد هذه الشبهة من أحد عشر وجها.

الثاني: ما ذكره الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان» ، تفسير سورة محمد ، الآية 24 من عند قوله رحمه الله: وبما ذكرنا يتبين أن من أعظم أسباب الضلال ادعاء أن ظواهر الكتاب والسنة دالة على معان قبيحة ليست بلائقة ....

كلمة جامعة في هذا الباب

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله في كتابه «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان» في تفسير قول الله تعالى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[1]:

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة المثبتين للصفات الاختيارية ، كالاستواء ، والنزول ، والمجيء ، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه ، أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ ، فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته ، من غير تشبيه ولا تحريف ، خلافا للمعطلة على اختلاف أنواعهم ، من الجهمية والمعتزلة والأشعرية ونحوهم ممن ينفي هذه الصفات ويتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان ، بل حقيقتها القدح في بيان الله وبيان رسوله ، والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصُل به الهداية في هذا الباب ، فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي ، بل ولا دليل عقلي ، أما النقلي فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة ، ظاهرها بل صريحها ، دال على مذهب أهل السنة والجماعة ، وأنها تحتاج لدلالتها على مذهبهم الباطل أن تخرج عن ظاهرها ويُزاد فيها وينقص ، وهذا كما ترى لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما العقل فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات ، بل العقل دل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر على الفعل ، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال ، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه ، قيل لهم: الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات ، فكما أن لله ذاتا لا تشبهها الذوات ، فلِلَّه صفات لا تشبهها الصفات ، فصفاته تبع لذاته ، وصفات خلقه تبع لذواتهم ، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه.

ويقال أيضا لمن أثبت بعض الصفات ونفى بعضا ، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إما أن تثبت الجميع كما أثبته الله لنفسه وأثبته رسوله ، وإما أن تنفي الجميع وتكون منكرا لرب العالمين ، وأما إثباتك بعض ذلك ونفيك لبعضه فهذا تناقض ، ففَـرِّق بين ما أثبتَّـهُ وما نفيتَـه ، ولن تجد إلى الفرق سبيلا.

فإن قلت: ما أثبـتُّـهُ لا يقتضي تشبيها ، قال لك أهل السنة: والإثبات لما نفيتَه لا يقتضي تشبيها.

فإن قلت: لا أعقل من الذي نفيتُه إلا التشبيه ، قال لك النفاة: ونحن لا نعقل من الذي أثبتَّـه إلا التشبيه ، فما أجبت به النفاة أجابك به أهل السنة لما نفيتَـه.

والحاصل أن من نفى شيئا وأثبت شيئا مما دل الكتاب والسنة على إثباته فهو متناقض ، لا يَـثبت له دليل شرعي ولا عقلي ، بل قد خالف المعقول والمنقول.

---

[1] سورة البقرة ، الآية 210 .

انتهى كلامه رحمه الله.

النوع الثاني من أنواع الإلحاد هو التمثيل ، وهو دعوى أن صفات الله – أو بعضها – تُماثِل صفات المخلوقين ، وشبهة من ادَّعى ذلك أن الله خاطب الناس بما يفهمون ويعقلون ، فإذا وصَفَ اللهُ نفسَهُ بأن له وجها ؛ لزِم من ذلك — بزعمهم – أن وجهه كوجوه المخلوقين ، بزعمه ، لأن الوجه هو ما يتعارف الناس عليه ، وأكمل الوجوه وجوه البشر ، فوجه الله كوجه الإنسان ، هكذا قالوا!

وهذا الزَّعم باطلٌ من أربعة أوجه:

الأول: أن مشابهة الله تعالى لخلقه أمر باطل يُبطله الشرعُ والعقلُ ، فأما دليل الشرع فقوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ ، وقوله ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾[1] ، وقوله ﴿هل تعلم له سميا﴾[2] ، والسَّمِيُّ هو المُسامي أي المماثل ، وقوله ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾[3] ، وقوله ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾[4] ، والنِّدُّ هو النظير والمثيل ، ولا يمكن أن يكون مقتضى نصوص الكتاب والسنة أمرًا باطلا.

وأما دلالة العقل على بطلان مماثلة الخالق للمخلوق فظاهرٌ ، لما بينهما من التباين العظيم ، فالخالقُ مُوجِدٌ والمخلوقُ مُوجَدٌ ، والخالق أَبَدِيُّ الوجودِ والمخلوقُ فانٍ.

الثاني: أن الله تعالى خاطب العباد بما يفهمون من حيث أصل المعنى ، أما حقيقة وكُنْه ذلك المعنى فهو من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه ، سواء فيما يتعلق بذاته أو صفاته.

فإذا أثبت الله لنفسه أنه سميع ، فإن السمع معلوم من حيث أصل المعنى ، وهو إدراك الأصوات ، لكن حقيقة ذلك بالنسبة إلى سمع الله تعالى غير معلومة ، لأن حقيقة السمع تتباين حتى في المخلوقات ، فالتباين فيها بين الخالق والمخلوق أبين وأعظم.

وإذا أخبر الله تعالى عن نفسه أنه استوى على عرشه ؛ فإن الاستواء من حيث أصل المعنى معلوم ، لكن حقيقةَ الاستواءِ التي هو عليها غير معلومة ، لأن حقيقة الاستواء تتباين في حق المخلوق ، فليس الاستواء على كرسي مستقر كالاستواء على رَحْلِ[5] بعيرٍ صعبٍ نَفور ، فإذا تباينت في حق المخلوق ؛ فالتباين فيها بين الخالق والمخلوق أبينَ وأعظم.

---

[1] سورة الشورى ، الآية: 11 .

[2] سورة مريم ، الآية: 65 .

[3] سورة الإخلاص: 4 .

[4] سورة البقرة ، الآية: 22 .

[5] الرَّحِل هو ما يوضع على ظهر البعير للركوب. انظر «المعجم الوسيط».

الثالث: أن تشبيه الخالق بالمخلوق فيه تنقصٌ للخالق ، لأن المخلوق ناقص في صفاته كما هو معلوم ، وتَنَقُّصُ الخالقِ كفرٌ عِياذا بالله ، كما هو معلوم.[1]

الرابع: أن الوجه الوارد في الآية مضاف إلى الله تعالى ، والمضاف يكون بحسب ما أضيف إليه ، فوجه الإنسان يليق بالإنسان ، ووجه الله يليق بالله ، ووجه الهر يليق بالهر ، وهكذا.

فنحن نثبتُ للإنسان وجها وللأسد وجها وللهِرِّ وجها ، ولا يلزم من هذا الإثبات التماثل.

والمنهج الذي يسير عليه أهل السُّنةِ والجماعةِ – جعلنا الله منهم – إثبات الصفات لله عز وجل بدون مماثلة ، فيقولون: إن الله عز وجل له حياة ولكنها ليست كحياتنا ، فحياة الله كاملة ، ليس لها بداية ولا نهاية ، كما قال تعالى ﴿هو الأول والآخِر﴾[2] ، أما المخلوق فحياته محدودة ببداية ونهاية.

وكذلك يصفون الله بالعلم ، ولكنه علمٌ كامل ، لا يعتريه نقصٌ ولا نسيان كما هو الحال بالنسبة لعلم المخلوقين ، وكذلك يصفونه بأن له يدا ، ولكنها ليست كيد المخلوق ، وهكذا العين والسّاق والوجه وغيرها من الصفات الواردة في الكتاب والسنة.

فصل في ذكر بعض ما جاء عن السلف في ذم تشبيه الله بخلقه

الأثر الأول: روى الذهبي بإسناده إلى نُعَيْم بن حماد الخُزاعي – شيخ البخاري – قال:

من شبَّه الله بخلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيها.[3]

وذكره اللالكائي[4] عن عبد الرحمٰن بن أبي حاتم قال: قال نُعيم بن حماد:

من شَبّه الله بشيءٍ من خلقه فقد كَفر ، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، فليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيها.[5]

وذكر اللالكائي عن عبد الرحمٰن بن أبي حاتم قال: قال إسحاق بن راهويه[6]:

---

[1] «العلو» رقم 464 ، وكذا ذكره في كتاب «العرش» ص 93 – 94 ، وصححه.

[2] سورة الحديد: 3 .

[3] «العلو» رقم 464 ، وخرجه في «سير أعلام النبلاء» (610/10) من طريق آخر ، وذكره في كتاب «العرش» ص 93 – 94 وصححه.

[4] هو الإمام الحافظ المُجَوِّد ، أبو القاسم ، هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي الشافعي اللالكائي ، صنف كتابه المشهور «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم» ، وهو كتاب مصنف بالأسانيد ، توفي رحمه الله سنة 418 . انظر ترجمته في «السير» (419/17).

[5] «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» ، رقم (936).

[6] هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي أبو محمد بن راهويه المروزي ، ثقة حافظ مجتهد ، مات سنة 38 . انظر ترجمته في «السير» (358/11).

من وصَفَ الله فشبَّه صفاته بصفاتِ أحدٍ من خلق الله فهو كافر بالله العظيم ، لأنه وصفٌ لصفاته ، إنما هو استسلام لأمر الله ولِما سن الرسول ﷺ .[1]

وقد علَّقَ الذهبي رحمه الله على قول نعيم بن حماد المتقدم بقوله:

هذا الكلام حق ، نعوذ بالله من التشبيه ومن إنكار أحاديث الصفات ، فما يُنكِر الثابت منها مَن فَقُهَ ، وإنما بعْدَ الإيمان بها هنا **مقامان مذمومان**:

تأويلها وصرفها عن موضوعِ الخطاب ، فما أوّلها السلف ولا حرّفوا ألفاظَها عن مواضعها ، بل آمنوا بها ، وأَمَرُّوها كما جاءت.

المقام الثاني: المبالغة في إثباتها ، وتَصوُّرها من جِنس صفات البشر ، وتَشكُّلها في الذهن ، فهذا جهل وضلال ، وإنما الصِّفة تابعة للموصوف ، فإذا كان الموصوف عز وجل لم نَرَهُ ، ولا أخبرنا أحدٌ أنه عايَنَه – مع قوله لنا في تنزيله ﴿ليس كمثله شيء﴾ – ؛ فكيف بَقِيَ لأذهاننا مجالٌ في إثبات كيفية البارىء؟ تعالى الله عن ذلك.

فكذلك صفاتِه المقدسة ، نُقِرُّ بها ونعتقد أنها حق ، ولا نُمثِّلها أصلا ولا نتشكَّلُها[2].[3]

الأثر الثاني: قال الترمذي في «سننه»[4] لما روى حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مُهْرَهُ[5] ...) ، قال:

وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يشبه هذا من الروايات من الصفات ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا قالوا:

قد ثبتت الروايات في هذا ، ويُؤمَن بها ، ولا يُتَوهَّم ، ولا يُقال: كيف؟

هكذا رُوي عن مالك وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك أنهم قالوا في هذه الأحاديث: (أَمِرُّوها بلا كيف) ، وهكذا قولُ أهل العلم من أهل السنة والجماعة.

وأما الجهمية فأنكرتْ هذه الروايات ، وقالوا: هذا تشبيه.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى في غير موضعٍ من كتابه اليدَ والسمعَ والبصرَ ، فتأولتِ الجهميةُ هذه الآياتِ ، ففسروها على غير ما فَسَّر أهل العلم ، وقالوا: إن الله لم يخلق آدمَ بيده ، وقالوا: إن معنى اليد هٰهنا القوة.

---

[1] «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» ، رقم (937).

[2] أي لا نتصورها في الذهن.

[3] «سير أعلام النبلاء» (10/610-611).

[4] رقم (662).

[5] المُهْر هو صغير الخيل.

وقال إسحاق بن إبراهيم[1]: إنما يكون التشبيه إذا قال (يدٌ كَيَدٍ)[2] ، أو: (مثلُ يدٍ) ، أو: (سمعٌ كسمعٍ) ، أو: (مثل سمعٍ) ، فإذا قال: (سمع كسمع) أو (مثل سمعٍ) فهذا التشبيه ، وأما إذا قال كما قال الله تعالى: (يدٌ وسمعٌ وبصرٌ) ، ولا يقول (كيف) ، ولا يقول: (مثل سمعٍ) ، ولا (كسمعٍ) ؛ فهذا لا يكون تشبيها ، وهو كما قال الله تعالى في كتابه ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

انتهى كلام الترمذي رحمه الله.

فالحاصل أن تشبيه الله بخلقه شرك بالله تعالى سواء كان ذلك في أسمائه الخاصة به كالتسمية بالله أو الرحمٰن ، أو في صفاته ، كوصف بعض المخلوقين بعلم الغيب ، وأما من تَسمّى بأسماء مشتركة بين الله وبين خلقه ، أو وصف المخلوقين بأوصاف مشتركة بين الله وبين خلقه ، ، كالرحيم والجميل ونحوها ، فهذا جائز ، لأن الله تعالى قد جعلها مشتركة.

وبكل حال فالواجب هو إفراد الله بصفات الكمال على الوجه اللائق به ، ووصف المخلوق بصفاته على وجه النقص اللائق به.

فائدة: ذكر الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في شرحه على «العقيدة الواسطية»[3] بعض الأحاديث التي يوهم ظاهرها التشبيه ، وأجاب عنها ، فليرجع إليها من أراد الاستفادة.

---

[1] هو ابن راهويه ، الإمام المعروف.

[2] أي: يدُ الله كيد كذا من المخلوقين.

[3] (1/105 - 110)

النوع الثالث من أنواع الإلحاد: التكييف

مقدمة

الصفات من حيث معناها الكلي في الذهن معناها واحد ، فالسمع مثلا هو إدراك الأصوات ، والبصر هو إدراك المرئيات ، والعلم هو إدراك المعلومات ، وهَـلُمَّ جرًّا ، لكن هذه الصفات إذا أضيفت إلى الذوات فإن كيفيتها تختلف بحسب من أضيفت إليه ، فالسمع يتفاوت بين المخلوقين ، فبعض المخلوقات مرهفة السمع جدا كالغزال ، وبعضها أقل منه كبني آدم ، فالمقدرة على إدراك الأصوات تتفاوت بين أصناف المخلوقات تفاوتا نسبيا ، وهو في حقها غير كامل بكل حال ، فليس أحد من المخلوقات يسمع كل ما يدور في الكون قطعا.

أما الله تعالى فإنه سميع ، والسمع في حقه كامل ، فهو يسمع كل شيء ، يسمع كل ما يدور في الكون ، يسمع السِّر وأخفى ، يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصَّماء في الليلة الظلماء ، فكيفية السمع في حق الله كاملة ، وفي حق المخلوقين ناقصة.

وعودا على بدء ؛ فأصل معنى السمع مشترك بين الله وبين خلقه ، وهو إدراك الأصوات ، أما كيفيته فتختلف بحسب من أضيفت إليه ، ففي حق المخلوق الناقص فإن السمع محدود ، لأن المخلوق ناقص أصلا في خلقته وفي صفاته ، أما الله تعالى فإن سمعه كامل ، لأن الله كامل في صفاته أصلا ، فسمع المخلوق كما يليق به ، وسمع الخالق كما يليق به ، وقِس على ذلك باقي الصفات.[1]

تعريف التكييف وبيان حكمه

التكييف هو ادِّعاء معرفة كيفية الصفة من صفات الله تعالى ، أو تشكيلها وتقديرها بالذهن ، كتصور صفة المجيء والاستواء والنزول والكلام لله تعالى على نحو معين ، فهذا المسلك في فهم الصفات محرم ، لأنه ضربٌ بالغيب ، ودليل التحريم سمعي وعقلي ، **فأما الدليل السمعي** فقوله تعالى ﴿ولا يحيطون به علما﴾[2] ، ففي هذه الآية الكريمة قطع الله الطمع عن إدراك كيفية صفاته.

وقال تعالى ﴿ولا تقفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾[3].

ولا يُفهم من تحريم تكييف صفات الله أن ليس لها كيفية ، حاشا لله ، بل لها كيفية ، ولكن البشر يجهلونها لأنها من الغيب ، وليس المراد نفي الكيفية مطلقا.

---

[1] استفدت هذه المقدمة من كتاب «اللآلئ البهية في شرح العقيدة الواسطية» (498/1) للشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله.

[2] سورة طه: 110 .

[3] سورة الإسراء: 36 .

فمن كيّفَ صفةً من صفات الله فقد كذَب على الله ، وقال عليه ما لا يعلم ، لأنه ادعى الاطلاع على أمر غيبي في حين أنه لم يطّلِع عليه في حقيقة الأمر.

وقد تقدم في أول الكلام على الإيمان بأسماء الله وصفاته ذكر بعض أقوال السلف الصالح رضوان الله عنهم في ذم التكييف ، وبيان أنه منهج مبتدع ، منافٍ للإيمان بأسماء الله وصفاته ، وسيأتي إن شاء الله بيان مزيد منها.

أما الدليل العقلي لامتناع التكييف فإنه لا يمكن لأي إنسان أن يعرف كيفية الشيء إلا بأحد أمور ثلاثة ؛ بمشاهدته أو مشاهدة نظيرهُ أو الخبر الصادق عنه ، فإذا لم يتمكن من واحدة منها فلا سبيل إلى العلم بكيفيتها.

فلو أن رجلا شاهد آلة وهي تعمل ؛ فإنه سيعرف كيفية عملها لأنه شاهد ذلك بعينه.

ولو أنه شاهد نظيرَةَ تلك الآلة ومثيلتها لعرف كيفية الآلة الأولى ، لأنه شاهد مثيلتها ونظيرتها.

ولو أن رجلا صادقا قال له: عندي آلة صفتها كذا وكذا ، وذكر من أوصافها كما لو أنه يراها رأي عين ؛ لعلِم كيفية تلك الآلة.

فإذا حاولنا تطبيق هذه القاعدة العقلية على صفات الله عز وجل فإنا نجد أنه لا يمكن معرفة صفات الله بهذه الوسائل الثلاثة ، لأننا لم نشاهد صفاتِه ، ولم نَرَ مثيلها ، ولم نُخْبَر عن كيفيتها ، فمن أين سنعرف كيفية تلك الصفات إذًا؟!

ومما يدل على بطلان التكييف عقلا ؛ أن ادعاء ذلك سيؤدي إلى اضطراب عظيم ، لأن كل إنسان سَيَدَّعي معرفة كيفيةً صفة من صفات الله على غير دعوى الآخر ، لأنه ليس هناك ضابط يضبط تصورهم لتصور تلك الصفة على طريقة واحدة ، لكون دعاواهم ما هي إلا تَتاج عقول بشرية قاصرة وفرَضيات ذهنية ودعاوى غيبية ، ولا يَسْلَم من هذا كله إلا من سَلَّم أمرَه لله ، ووقف عند ما أُمِر بالإيمان به ، وتَرَك الخوض والمراء[1] في الدين.

وثمَّة وجهٌ آخر ، وهو أنَّا قد أُمِرنا بأن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالجنة ونعيمها ، وبالنار وجحيمها ، مع كونِه من المعلوم أنا لا نُحيط علما بكيفية كل شيء منها ، فلسنا نعلم كيفية الملائكة ، ولا كيفية الأنبياء ، ولا كيفية الجنة ، كما قال تعالى ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ ، وقال النبي ﷺ : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

---

[1] المِراء هو الجِدال على مذهب الشك والريبة ، وقد خص ابن الأثير المِراء المذموم بالكلام في القدر وما تضمنه كلام أهل الكلام من الخوض في صفات الرب عز وجل ، أما الكلام في الأحكام والحلال والحرام فجائز ، إذ قد ورد عن الصحابة الكرام رضي الله عنهم. انظر «النهاية» ، مادة: مَرا.

كذلك فإننا لا نعلم صفة النار وهكذا ، وما ذاك إلا لأننا كُلِّفنا بالإيمان بها على سبيل الإجمال ، ولم نؤمر بالخوض في كيفية التفاصيل ، ولم يكن ذلك قادحا في الإيمان بهم ، فكذلك الأمر بالنسبة لأسماء الله تعالى وصفاته.[1]

ولما كان التكييف مسلكا باطلا ، وضربا بالغيب ؛ قال ابن القيم رحمه الله إن التكييف يترتب عليه ثلاثة محاذير ؛ نفي الحقيقة ، وإثبات التكييف بالتأويل ، وتعطيل الرب عن صفته التي أثبتها لنفسه.[2]

وصدق رحمه الله ، فمن كيَّف صفة من صفات الرب على نحو معين فقد نفى عن الله كيفية صفته الحقيقية بإثباته له كيفية من عنده.

كذلك فإنه أوَّل صفة الرب الحقيقية – أي حرَّفها – بإثباته لله كيفية تلك الصفة من عنده ضربا بالغيب.

كذلك فإنه قد عطَّل صفة الرب الحقيقية بنفيه لها وإثباته كيفية معينة لها من عنده.

تبديع السلف لمن طلب علم الكيفية

ولما كان طلبُ علم الكيفية باطلا ؛ أنكر أئمة السلف رحمهم الله على من قال به إنكارا شديدا ، وقد ورد في ذلك بضعة آثار:

الأثر الأول: جاء رجل إلى مالك بن أنس فقال: يا أبا عبد الله ، ﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾ ، فكيف استوى؟

قال الراوي: فأطرق مالك رأسه حتى علاهُ الرُّحَضَاء[3] ، ثم قال: **الاستواء غير مجهول** ، والكيف غير معقول[4] ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا مبتدعا ، فأَمر به أن يُخرَج.[5]

قال مقيده عفا الله عنه: كلام الإمام مالك ميزان لجميع صفات الله تعالى[1] ، فمن سأل عن كيفيةِ صفةٍ من صفات الله فإنه يقال له: أنت مبتدع ، والواجب عليك أن تؤمنَ بما أُنزل إليك ، وتسكُتَ عما لم يبلُغْك ، وتتركَ التعمق في الدين ، وتكلُّفَ علمَ ما لم تؤمر بعلمه.

---

[1] انظر «الحجة في بيان المحجة» (190/1) ، وما نقله القرطبي عن الخطابي في كتابه «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» (10/2 – 12).

[2] انظر «اجتماع الجيوش» ، ص 190 .

[3] أي العرق.

[4] أي غير معقول الكيفية ، ولا تدركه العقول.

وقد جمع طرق هذا الأثر وشرحه شرحا موسعا فضيلة الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد البدر في مؤلف له بعنوان: «الأثر المشهور عن الإمام مالك رحمه الله في صفة الاستواء» ، وهو مطبوع ضمن كتابه «الجامع للبحوث والرسائل» ، الناشر: دار كنوز إشبيليا – الرياض.

[5] رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (867 ، 866).

وقد جمع طرق هذا الأثر وشرحه شرحا موسعا فضيلة الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد البدر في مؤلف له بعنوان: «الأثر المشهور عن الإمام مالك رحمه الله في صفة الاستواء» ، وهو مطبوع ضمن كتابه «الجامع للبحوث والرسائل» ، الناشر: دار كنوز إشبيليا – الرياض.

وقل له أيضا: إن الله أخبرنا عن الصفة ولم يخبرنا عن كيفيتها.

وقال يحيى بن إبرهيم بن مزين[2] معلقا على كلام مالك:

والنجاة في هذا[3] ؛ الانتهاء إلى ما قال الله عز وجل ووصَف به نفسه ، بوجهٍ ويدينِ وبَسْطٍ[4] واستواءٍ وكلامٍ ، فقال ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾[5] ، وقال ﴿بل يداه مبسوطتان﴾[6] ، وقال ﴿والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه﴾[7] ، وقال ﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾ ، فلْيَقل قائلٌ بما قال الله ولْيَنتَهِ إليه ، ولا يعدُوهُ ولا يُفسِّره ، ولا يقُل كيف ، **فإن في ذلك الهلاك** ، لأن الله كلّف عبيده الإيمان بالتنزيل ولم يُكلِّفهم الخوض في التأويل الذي لا يعلمه غيره ، وقد بلغني عن ابن القاسم أنه لم ير بأسا برواية الحديث: (إن الله ضحِك) ، وذلك لأن الضحك من الله والتنزل والملالة والتعجب منه ليس على جهة ما يكون من عباده.[8]

وقال ابن تيمية معلقا على كلام مالك:

وكلام مالك صريح في إثبات الاستواء ، وأنه معلوم ، وأن له كيفية ، لكن تلك الكيفية مجهولة لنا ، لا نعلمها نحن ، ولهذا بَدَّع السائِلَ الذي سأله عن هذه الكيفية ، فإن السؤال إنما يكون عن أمر معلوم لنا ، ونحن لا نعلم استواءه ، وليس كل ما كان معلوما وله كيفية تكون تلك الكيفية معلومة لنا.[9] اهـ.

وقال أيضا: إذا قال لك قائل: كيف ينزل الى سماء الدنيا؟

فقل له: كيف هو فى نفسه؟

فإن قال: نحن لا نعلم كيفية ذاته.

فقل: ونحن لا نعلم كيفية صفاته ، وكيف نعلم كيفية صفة ولا نعلم كيفية موصوفها؟[10]

---

[1] وللفائدة ؛ فقد أُلّفت رسالة علمية في عقيدة الإمام مالك بعنوان: «منهج الإمام مالك رحمه الله في إثبات العقيدة» للشيخ سعود بن عبد العزيز الدعجان ، الناشر: مكتبة الإمام ابن تيمية – القاهرة.

[2] هو يحيى بن إبراهيم بن مزين ، أبو زكريا ، عالم بلغة الحديث ورجاله ، من أهل قرطبة ، توفي سنة 259 ، انظر «الأعلام» للزركلي (134/8).

[3] أي في باب فهم أسماء الله وصفاته.

[4] أي البسط الوارد في قوله ﴿ بل يداه مبسوطتان﴾.

[5] سورة البقرة: 115 .

[6] سورة المائدة: 64 .

[7] سورة الزمر: 67 .

[8] ذكره ابن عبد البر في كتاب «التمهيد» (138/6) ،كتاب القرآن ، باب ما جاء في الدعاء ، وهو في (151/7 – 152) من ط المغربية.

[9] «مجموع الفتاوى» (181/5).

[10] بتصرف من «مجموع الفتاوى» (575/12).

وقال أيضا: ومثل هذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك[1] ، وقد رُوي هذا الجواب عن أم سلمة رضى الله عنها موقوفا ومرفوعا ، ولكن ليس إسناده مما يُعتَمدُ عليه ، وهكذا سائر الأئمة ؛ قولهم يوافق قول مالك في أنا لا نعلم كيفية استوائه كما لا نعلم كيفية ذاته ، ولكن نعلم المعنى الذى دل عليه الخطاب ، فنعلم معنى الاستواء ولا نعلم كيفيته ، وكذلك نعلم معنى النزول ولا نعلم كيفيته ، ونعلم معنى السمع والبصر والعلم والقدرة ولا نعلم كيفية ذلك ، ونعلم معنى الرحمة والغضب والرضا والفرح والضحك ولا نعلم كيفية ذلك.[2]

وقال الذهبي معلقا على كلام مالك:

هذا ثابت عن مالك ، وهو قول أهل السنة قاطبة ؛ أن كيفية الاستواء لا نعقلها بل نجهلها ، وأن استواءه معلوم كما أخبر في كتابه ، وأنه كما يليق به ، لا نتعمق ولا نتحذلق ، ولا نخوض في لوازم ذلك نفيا وإثباتا ، بل نسكت ونقف كما وقف السلف ، ونعلم أنه لو كان له تأويل لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون ، ولما وسعهم إقرارهُ وإمرارهُ والسكوت عنه ، ونعلم يقينا مع ذلك أن الله جل وعلا لا مِثلَ له في صفاته ولا في استوائه ولا في نزوله ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا.[3]

وقال ابن عثيمين رحمه الله معلقا على كلام مالك ما مُحَصَّلُهُ إن كلام مالك ميزان لجميع الصفات ، والذين يسألون عن كيفية الصفات سؤالهم هذا بدعة ، لأن الصحابة أحرص الناس على الخير وعلى العلم بما يجب لله عز وجل من الصفات ، ومع هذا لم يسألوا قط عن كيفية صفة من صفات الله عز وجل.[4]

وقال د. أحمد بن عطية الغامدي رحمه الله معلقا على كلام مالك:

وقد رُوِي مثل هذا القول عن ربيعة شيخ الإمام مالك ، وهو قول أهل السنة قاطبة ، وإن من أعجب العجب أن نرى كثيرا من أصحاب مالك المتأخرين فارقوا عقيدته ، ودانوا بغيرها ، فسلكوا مسلك الأشاعرة في منهجهم العقدي ، الذي يتسم بمخالفة منطوق الوحي ، خاصة ما يتعلق بمسائل الصفات ، وهم بهذا ينزعون ثقتهم بإمام جليل لا يَحِيدون عن مذهبه في الفروع قِيدَ أَنْمُلةٍ[5] ، ويضربون بمذهبه في الأصول – الملتزم بالوحي – عُرْضَ[6] الحائط ، وهذا شأن بعض أتباع مذاهب الأئمة الآخِرين ، أبي حنيفة والشافعي وأحمد ، حيث ذهبوا مذاهب في الاعتقاد فارقوا بها ما عليه أئمتهم الذين اعتصموا بالتنزيل ولم يفارقوه ،

---

[1] سيأتي ذكر الأثر الوارد عن ربيعة قريبا إن شاء الله.

[2] بتصرف من «مجموع الفتاوى» (365/5).

[3] كتاب «العلو» ، ص 139 ، باختصار يسير.

[4] بتصرف من «شرح العقيدة الواسطية» لابن عثيمين ، (100/1).

[5] الأَنملة هي المفصل الأعلى الذي فيه الظفر من الإصبع ، ومعنى (قِيدَ أَنملة) ، أي قدرها في الطول. انظر «لسان العرب» مادة: نمل.

[6] عُرْضَ الحائط أي ناحيته ، هكذا بضم العين ، وعَرضَ الحائط – بفتح العين – خلاف طولِه. انظر «لسان العرب» مادة: عرض.

أما أولئك الأتباع المفارقون فقد ارتضوا لأنفسهم مذاهب الكلام والسَّفسَطة[1] ، التي أَودَتْ بهم إلى الزيغ والضلال ، نسأل الله الهداية والثبات على الحق.[2]

الأثر الثاني: سُئل ربيعة[3] شيخ مالك عن قوله ﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾ ؛ كيف استوى؟

قال: **الاستواء غير مجهول** ، والكيف غير معقول ، ومِن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق.[4]

وفي رواية أنه قال: الكيف مجهول ، والاستواء غير معقول ، ويجب علي وعليكم الإيمان بذلك كله.[5]

فالشاهد قولهم: **الاستواء منه غير مجهول** ، أي معلوم معناه في لغة العرب ، وهو العلو والارتفاع.

قال الذهبي رحمه الله: هذا القول محفوظ عن جماعة ، كربيعة الرأي ، ومالك الإمام ، وأبي جعفر الترمذي[6].[7]

وقال أيضا رحمه الله: فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله ، وأخبروا أنه معلوم ، لا يحتاج لفظه إلى تفسير ، ونفوا الكيفية عنه ، وأخبروا أنها مجهولة.[8]

الأثر الثالث: روى الذهبي بإسناده عن أبي جعفر الترمذي ، شيخ الشافعية في زمانه ، أنه سأله سائل عن حديث نزول الرب: فالنزول **كيف** هو؟ يبقى فوقه علو؟ فقال:

النزول معقول ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة.

---

[1] السَّفسطة قياس فلسفي أسَّسه فلاسفة اليونان قبل ميلاد المسيح عليه السلام ، وهو قياس مركب من الوهميات ، يقوم على أساس نفي الحقائق الثابتة ، وقد أطلقه بعض علماء الإسلام كابن تيمية رحمه الله على من أنكر شيئا معلوما من الدين بالضرورة ممن تأثر بطريقة الفلاسفة السوفسطائية وإن كان مقرا بأمور أخرى.

باختصار وتصرف من «معجم ألفاظ العقيدة» ، تأليف عامر عبد الله فالح ، تقديم الشيخ عبد الله بن جبرين ، الناشر: مكتبة العبيكان – الرياض.

وانظر تعريف السفسطة في «شرح الرسالة التدمرية» ، (ص 473 ، 479) لفضيلة الشيخ د. محمد بن عبد الرحمٰن الخميس حفظه الله.

[2] حاشيته على كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد» ، ص 86 – 87 .

[3] هو الإمام ، مفتي المدينة ، وعالم الوقت ، المشهور بربيعة الرأي ، من أئمة الاجتهاد ، من رواة الحديث النبوي ، كان من أوعية العلم ، ومن شيوخ الإمام مالك ، توفي سنة 136 . انظر ترجمته في «السير» (89/6).

[4] رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (441/2) ، وابن بطة في «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية» (164/3).

[5] رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (306/2) ، وصححه محقق الكتاب الشيخ عبد الله الحاشدي في حاشيته عليه.

[6] هو الإمام العلامة ، شيخ الشافعية في وقته ، أبو جعفر ، محمد بن أحمد بن نصر الترمذي ، توفي سنة 295 ، انظر ترجمته في «السير» (545/13).

[7] «العلو» ، ص 81 .

[8] كتاب «العرش» ، ص 73 .

قال الذهبي معلقا: صدق فقيه بغداد وعالمها في زمانه ، إذ السؤال عن النزول ما هوَ عَيٌّ[1] ، لأنه إنما يكون السؤال عن كلمة غريبة في اللغة ، وإلا فالنزول والكلام والسمع والبصر والعلم والاستواء عبارات جلية واضحة للسامع ، فإذا اتصف بها من ليس كمثله شيء فالصفة تابعة للموصوف ، وكيفية ذلك مجهولة عند البشر ، وكان هذا الترمذي من بحور العلم ، ومن العُبّاد الورعين ، مات سنة خمس وتسعين ومئتين.[2]

الأثر الرابع: قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلاَّم ، المتوفى سنة 224هـ – وقد ذُكِرَ عنده ما يُروى في الرؤية ، والكرسي موضع القدمين وأشباه ذلك – فقال:
هذه أحاديث صحاح ، حملها أصحاب الحديث والفقهاء بعضهم عن بعض ، وهي عندنا حقٌّ لا نَشكُّ فيها ، ولكن إذا قيل لنا: **كيف** وضع قدمه ، **وكيف** ضحك ؛ قلنا: لا نفسِّر هذا[3] ، ولا سمعنا أحداً يفسِّره.[4]

الأثر الخامس[5]: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يدُ الله ملأى ، لا تَغِيضُها[6] نفقة ، سَحَّاء[7] الليل والنهار ، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خَلق السماء والأرض؟ فإنه لم يَغِضْ[8] ما في يدِه ، وكان عرشُهُ على الماء ، وبيده الميزان ، يخفِض ويرفع.[9]
قال أبو عيسى الترمذي عقِبه: وهذا حديث قد روته الأئمة ، نؤمن به كما جاء ، من غير أن يُفسَّر أو يُتوهَّم ، هكذا قال غير واحد من الأئمة ؛ الثوري ومالك بن أنس وابن عيينة وابن المبارك ؛ إنه تُروى هذه الأشياء ويؤمَن بها ، فلا يُقال: **كيف**.

---

[1] العيُّ هو الجهل.
[2] «العلو» ، ص 213 – 214 .
[3] أي لا نذكر له كيفية معينة.
[4] رواه الذهبي في كتاب «العلو» ، ص 173 .
[5] الشاهد ليس الحديث التالي وإنما الأثر بعده.
[6] تَغِيضُها أي تُنقِصُها. انظر «النهاية» لابن الأثير.
[7] أي دائمة العطاء. انظر «النهاية».
[8] أي يُنقِص. انظر «لسان العرب».
[9] رواه البخاري (4684) ومسلم (993) والترمذي (3045) ، واللفظ للبخاري.

الأثر السادس: روى ابن عبد البر رحمه الله عن ابن وضَّاح[1] قال: سألت يحيى بن معين[2] عن التنزُّل فقال: أَقِـرَّ به ولا تحُدَّ فيه بقولٍ ، كل من لقيتُ من أهل السنة يُصدِّق بحديث التنزل.

قال[3]: وقال لي ابن معين: صدِّق به ولا تَصِفه.[4]

ثم قال بعدها بورقتين: وقول رسول الله ﷺ : (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا) عندهم[5] مثل قول الله عز وجل ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾[6] ، ومثل قوله ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾[7] ، كلهم يقول: ينزل ويتجلى ويجيء ، **بلا كيف** ، لا يقولون: **كيف** يجيء ، **وكيف** يتجلى ، **وكيف** ينزل ، ولا من أين جاء ، ولا من أين تجلى ، ولا من أين ينزل ، لأنه ليس كشيء من خلقه ، وتعالى عن الأشياء ، ولا شريك له.

وفي قول الله عز وجل ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ دلالة واضحة أنه لم يكن قبل ذلك متجليا للجبل.

وفي ذلك ما يفسر معنى حديث التنزيل.

ومن أراد أن يقف على أقاويل العلماء في قوله عز وجل ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ ؛ فلينظر في تفسير بَقِيَّ بن مخلد[8] ، ومحمد بن جرير ، وليقف على ما ذكرا من ذاك ، ففيما ذكرا منه كفاية ، وبالله العصمة والتوفيق.[9]

الأثر السابع[10]: روى البيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبي داود الطيالسي قال: كان سفيان الثوري وشُعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وشَريك وأبو عَوانة لا يَحُدُّون ، ولا يُشَبِّهون ، ولا يُمَثِّلون ، يَروُون الحديث ، **لا يقولون (كيف)** ، وإذا سُئلوا أجابوا بالأثر.

قال أبو داود: وهو قولنا.

---

[1] هو الإمام الحافظ محدث الأندلس ، محمد بن وضاح المرواني ، من علماء الحديث النبوي ، له كتاب «البدع والنهي عنها» ، توفي سنة 287 ، انظر ترجمته في «السير» (445/13).

[2] هو الإمام الحافظ الجهبذ ، شيخ المحدثين ، أبو زكريا ، يحيى بن معين بن عون ، من رواة الحديث النبوي ، توفي سنة 233 ، انظر ترجمته في «السير» (71/11).

[3] أي ابن وضاح.

[4] ذكره ابن عبد البر في كتاب «التمهيد» (137/6) ، كتاب القرآن ، باب ما جاء في الدعاء ، وهو في (151/7) من ط المغربية.

[5] أي عند السلف الصالح.

[6] سورة الأعراف: 143 .

[7] سورة الفجر: 22 .

[8] هو الإمام القدوة ، شيخ الإسلام ، بقي بن مخلد بن يزيد ، الأندلسي ، القرطبي ، الحافظ ، صاحب «التفسير» و «المسند» اللذين لا نظير لهما ، أدخل هو ومحمد بن وضاح إلى الأندلس علما جما ، كان من كبار المجاهدين في سبيل الله ، مات سنة 273 ، انظر ترجمته في «السير» (285/13).

[9] ذكره ابن عبد البر في كتاب «التمهيد» (139/6) ، كتاب القرآن ، باب ما جاء في الدعاء ، وهو في (153/7) من ط المغربية.

[10] تقدم ذكر هذا الأثر والأثرين بعده آنفا ، وإنما أعدتها هنا لقصد جمع الكلام في هذا الباب في موضع واحد.

قلت: وعلى هذا مضى أكابرنا. انتهى.

الأثر الثامن: قال سفيان بن عيينة في أحاديث الصفات: هذه الأحاديث نرويها ونُقِرُّ بها كما جاءت **بلا كيف**.[1]

الأثر التاسع: قال وكيع: نُسَلِّمُ هذه الأحاديث كما جاءت ، **ولا نقول (كيف كذا؟)** ، ولا (لِم كذا؟) ، يعني مثل حديث: (يحمل السماوات على إصبع).

تنبيه

مما ينبغي أن يُعلم أن ترك السؤال عن كيفية صفات الله تعالى لا يعني أنه ليس لها كيفية ، بل لها كيفية يعلمها الله تعالى ، ولكن المنفي علم تلك الكيفية ، فاستواء الله على العرش له كيفية ، ونزول الله في الثلث الأخير من الليل له كيفية ، ومجيء الله يوم القيامة له كيفية ، ولكننا لا نعلم شيئا من تلك الكيفيات ، فلا ندري كيف استوى ولا كيف نزل ولا كيف يجيء ولا كيف وجهه ولا كيف يده ، لا نُكيف ذلك بعقولنا ولا بألسنتنا ، لأنها من الغيب وليست من الشهادة ، وتكييف ذلك سيؤدي إما إلى التمثيل أو إلى التعطيل.[2]

تنبيه آخر

الفرق بين التمثيل والتكييف هو أن التمثيل هو ذكر الصفة مقيَّدةً بمماثل ، كما تقول: يد فلان مثل يد فلان.

وأما التكييف فليس فيه ذكر مماثل ، بل تذكر الصفة مجردة عن ذكر مثيلتها ، كقول: يد فلان هذه كيفيتها.[3]

النوع الرابع من أنواع الإلحاد هو التحريف ، والتحريف هو التغيير ، والتحريف في صفات الله نوعان ؛ تحريف في اللفظ وتحريف في المعنى ، فأما التحريف في اللفظ فلا يكاد يقع إلا من جاهلٍ بالقراءة ، كأن يقرأ إنسان القرآن فإذا مر بصفة من صفات الله أخطأ في قراءتها ، وهذا لا يضره إن كان حريصا على تعلم القراءة ، ولم يكن عن عَمْدٍ.

---

[1] تقدم تخريجه.

[2] وانظر «مجموع الفتاوى» (181/5).

[3] ذكر هذا ابن عثيمين رحمه الله في «شرح العقيدة الواسطية» (112/1).

والتحريف اللفظي جرأة عظيمة على كتاب الله ، وقد وقع فيه اليهود والنصارى لما حرَّفوا التوراة والإنجيل ، ومن ذلك تحريف اليهود لقول الله ﴿حِطة﴾ إلى ﴿حنطة﴾ ، وذلك لما أمرهم الله بدخول القرية ودعاءه بأن يحُط عنهم ذنوبهم بأن يقولوا ﴿حِطة﴾ ، فقالوا مستهزئين بالأمر الشرعي ﴿حِنطة﴾.

وأما التحريف في المعنى – وهو الذي يعبر عنه كثيرا **بالتأويل** – فهو الذي وقع فيه كثير من الناس ، وهو صرف المعنى عن ظاهره لمعنىً غير المعنى الظاهر المتبادِر ، والذين فعلوا هذا زعموا أن إثبات الصفات يلزم منه التشبيه ، قالوا: إننا إذا أثبتنا لله صفة كصفة اليد – مثلا – فإننا نكون قد شبَّهنا يد الله بيد المخلوق ، هكذا قالوا ، ولا شك أن هذا خطأ ، لأن يد الله كما تليق به ، ويد المخلوق كما تليق به ، وإذا كانت أيدي المخلوقين تتفاوت في صفاتها عن بعضها البعض فكذلك يد الله ليست كأيدي المخلوقين من باب أولى ، وهكذا باقي صفاته جل وعلا.

وبعدما نفت المؤوِّلة عن الله ما نفته من الصفات ؛ أثبتوا لله معانٍ مجازية لتلك الصفات من عند أنفسهم وليست حقيقية ، كقولهم عن اليد مثلا: إن معناها القوة ، ليكون معنى قوله تعالى ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ عندهم أي: قوَّتاه مبسوطتان ، وهكذا أوَّلوا أكثر صفات الرب عز وجل.

وممن وقع في مسلك التأويل جمهور الأشاعرة ، الذين أثبتوا لله سبع صفات على ظاهرها ، وحرَّفوا معاني الصفات الباقية عن ظاهرها.

ومن تحريفهم: قولهم عن صفة الاستواء للرب عز وجل إن معناها الاستيلاء ، ليكون معنى قوله تعالى ﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾ عندهم أي: الرحمٰن على العرش استولى ، وهَلُمَّ جَـرًّا.

ولا شك أن هذا خطأ عظيم وتحريف لكلام الله تعالى ، فإن الله خاطب الناس بلسان عربي مبين ، ومعنى الاستواء في اللغة العربية هو العلو والارتفاع ، ولم يأت في شيء في كلام العرب الفصيح أو في معاجم اللغة العربية إطلاقا أن معنى الاستواء هو الاستيلاء ، وسيأتي الكلام على ذلك بشيء من التفصيل.

فالحاصل أن أهل البدع ردُّوا جملة من صفات الرب عز وجل بتأويلها عن ظاهرها ، ومنشؤ ذلك أنهم أقحموا عقولهم لفهمها مع كونها غيبية ، فلم يفهموا من إثبات الصفات لله تعالى إلا أن ذلك يقتضي التشبيه ، فبناء على هذا قالوا: ليس أمامنا إلا تأويل تلك الصفات وصرف معانيها عن ظواهرها لئلا نُشبِّه الله بخلقه ، فأوَّلوا الصفات ، وصرفوا معانيها عن ظواهرها ، فضلوا في الفهم عن فهم السلف الصالح ، ولو أنهم عقِلوا لقالوا إن صفات الرب غيبية ، وأيقنوا أن الله خاطب الناس بما يفهمون ، فما علينا أن نفهم هذا الباب كما فهمته القرون المفضلة ، فنثبت لله صفاته كما تليق به كما نثبت للمخلوقين صفات تليق بهم ، فكما أن ذاته لا تشبه الذوات ؛ فكذلك صفاته لا تشبه الصفات؟

ولكن الشيطان حاد بهم عن الطريق السَّوي ، ولعِبَ بعقولهم.

فصل في بيان ارتباط التحريف بالتعطيل

والتحريف – أو التأويل – مرتبط بالتعطيل ، فالتحريف في الدليل ، والتعطيل في المدلول ، فالتحريف سبب والتعطيل نتيجة وأثر ، فإذا حرَّفَ المُحرِّفُ في الدليل نتج عنه تفريغ الدليل مما دل عليه ، فإذا حرَّف مثلا قولَه تعالى ﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾ فقال معناها: الرحمٰن على العرش استولى ؛ نتج عن هذا تفريغ الآية مما دلت عليه وهو صفة الاستواء ، وهذا تعطيل بحد ذاته.

ثم إن التحريفَ من دَأْبِ اليهود ، فهم الذين يحرفون الكلِم عن مواضعه ، قال تعالى عنهم ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾[1] ، فكلُّ من حرَّف نصوصَ الكتاب والسنة ففيه شبه من اليهود ، عياذا بالله تعالى.

فصل في بيان وجوه بطلان التأويل

اعلم رحمك الله أن تأويل الصفات باطل من وجوه عقلية كثيرة ، فمن ذلك ما نقله ابن القيم عن شيخه ابن تيمية رحمهما الله في هذا الباب ، حيث قال:

إن كان الحق فيما يقوله هؤلاء النُّفاة ، الذين لا يوجد ما يقولونه في الكتاب والسنة وكلام القرون الثلاثة المعظمة على سائر القرون ولا في كلام أحد من أئمة الإسلام المقتدى بهم ؛ لزم من ذلك لوازم باطلة ، **منها:**

أن يكون الله سبحانه قد أنزل في كتابه وسنة نبيه من هذه الألفاظ ما يُضِلُّهم ظاهره ويوقِعُهم في التشبيه والتمثيل.

ومنها أن يكون قد نزل بيان الحق والصواب لهم ولم يُفصَح به ، بل رَمز إليه رمزًا وألغزه إلغازًا ، لا يُفهم منه ذلك إلا بعد الجهد الجهيد.

ومنها أن يكون قد كلَّف عباده أن لا يفهموا من تلك الألفاظ حقائقها وظواهرها ، وكلَّفهم أن يفهموا منها ما لا تدل عليه ، ولم يجعل معها قرينة تُفهِم ذلك.

ومنها أن يكون دائما متكلما في هذا الباب بما ظاهِرُه خلاف الحق بأنواع متنوعة من الخطاب[2] ، ولا يَتكلم فيه بكلمة واحدة يوافق ما يقوله النفاة ، ولا يقول في مقام واحد ما هو الصواب فيه ، لا نصا ولا ظاهرا ، ولا يبينه.

---

[1] سورة النساء: 46 .

[2] يقصد بذلك رحمه الله الآيات التي تقرر أن الله تعالى استوى على عرشه ، وأنه فوق عباده ، وأنه العلي الأعلى ، وأن الملائكة تَعرج إليه ، وأن الأعمال الصالحة تُرفع إليه ، وأن الملائكة في نزولها من العلو إلى أسفل تنزل من عنده ، وأنه رفيع الدرجات ، وأنه في السماء ، وأنه الظاهر الذي ليس فوقه شيء ، وأنه فوق سماواته على عرشه ، وأن الكتاب نزل من عنده ، وأنه ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا ، وأنه يُرى بالأبصار عَيانًا ، يراه المؤمنون فوق رؤوسهم ، إلى غير ذلك من تنوع الدلالات على علو الرب عز وجل.

ومنها أن يكون أفضل الأمة وخير القرون قد أمسكوا من أولهم إلى آخرهم عن قول الحق في هذا الشأن العظيم الذي هو من أهم أصول الإيمان ، وذلك إما جهلٌ ينافي العلم ، وإما كتمانٌ ينافي البيان ، ولقد أساء الظن بخيار الأمة من نَسبَهم إلى ذلك ، ومعلوم أنه إذا ازدوج التكلم بالباطل والسكوت عن بيان الحق ؛ تولَّد من بينهما جهل الحق وإضلال الخلق ، ولهذا لما اعتقد النفاة التعطيل صاروا يأتون من العبارات بما يدل على التعطيل والنفي نصا وظاهرا ، ولا يتكلمون بما يدل على حقيقة الإثبات لا نصا ولا ظاهرا ، وإذا ورد عليهم من النصوص ما هو صريح أو ظاهر في الإثبات حرَّفوه أنواع التحريفات ، وطلبوا له مُستكْره التأويلات.

ومنها أنهم التزموا لذلك تجهيل السلف ، وأنهم كانوا أُمِّيين مقبلين على الزهد والعبادة والورع والتسبيح وقيام الليل ، ولم تكن الحقائق من شأنهم.

ومنها أنَّ ترْك الناس من إنزال هذه النصوص كان أنفع لهم وأقرب إلى الصواب ، فإنهم ما استفادوا بنزولها غير التعرض للضلال ، ولم يستفيدوا منها يقينا ولا علما بما يجب لله ويمتنع عليه إذ ذاك ، وإنما يستفاد من عقول الرجال وآرائها. انتهى.[1]

قلت: ومن وجوه بطلان التأويل في صفات الرب عز وجل **إجماع علماء المسلمين – من الصحابة والتابعين ومن بعدهم – على بطلانه** ، وقد حكى إجماعهم الإمامُ ابنُ عبد البر رحمه الله حيث قال:

أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة ، والإيمان بها ، **وحملِها على الحقيقة لا على المجاز** ، إلا أنهم لا يُكيِّفون شيئا من ذلك ، ولا يَحُدُّون فيه صفة محصورة ، وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلهم ينكرها ، ولا يُحمل شيئا منها على الحقيقة[2]، ويزعُمون أن من أقر بها مُشَبِّه ، وهم عند من أثبتها نافون للمعبود ، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله ، وهم أئمة الجماعة ، والحمد لله.[3]

علق الذهبي على كلام ابن عبد البر بقوله:

صدق والله ، فإن من تأول سائر الصفات ، وحمل ما ورد منها على مجاز الكلام ؛ أدَّاه ذلك السَّلب إلى تعطيل الرب ، وأن يُشابه المعدوم ، كما نُقل عن حماد بن زيد أنه قال: مَثل الجهمية كقوم قالوا: في دارنا نخلة.

قيل: لها سعف؟

قالوا: لا.

---

[1] «الصواعق المرسلة» ، ص 314 – 316 ، باختصار يسير.

[2] أي عندهم.

[3] «التمهيد» (6/134-135) ، كتاب القرآن ، باب ما جاء في الدعاء ، وهو في (7/145) من ط المغربية.

قيل: فلها كَـرَب[1]؟

قالوا: لا.

قيل: لها رطب وقِـنْو[2]؟

قالوا: لا.

قيل: فلها ساق؟

قالوا: لا.

قيل: فما في داركم نخلة.[3]

وقال الذهبي رحمه الله: وقد أغنى الله تعالى عن العبارات المبتدعة ، فإن النصوص في الصفات واضحة ، ولو كانت الصفات تُرد إلى المجاز لبطل أن يكون صفات لله ، وإنما الصفة تابعة للموصوف ، فهو موجود حقيقة لا مجازا ، وصفاتُه ليست مجازا ، فإذا كان لا مِثْل له ولا نظير ؛ لزم أن تكون لا مِثْل لها.[4]

وقال ابن تيمية رحمه الله: إن جميع ما في القرآن من آيات الصفات **فليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها** ، وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة وما رَوَوْه من الحديث ، ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير ، فلم أجد إلى ساعتي هذه عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئا من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف ، بل عنهم من تقرير ذلك[5] وتثبيته وبيان أن ذلك من صفات الله ما يخالف كلام المتأولين ما لا يحصيه إلا الله.[6]

قلت: ومن وجوه بطلان التأويل أيضا ما ذكره عبد الله بن تيمية[7] أخو شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمهما الله ، ونقله عنه ابن القيم رحمه الله ، قال:

---

[1] الكَرَب هو أصول سعف النخل.

[2] القِـنْو هو العِـذْق الذي يتدلى منه الرطب ، وهو في النخلة كالعنقود من العنب.

[3] «العلو» ، ص 250 .

[4] «العلو» ، ص 239- 240 .

[5] أي: ورد عنهم في تقرير ذلك ... ، بحذف الفعل وتقديره: ورد.

[6] «مجموع الفتاوى» (394/6).

[7] هو المفتي الزاهد القدوة شرف الدين عبد الله بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ثم الدمشقي الحنبلي ، أخو الشيخ تقي الدين ، ولد في حادي عشر محرم ، سنة ست وستين وستمائة بحرَّان ، وقدم مع أهله إلى دمشق رضيعا ، سمع المسند والصحيحين وكتب السنن ، وتفقه في المذهب حتى أفتى ، وبرع أيضا في الفرائض والحساب وعلم الهيئة وفي الأصلين والعربية ، وله مشاركة قوية في الحديث ، ودرس بالحنبلية مدة ، وكان صاحب صدق وإخلاص ، قانعا باليسير ، شريف النفس ، شجاعا مقداما ، مجاهدا زاهدا عابدا ورعا ، كثير العبادة والتأله والمراقبة والخوف من الله تعالى ، توفي رحمه الله تعالى سنة 727 هـ بدمشق.
باختصار من ترجمته في «شذرات الذهب» ، أحداث سنة 727 .

(ومن أبين المحال وأوضح الضلال حمل ذلك كله[1] على خلاف حقيقته وظاهره ودعوى المجاز فيه والاستعارة ، وأن الحق في أقوال النفاة المعطلين ، وأن تأويلاتهم هي المرادة من هذه النصوص ، إذ يلزم من ذلك أحد محاذير ثلاثة لا بد منها أو من بعضها ، وهي القدح في علم المتكلِّم بها ، أو في بيانه ، أو في نصحه.

وتقرير ذلك أن يقال: إما أن يكون المتكلم بهذه النصوص[2] عالما أن الحق في تأويلات النفاة المعطلين أو لا يعلم ذلك ، فإن لم يعلم ذلك والحق فيها كان ذلك قدحا في علمه.

وإن كان عالما أن الحق فيها فلا يخلو ؛ إما أن يكون قادرا على التعبير بعباراتهم – التي هي تنزيه لله بزعمهم عن التشبيه والتمثيل والتجسيم ، وأنه لا يَعرِف الله من لم ينزِّهه بها ، أو لا يكون قادرا على تلك العبارات ، فإن لم يكن قادرا على التعبير بذلك لزِم القدح في فصاحته ، وكان وَرَثة الصابئة وأفراخ الفلاسفة وأوقاح المعتزلة والجهمية وتلامذة الملاحدة أفصح منه وأحسن بيانا وتعبيرا عن الحق ، وهذا مما يَعلم بطلانه بالضرورة أولياؤه وأعداؤه ، موافقوه ومخالفوه ، فإن مخالفيه لم يشُكُّوا في أنه أفصح الخلق وأقدرهم على حسن التعبير بما يطابق المعنى ويخلِّصه من اللبس والإشكال.

وإن كان قادرا على ذلك ولم يتكلم به وتكلم دائما بخلافه وما يناقضه ؛ كان ذلك قدحا في نصحه ، **وقد وصف الله رسله بكمال النصح والبيان** ، فقال تعالى ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾[3].[4]

وأخبر عن رسله بأنهم أنصح الناس لأممهم ، فمع النصح والبيان والمعرفة التامة كيف يكون مذهب النفاة المعطلة أصحاب التحريف هو الصواب ، وقول أهل الإثبات – أتباع القرآن والسنة – باطلا؟!

فليتدبر الناصح لنفسه الموقن بأن الله لا بد سائله عما أجاب به رسوله في هذا المقام ، وليتحيز بعدُ إلى أين شاء ، فلم يكن الله ليجمع بين النفاة المعطلين المحرفين وبين أنصاره وأنصار رسوله وكتابه إلاَّ جَمْعَ امتحانٍ وابتلاء ، كما جَمَع بين الرسل وأعدائهم في هذه الدار).[5]

قلت: ومن وجوه بطلان التأويل أن تيسير القرآن للذِّكر ينافي حملَهُ على التأويل المخالف لحقيقته وظاهره ، قال ابن القيم رحمه الله:

---

[1] أي الكم الهائل من النصوص الواردة في إثبات الصفات.

[2] وهو النبي ﷺ .

[3] سورة إبراهيم: 4 .

[4] ومن المعلوم أن القدح في نصيحة النبي ﷺ لأمته باطل قطعا كما سيأتي بيانه.

[5] باختصار من «الصواعق المرسلة» (324-326).

(أنزل الله سبحانه الكتاب شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، ولذلك كانت معانيه أشرف المعاني ، وألفاظه أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها مطابقة لمعانيها المرادة منها ، كما وَصَفَ سبحانه به كتابه في قوله ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا﴾[1].

فالحق هو المعنى والمدلول الذي تضمنه الكتاب ، والتفسير الأحسن هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق ، فهي تفسيره وبيانه ، وكلما كان فهم المعنى منه أوضح وأبين كان التفسير أكمل وأحسن ، ولهذا لا تجد كلاما أحسن تفسيرا ولا أتم بيانا من كلام الله سبحانه ، ولهذا سماه سبحانه بيانا ، وأخبر أنه يَسَّرهُ للذِّكر ، وتيسيره للذكر يتضمن أنواعا من التيسير ؛ **إحداها** تيسير ألفاظه للحفظ ، **الثاني** تيسير معانيه للفهم ، **الثالث** تيسير أوامره ونواهيه للامتثال.

ومعلومٌ أنه لو كان بألفاظٍ لا يفهمها المخاطَب لم يكن مُيسَّرا له ، بل كان مُعسَّرا عليه ، فهكذا إذا أريد من المُخاطِب أن يُفهم من ألفاظه ما لا يدل عليه من المعاني أو يدل على خلافه ؛ فهذا من أشد التعسير ، وهو مناف للتيسير ، فإنه لا شيء أعسر على الأمة من أن يُجهِدوا أنفسهم ويكابِدوا أعظم المشقة في طلب أنواع الاستعارات وضروب المجازات ووحشِيِّ اللغات ليحملوا عليه آيات الصفات وأخبارها ، فيصرفوا قلوبهم وأفهامهم عما تدل عليه ، ويفهموا منها ما لا تدلُّ عليه بل تدلُّ على خلافِه ، ويقول: اعلموا يا عبادي أني أردت منكم أن تعلموا أني لست فوق العالم ولا تحته ، ولا فوق عرشي ، ولا تُرفع الأيدي إليَّ ، ولا يَعرُج إليَّ شيءٌ ، ولا يَنزِل من عندي شيءٌ ، من قولي[2] ﴿ الرحمٰن على العرش استوى﴾ ، ومن قولي ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾[3] ، ومن قولي ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾[4] ، ومن قولي ﴿بل رفعه الله إليه﴾[5] ، ومن قولي ﴿رفيع الدرجات ذو العرش﴾[6] ، فإنكم إذا فهمتم من هذه الألفاظ حقائقها وظواهرها فهمتم خلاف مرادي منها ، بل مرادي منكم أن تفهموا منها ما يدل على خلاف حقائقها وظواهرها!

فأيُّ تيسير يكون هناك وأي تعقيد وتعسير لم يحصل بذلك ، ومعلوم أن خطاب الرجل بما لا يفهمه إلا بترجمة أيسر عليه من خطابه بما كُلِّف أن يُفهم منه خلاف موضوعه وحقيقته بكثير ، فإن تيسير القرآن مناف لطريقة النفاة المحرفين أعظم منافاة).[7]

فهل بعد هذا يكون مذهب المؤولة هو الصواب ، ومذهب المثبتة هو الباطل؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

---

[1] سورة الفرقان: 33 .

[2] أي اعلموا ما تقدم ذِكره من قولي ﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾ وما سرد بعدها من الآيات.

[3] سورة النحل: 50 .

[4] سورة المعارج: 4 .

[5] سورة النساء: 158 .

[6] سورة غافر: 15 .

[7] «الصواعق المرسلة» (330-335) ، باختصار.

كلام جامع لابن القيم رحمه الله في ذم التأويل

وبناء على ما تقدم ؛ فالأسباب الجالبة للتأويل أربعة: إما نقصان بيان المتكلم ، أو سوء قصده ، وإما سوء فهم المستمع ، أو سوء قصده ، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة انتفى التأويل ، وإذا وُجِدت أو وُجِد بعضها وقع التأويل ، قاله ابن القيم رحمه الله في الفصل الحادي والعشرين من كتابه النفيس «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة».[1]

وقد تكلم رحمه الله في الكتاب نفسه على مسألة التأويل بما لا مزيد عليه ، فبين معناه لغة واصطلاحا ، ووجوه بطلانه ، وأنه لا ينضبط بضابط ولا يُحدُّ بِحدٍّ ، ثم بَيَّنَ جناية التأويل على أديان الرسل ، وأنه كان سببا لخراب العالم ، وفساد الدنيا والدين ، وأنه إن سُلِّط على العلوم أفسدها جميعا ، ورَفَعَ الثقة عن المتكلم ، ثم بين أسبابه ، وأنواع الاختلافات الناشئة عنه ، ثم عمد إلى الشبهات الأربعة التي يعتمد عليها أصحاب التأويل ففنَّدها جميعا ، وقد سماها رحمه الله الطواغيت الأربعة ، فردَّ رحمه الله الطاغوت الأول – وهو قولهم: إن كلام الله ورسوله أدلة لفظية لا تفيد علما ولا يقينا – من ثلاثة وسبعين وجها ، ثم رد الطاغوت الثاني – وهو قولهم: إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم العقل – من مئتين وواحد وأربعين وجها.

وقد ذكر رحمه الله أنه استفاد في رد هذه الشبهة من كتاب شيخه ابن تيمية رحمه الله «درء تعارض العقل والنقل»[2].

ثم ردَّ الطاغوت الثالث – وهو قولهم: إن آيات الصفات مجازات لا حقيقة لها – من خمسين وجها ، استغرقت مئتين وأربع وثلاثين صفحة من «مختصر الصواعق»[3].

ثم ردَّ الطاغوت الرابع وهو قولهم: إن أخبار الرسول الصحيحة لا تفيد العلم ، وغايتها أن تفيد الظن ، ففنَّدَ هذه الشبهة من عشرة وجوه ، استغرقت إحدى وثمانين صفحة ، وهو نهاية «المختصر».

استطراد

ولغير ابن القيم رحمه الله من علماء أهل السنة كلام في بيان بطلان تأويل صفات الرب عز وجل ،

---

[1] (500/2).

[2] وهو مطبوع في أحد عشر مجلدا مع الفهارس ، بتحقيق د. محمد رشاد سالم رحمه الله ، وهو من منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض.

[3] ينبغي التنبه إلى أن الجزء الأخير من كتاب «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» مفقود ، وهو المحتوي على جواب ابن القيم عن الطاغوت الثالث والرابع ، وقد اختصره قبل فقدانه الشيخ محمد الموصلي ، وضمَّنه ذِكر ابن القيم لهذين الطاغوتين والجواب عنهما ، فليراجعه من أراد الاطلاع على جوابه ، والمختصر من منشورات دار الحديث بالقاهرة.

فمن ذلك الفصل الذي عقده الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي رحمه الله في كتابه «توضيح الكافية الشافية» بعنوان «فصل في جناية التأويل ، والفرق بن المقبول منه والمردود» قال فيه:

"لا يرتاب عارف أن جميع المصائب التي جرت في صدر الإسلام وبعد ذلك ، ووقوع الفتن والاقتتال والتحزبات ؛ **كلها متفرعة عن التأويل الباطل الذي لا يُنتِج إلا شرا** ، فالتأويل الباطل سبب فتن الأقوال والبدع الاعتقادية والفتن الفعلية ، فلم يزل التأويل يتوسع.

وكل بدعة متأخرة تحدث من التأويلات الباطلة غير ما أحدثته التي قبلها ، حتى وصلت النّوبة إلى ابن سينا واتباعِه ، فتأولوا جميع الشرائع العلمية والعملية ، وأبطل القرامطة جميع الشَّرع ، وفسروا شرائعه الكبار بتفاسير يعلم الصبيان بطلانها ، فهذه البدع أصلها الذي تأسست عليه ؛ التأويل الباطل المردود.

وأما التأويل الذي يراد به تفسير مراد الله ومراد رسوله والطرق الموصلة إلى ذلك ؛ فهذه طريقة الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وهي التي أمر الله ورسوله بها ، ومدح أهلها.

وكذلك التأويل الذي هو بمعنى ما يؤول إليه الأمر ، مِن العمل بأمر الله ، ومن فِهم ما يؤول إليه الخبر ، فلفظ التأويل في الكتاب والسنة الغالب عليه هٰذان الأمران ؛ إما نفس وقوع ما أخبر الله به ورسوله ، وإما العمل بما أمر الله به ورسوله ، فالأول راجع إلى التصديق ، والثاني راجع إلى الطاعة والإيمان بالله ورسوله.

وطاعة الله ورسوله هو الخير كله ، وسبب السعادة والفلاح.

فتبين أن التأويل الصحيح كله يعود إلى فهم مراد الله ورسوله ، وإلى العمل بالخبر ، وأن التأويل الباطل يراد به ضد ذلك ، ويراد به صرف النصوص عن معناها الذي أراده الله ورسوله إلى بدعهم وضلالهم ، وهو من أعظم ما يدخل في القول على الله بلا علم وقول غير الحق.

وكل من ادَّعى تأويلا يخالف اللفظ لم تَصِحَّ دعواه إلا بأربعة أمور ، لو اختل واحد منها فتأويله باطل:

أحدها: أن يأتي بدليل يدل على قوله ، لأنه خلاف الأصل ، فإن الأصل حمل اللفظ على ظاهره وحقيقته ، فمن ادَّعى خلاف ذلك فعليه البرهان.

فإذا أتى بدليل طولب **بأمر ثان** وهو أنَّ ذلك الذي تأوَّلَهُ إلى ذلك المعنى يحتمله ، لأنه لا بد أن يكون بين الألفاظ والمعاني ارتباط وتناسب ، لأنه باللسان العربي ، أنزله الله ليعْقِلَهُ العباد إذا تدبروا ألفاظه ، فهل يمكن أن يعقلوا أو يفهموا ما ليس له ارتباط ودلالة على المعاني من ذات اللفظ ونفس العبارة بحيث لا يحتاجون إلى أمور خارجية؟

فإذا أتى بما يدل ويحتمل ذلك المعنى الذي عَيَّنه – وهيهات له ذلك – طولب **بأمر ثالث** وهو تعيينه المعنى الذي تأول اللفظ له ، فَهَبْ أن ظاهره غير مراد ، فلا بد من دليل يُعيِّن المعنى الذي صرفه إليه

ويُخصِّصه به ، فإن التخصيص من دون دليل من باب التكهن والتخرص ، لأن اللفظ لا يدل عليه بخصوصه ، فقد يكون القصد به معنى غير الذي عَيَّنوه.

فإن فُرِضَ أنه تأوُّلٌ على غيرِ ظاهره ، وأَتَى بدليلٍ على الاحتمال وعلى التعيين ؛ طولب **بأمر رابع** وهو الجواب عن المعارض ، لأن الدعوى لا تتم إلا بذلك ، والمعارض للنفي هو جميع الأدلة النقلية من الكتاب والسنة والأدلة العقلية والفطرة ، كما تقدمت الإشارة إليها ، ومن المستحيل أن يعارَض وحيه وتنزيله وقول رسوله وأصحابه والتابعين بإحسان بأقوال النفاة الذين بنوا أمرهم على المحال ، فتبين أن المعطلين النافين لا سبيل لهم إلى إثبات قولهم أبدا بوجه من الوجوه وهو المطلوب". انتهى كلامه رحمه الله باختصار يسير.

وقال الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي أيضا:

والحال أن المشابهة الحقيقية لليهود منطبقة على الجهمية ، فإن اليهود قد جمعوا بين تبديل النصوص وكتمانها ، وبين تحريف ما لا يُمكن فيه أحد الأمرين ، فهؤلاء الجهمية لما تعذر عليهم التبديل والكتمان – لأن الله نزَّل الذكر وحفظه فيستحيل تبديله وكتمانه – عمدوا إلى تحريف معاني النصوص وتبديلها ، فنفوا المعنى الذي أراده الله ورسوله ، وأثبتوا لها معاني من تلقاء أنفسهم ، **فهذا هو الشَّبَهُ الحقيقي باليهود**.[1]

قلت: وللقاضي أبي يعلى ، محمد بن الحسين بن الفراء[2] كتاب «إبطال التأويلات لأخبار الصفات» ، رد فيه على نفاة الصفات ، المؤولين لها ، المحرفين لمعانيها ، وهو من أقوى الكتب في بابه ، تناول فيها أحاديث الصفات التي تأولها المؤولة ، وناقش الشبهات التي أثاروها.[3]

---

[1] «توضيح الكافية الشافية» ، ص 341 – 342 ، من «المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي رحمه الله».
قلت: وقد ذكر ابن القيم رحمه الله هذه الشروط الأربعة في كتابه «الصواعق المرسلة» ، الفصل التاسع ، ص 288 – 295 ، كما ذكرها في «نونيته» في «فصل فيما يلزم مدَّعي التأويل لتَصِحَّ دعواه».

[2] هو الإمام العلامة شيخ الحنابلة ، القاضي أبو يعلى ، محمد بن الحسين البغدادي ، صاحب التصانيف المفيدة ، له رواية للحديث النبوي ، كان عالم العراق في زمانه ، توفي سنة 458 . انظر ترجمته في «السير» (89/18).

[3] وقد حققه الشيخ محمد بن حمد الحمود ، جزاه الله خيرا ، وهو من منشورات مكتبة دار الإمام الذهبي – الكويت.

فصل في توبة بعض مشاهير مؤولة الصفات ، ورجوعهم إلى طريقة أهل السنة في فهم صفات الرب عز وجل

قال العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي رحمه الله:

واعلم أن أئمة القائلين بالتأويل رجعوا قبل موتهم عنه ، لأنه مذهب غير مأمون العاقبة ، لأن مبناه على:

- ادِّعاءِ أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها لا تليق بالله ، لظهورها وتبادرها في مشابهة صفات الخلق.
- ثم نَفْيِ تلك الصفات الواردة في الآيات والأحاديث لأجل تلك الدعاوى الكاذبة المشؤومة.
- ثم تأويلِها بأشياء أُخَرَ دون مستند من كتاب أو سنة أو قول صحابي أو أحد من السلف.

وكل مذهب هذه حاله فإنه جدير بالعاقل المفكر أن يرجع عنه إلى مذهب السلف. انتهى كلامه رحمه الله.[1]

ثم ذكر كلاما جيدا في بيان أن أئمة المتكلمين المشهورين رجعوا كلهم عن تأويل الصفات ، بدءا من القاضي محمد بن الطيب ، المعروف بأبي بكر الباقلاني[2] ، ثم أبي الحسن الأشعري[3] ، ثم أبي حامد الغزالي[4] ، ثم الفخر الرازي[5] ، في نحو سبعِ عشرة ورقة ، فليراجعه من أراد الاستزادة.

---

[1] انظر «أضواء البيان» (499/7 – 500) ، تفسير سورة محمد ، الناشر: دار عالم الفوائد – مكة.

[2] هو العلامة الأصولي محمد بن الطيب بن محمد البصري ثم البغدادي ، ابن الباقلاني ، مات سنة 403 ، قال الذهبي في «العلو»: (ليس في المتكلمين الأشعرية أفضل منه مطلقا) ، وانظر تقريره لإجماع المسلمين على علو الله على خلقه في كتابه «الإبانة» ، وقد أورد الذهبي كلامه في «العلو» ص 238 ، وترجم له في «السير» (190/17) ، و «تاريخ الإسلام» (63/9).

[3] هو العلامة إمام المتكلمين ، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري اليماني البصري ، تعلم الاعتزال ثم تاب منه وتبرأ منه على المنبر ، قال الذهبي في ترجمته في «السير» (86/15): رأيت لأبي الحسن أربعة تواليف في الأصول ، يذكر فيها قواعد مذهب السلف في الصفات ، وقال فيها: (تُمَرُّ كما جاءت) ، ثم قال: (وبذلك أقول ، وبه أدين ، ولا تُؤوِّل). اهـ.

قلت: وقد قرر الأشعري إجماع أهل السنة على علو الله على خلقه في كتابه «رسالة إلى أهل الثغر» ، ص 232 .

توفي رحمه الله سنة 330 .

[4] هو الشيخ أبو حامد ، محمد بن محمد بن محمد الطوسي ، الشافعي الغزالي ، لازم إمامَ الحرمين ، أبا المعالي الجويني ، خاض في الفلسفة فنشَب فيها ، وما استطاع الخروج منها ، بل تأثر بها كثيرا ، وصنف كتاب «إحياء علوم الدين» وملأه بالأحاديث الباطلة والأقوال الفلسفية الساقطة ، وقد رد عليه جمع من العلماء ونقل كلامهم الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (322/19) في ثنايا ترجمته.

توفي أبو حامد سنة 505 وله 55 سنة ، ولو أنه انكب على كتب الحديث والأثر لكان شيخ الإسلام بحق.

[5] هو العلامة الكبير ذو الفنون فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين القرشي البكري الطبرستاني ، الأصولي المفسر الكبير ، كبير الأذكياء والحكماء والمصنفين ، وقد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم وسحر وانحرافات عن السنة ، والله يعفو عنه فإنه توفي على طريقة حميدة ، والله يتولى السرائر ، مات سنة 606 هـ. انظر «سير أعلام النبلاء» (500/21).

ذكر كلام بعض من أوَّل الصفات ثم تراجع عنه

قال أبو محمد ، عبد الله بن يوسف الجويني[1] رحمه الله في كتابه «رسالة في إثبات الاستواء والفوقية»:

"وكنت متحيرا في الأقوال المختلفة الموجودة في كتب أهل العصر في جميع ذلك من تأويل الصفات وتحريفها وإمرارها والوقوف فيها ، أو إثباتها بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ، فأجد النصوص في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ناطقةً مُنبئةً بحقائق هذه الصفات ، وكذلك في إثبات العلو والفوقية ، وكذلك في الحرف والصوت ، ثم أجد المتأخرين من المتكلمين في كتبهم منهم من يؤوّل الاستواء بالقهر والاستيلاء ، ويؤوّل النزول بنـزول الأمر ، ويؤوّل اليديـن بالقدرتين أو النعمتين ، ويؤوّل القدم بقدم صدق عند ربهم ، وأمثال ذلك.

ثم أجدهم مع ذلك يجعلون كلام الله تعالى معنى قائما بالذات بلا حرف ولا صوت ، ويجعلون هذه الحروف عبارة عن ذلك المعنى القائم.

وممن ذهب إلى هذه الأقوال وبعضها قوم لهم في صدري منزلة ، مثل طائفة من فقهاء الأشعرية الشافعيين ، لأني على مذهب الشافعي رضي الله عنه ، ومنه[2] عرفت فرائض ديني وأحكامه ، فأجِد مثل هؤلاء الشيوخ الأجِلَّة[3] يذهبون إلى مثل هذه الأقوال وهم شيوخي ، ولي فيهم الاعتقاد التام لفضلهم وعلمهم.

ثم إنني مع ذلك أجد في قلبي من هذه التأويلات **حزازات لا يطمئن قلبي إليها ، وأجد الكدَرَ والظُّلمةَ منها ، وأجد ضيقَ الصدرِ وعدم انشراحِهِ مقرونا بها ، فكنت كالمتحيِّر المضطرب في تحيُّره ، المتململِ من قلبه في تقلبه وتغيره** ، وكنت أخاف من إطلاق القول بإثبات العلو والاستواء والنزول مخافة الحصر والتشبيه.

ومع ذلك ؛ فإذا طالعت النصوص الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أجدها نصوصا تشير إلى حقائق هذه المعاني ، وأجد الرسول ﷺ قد صرّحَ بها مُخبِرًا عن ربه ، واصفا له بها ، وأعلمُ بالاضطرار أنه ﷺ كان يحضُرُ في مجلسه الشريف والعالم والجاهل ، والذكي والبليد ، والأعرابي والجافي ، ثم لا أجدُ شيئا يَعقُب تلك النصوص التي كان يصف ربه بها ، لا نصا ولا ظاهرا مما يصرفها عن حقائقها ، ويؤوّلها كما تأوَّلَها

---

[1] هو شيخ الشافعية ، وصاحب وجه في المذهب ، له عدة تواليف ، وهو والد إمام الحرمين ، أبو المعالي الجويني ، انظر ترجمته في «السير» (617/17).

[2] كلمة (ومنه) ليست في المطبوع ، وأظنه سقط لأن الكلام لا يستقيم إلا بإثباتها.

[3] الأجِلَّة جمع جليل.

هؤلاء ، مشايخي الفقهاء المتكلمين ، مثل تأويلهم الاستيلاء بالاستواء[1] ، ونزول الأمر للنزول ، وغير ذلك.

ولم أجد عنه ﷺ أنه كان يحذر الناس من الإيمان بما يظهر من كلامه في صفته لديه من الفوقية واليدين وغيرها ، ولم ينقل عنه مقالة تدل على أن لهذه الصفات معاني أخر باطنة غير ما يظهر من مدلولها ، مثل فوقية المرتبة ، ويد النعمة ، والقدرة ، وغير ذلك".[2]

ثم قال بعد كلام له في تقرير العلو وفوقية الله عز وجل:

"إذا علمنا ذلك واعتقدناه ؛ تخلَّصنا من شبه التأويل وعماوة التعطيل وحماقة التشبيه والتمثيل ، وأثبتنا علوَّ ربنا سبحانه وفوقيته واستواءَه على عرشه كما يليق بجلاله وعظمته ، والحق واضح في ذلك ، والصدور تنشرح له ، فإن التحريف تأباه العقول الصحيحة ، مثل تحريف الاستواء بالاستيلاء وغيره ، والوقوف في ذلك جهلٌ وعَيٌّ ، مع كون أن الرب تعالى وصف لنا نفسه بهذه الصفات لنعرفه بها ، فوقوفنا على إثباتها ونفيها عدول عن المقصود منه في تعريفنا إياها ، فما وصف لنا نفسه بها إلا لنثبت ما وصف به نفسه لنا ، ولا نقف في ذلك.

وكذلك التشبيه والتمثيل حماقة وجهالة ، فمن وفَّقه الله تعالى للإثبات بلا تحريف ولا تكييف ولا وقوف فقد وقع على الأمر المطلوب منه إن شاء الله تعالى.

فصل

والذي شرح الله صدري في حال هؤلاء الشيوخ الذين أوَّلوا الاستواء بالاستيلاء ، والنزول بنزول الأمر ، واليدين بالنعمتين والقدرتين ؛ هو علمي بأنهم ما فهموا في صفات الرب تعالى إلا ما يليق بالمخلوقين ، فما فهموا عن الله استواء يليق به ، ولا نزولا يليق به ، ولا يدين تليق بعظمته بلا تكييف ولا تشبيه ، فلذلك حرفوا الكلم عن مواضعه ، وعطلوا ما وصف الله نفسه به".

انتهى كلامه رحمه الله.[3]

وهكذا فخر الدين الرازي ، فقد تراجع عن مذهبه في تحريف معاني صفات الله ، العلو وغيره من الصفات ، وقال كلاما يكتب بماء الذهب والله في رجوعه إلى طريقة أهل السنة والجماعة في إثبات معاني صفات الله وإمرارها كما جاءت بلا تأويل ، وذكر منها آيات العلو ، قال رحمه الله:

---

[1] هكذا في المطبوع ، ولعل الصواب: (الاستيلاء للاستواء) ، أي تأويل الاستواء بالاستيلاء ، وبه يتَّسق السياق.

[2] ص 30 – 33 .

[3] ص 72 – 73 .

نِهايةُ إقدامِ العـــــقولِ عـِقالُ وأكثرُ سعيِ العالمينَ ضلالُ

وأرواحُنا في وَحشةٍ من جُسومِنا وحاصِلُ دنيانا أذًى ووبالُ

ولم نستفِد من بحثنا طولَ عمرنا سِوى أن جمعنا فيه قيلَ وقالوا

واعلم أنه بعد التوغل في هذه المضايق ، والتعميق في الاستكشاف عن أسرار هذه الحقائق ؛ رأيت الأصوب الأصلح في هذا الباب طريقة القرآن العظيم والفرقان الكريم ، وهو ترك التعمق ، والاستدلال بأقسام أجسام السماوات والأرضين على وجود رب العالمين ، ثم المبالغة في التعظيم ، من غير خوض في التفاصيل ، فاقرأ في التنزيه قوله تعالى ﴿والله الغني وأنتم الفقراء﴾ ، وقوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾ ، وقوله تعالى ﴿قل هو الله أحد﴾ ، واقرأ في الإثبات قوله ﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾ ، وقوله تعالى ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ ، وقوله ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾[1] .... وعلى هذا القانون فقِسْ.[2]

فصل في بيان فضل الرد على المؤولة

ولما كان ضرر التأويل الفاسد عظيما وجنايته كبيرة في الدين ؛ رد علماء الإسلام على القائلين به ، وحثَّ بعضهم بعضا على بيان زيغ كلامهم ، فمن ذلك ما قاله ابن القيم رحمه الله في حق المؤولة:

"فكشفُ عوراتِ هؤلاءِ وبيان فضائحهم وفساد قواعدهم من أفضل الجهاد في سبيل الله ، وقد قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: إن روح القُدُس[3] لا يزال يؤيدك ما نافَحت عن الله ورسوله.[4]

وقال عن هجائه لهم: اهجوا قريشا ، فإنه أشد عليها من رَشْقٍ النبل.[5]

وكيف لا يكون بيان ذلك من الجهاد في سبيل الله ، وأكثر هذه التأويلات المخالفة للسلف الصالح من الصحابة والتابعين وأهل الحديث قاطبة وأئمة الإسلام الذين لهم في الأمة لسان صدق ؛ يتضمن من عبث المتكلم بالنصوص وسوء الظن بها من جنس ما تضمنه طعن الذين يلمزون الرسول ودينه ، وأهل النفاق والإلحاد[6] ، لما فيه من دعوى أن ظاهر كلامه إفك ومحال ، وكفر وضلال ، وتشبيه وتمثيل أو تخييل ، ثم صرفها إلى معان يعلم أن إرادتها بتلك الألفاظ من نوع الأحَاجِي والألغاز ، لا يصدُر مِمَّن قَصدُه نُصحٌ

---

[1]. سورة فاطر: 10 .

[2] انتهى كلامه ، نقلا من «اجتماع الجيوش» ص 305 – 306 .

[3] أي جبريل.

[4] رواه مسلم (2489) عن عائشة رضي الله عنها.

[5] رواه مسلم (2490) عن عائشة رضي الله عنها.

[6] أي: وطَعْن أهل النفاق والإلحاد ، حَذَفَ الفعل (وطعن) لتقدمه ، وعطَف الجملة على الجملة التي قبلها.

وبيانٌ ، فالمدافعة عن كلام الله ورسوله والذب عنه من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله وأنفعها للعبد ، ومن رزقه الله بصيرة نافذة علِم سخافة عقول هؤلاء المحرفين ، وأنهم من أهل الضلال المبين ، وأنهم إخوان الذين ذمَّهم الله بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، الذين لا يفقهون ولا يتدبرون القول ، وشبَّههم بالحُمُرِ المستنفِرة[1] تارة ، وبالحمار الذي يحمل أسفارا تارة ، ومَن قَبِلَ التأويلات المفتراة على الله ورسوله التي هي تحريف لكلام الله ورسوله عن مواضعه فهو من جنس الذين قبلوا قرآن مسيلمة المختلق المفترى".[2]

النوع الخامس من أنواع الإلحاد هو التفويض ، وهو ادعاء أن أسماء الله وصفاته ليس لها معانٍ يعلمها الناس ، فالغفور – بزعمهم – ليس له معنى ، والرحيم ليس له معنى ، وهلُمَّ جَـرًّا ، وهذا القول هو من شر قول أهل البدع والإلحاد ، قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «درء تعارض العقل والنقل»[3] ، وبيان ذلك من وجهين[4]:

الأول: أن القول بالتفويض يلزم منه الطعن في بيان القرآن والتكذيب له ، لأن الله يقول ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء﴾[5] ، وكيف يكون البيان إذا كانت أسماء الله وصفاته – التي هي أكثر ما يتكرر ذكره في القرآن لا سيما في خواتم الآيات – لا يُدرى معناها؟ أين البيان إذًا؟

والثاني أن قولهم بالتفويض يقتضي تجهيل الرسول ﷺ ، لأن لازِم كلامهم أن النبي ﷺ لا يدري معانيَ القرآن فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته ، أي أن النبي ﷺ كان يقرأ ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ ، ولا يدري ما معنى قوله ، وكذلك يقول الرسول ﷺ : (ينزل ربنا إلى سماء الدنيا) ، ولا يدري ما معنى كلامه ، وهذا باطل قطعا.

قال الشيخ صديق حسن خان القِـنَّوجي[6] رحمه الله في كتابه «قَطفُ الثمر في عقيدة أهل الأثر»:

"ومن ظن أن نصوص الصفات لا يُعقل معناها ، ولا يُدرى ما أراد الله تعالى ورسوله منها ، وظاهرها تشبيه وتمثيل ، واعتقاد ظاهرها كفر وضلال ، وإنما هي ألفاظ لا معاني لها ، وأن لها تأويلاً وتوجيهاً لا

---

[1] وقع التشبيه في قوله تعالى ﴿كأنهم حمر مستنفرة﴾ ، ويعني بالحُمُر المُستنفرة حُمُر الوحش إذا رأت صائد لها فخافت وفرَّت ، فهكذا هم يفرون من الحق كفرار الحُمُر.

[2] «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» (1/301-303) باختصار.

[3] (1/205).

[4] انظر «شرح الواسطية» (1/93 – 94).

[5] سورة النحل: 89 .

[6] هو الإمام العلامة المحقق محيي السنة وقامع البدعة ، أبو الطيب صديق بن حسن بن علي لطف الله القِنَّوجي ، نزيل «بهوبال» بالهند وأميرها ، له عدة مؤلفات ، منها في العقيدة «الدين الخالص» و«قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر» ، وله في الفقه «الروضة الندية شرح الدرر البهية» ، وله غيرها في التفسير والحديث ، توفي رحمه الله سنة 1307 .

باختصار وزيادة من مقدمة د. عاصم بن عبد الله القريوتي لتحقيق كتاب الشيخ صديق «قطف الثمر» ، الناشر: عالم الكتب – لبنان.

يعلمه إلا الله ، وأنها بمنزلة ﴿ألم﴾ ، و ﴿كهيعص﴾ ، وظن أن هذه طريقة السلف ، ولم يكونوا يعرفون حقيقة قوله ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾ ، وقوله ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾[1] ، وقوله ﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾ ونحو ذلك ؛ فهذا الظان من أجهل الناس بعقيدة السلف وأضلهم عن الهدى ، وقد تضمن هذا الظن استجهال السابقين الأولين ، من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة ، وكبار الذين كانوا أعلم الأمة علماً وأفقههم فهماً وأحسنهم عملاً وأتبعهم سَنناً ، ولازم هذا الظن أن الرسول ﷺ كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه ، وهو خطأ عظيم وجسارة قبيحة ، نعوذ بالله منها".[2]

والخلاصة أن معاني أسماء الله وصفاته معلومة ، وليست كما قالت المفوضة ، أما كيفية صفاته فهي المجهولة ، لأنها من الغيب ، فكيفية مجيء الرب يوم القيامة – مثلا – مجهولةٌ ، لأن العقلَ البشريَّ لم يُحِط به ، وليس بمقدوره إدراكه بالحس ، أما معنى المجيء في لغة العرب فمعلوم ، وهكذا تُفهم باقي الصفات ، والله أعلم.

النوع السادس من أنواع الإلحاد: تسمية الله بما لم يُسَمِّ به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ ، **أو وصفه بما لم يصف به نفسه** أو وصفه به رسوله ﷺ ، كما سماه الفلاسفة بـ «العلة الفاعلة» ، وسماه النصارى «أب» ، وهذا باطل لكون أسماء الله توقيفية ، أي متوقف العلم بها على الكتاب والسنة ، فلا يجوز أن يُسمى الله باسم أو بصفة إلا اعتمادا على نصٍّ من كتاب أو سنة ، وإلا كان إلحادا وميلا عن المنهج الصحيح في فهم أسماء الله تعالى وصفاته ، ومن القول على الله تعالى بغير علم.[3]

النوع السابع من أنواع الإلحاد: إنكار أن يكون لله أسماء ، كما وقع من غلاة الجهمية ، الذين قالوا إنه ليس لله اسم أبدا ، تعالى الله عن ذلك ، وحُجَّتهم في ذلك أنهم لو أثبتوا لله اسما لأشبه المخلوقات – بزعمهم – من جهة أن للمخلوقات أسماء أيضا ، وبطلان هذا واضح لا يحتاج إلى كبير رد ، فإن كثيرا من آيات القرآن تختم بذكر أسماء الله تعالى وصفاته ، فإنكار الجهمية لأسماء الله تعالى يلزم منه أن ذِكر تلك الأسماء والصفات كان عبثا ، والعبث ينزه عنه الله تعالى ، وصدق الله تعالى ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾.[4]

النوع الثامن من أنواع الإلحاد في أسماء الله وصفاته: اشتقاق أسماء منها للمعبودات الباطلة ، كما فعل الجاهليون لما اشتقوا بعض أسماء أصنامهم من أسماء الله تعالى ، فاشتقوا «اللات» من الإله ، و

---

[1] سورة ص: 75 .

[2] ص 53 – 54 .

[3] انظر «شرح الواسطية» لابن عثيمين رحمه الله (120/1).

[4] انظر «شرح الواسطية» لابن عثيمين رحمه الله (120/1 – 121).

«العزى» من العزيز ، و «مناة» من المنان ، وهذا تعدٍّ على حق الله تعالى الواجب له في تعظيم أسمائه وصفاته ، والواجب هو أن تُعظَّم أسماء الله تعالى ، فلا يُشتق لغيره منها.[1]

فهذه ثمانية أنواع من أنواع الانحراف في فهم أسماء الله وصفاته ، ينبغي للمسلم أن يحذرها غاية الحذر ، إذِ القول ببعضها يدخل في ارتكاب البدع ، والقول ببعضها الآخر يؤدي إلى الكفر عياذا بالله ، والواجب تنزيه الله عن جميع صفات النقص ، وهو معنى التسبيح ، لأن معنى التسبيح هو التنزيه والتقديس للرب تبارك وتعالى.

تنبيهات وفوائد

تنبيه

الكفر يطرأُ في باب الأسماء والصفات من باب الشك ، فمن شك في صفة من صفات الله أو اسم ثابت له من أسمائه كَفَر ، كمن شك في قدرة الله ، أو شك في رحمته ، أو شك هل الرحمٰن من أسماء الله أو لا ، ووجهُ كفرِه أن أسماء الله وصفاته ثابتة له بالقرآن والسنة ، فمَن ردَّ شيئا منها فإنما هو يرد خبر الله ، وهذا كفر ، والواجب هو الإيمان واليقين بأسماء الله وصفاته ، وكذا كل ما دل عليه القرآن العظيم والسنة الصحيحة.

تنبيه آخر

تنزيه الله تعالى عن صفات النقص هو المُعبَّر عنه بالتسبيح ، فالتسبيح هو التنزيه[2] ، والتسبيح من أفضل أعمال القلب واللسان ، ولذا جاء أمر الله تعالى به بكرة وأصيلا ، أي في الصباح والمساء ، وقد كان النبي ﷺ يكثر من تسبيح الله تعالى في عموم أحواله ، فقد كان يسبح الله إذا أصبح وإذا أمسى ، وإذا فرغ من الصلاة ، وإذا نزل واديا ، وإذا تعجب من شيء ، وعند المنام ، وغير ذلك من الأحوال.

فائدة

والتسبيح أجره عظيم ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: من قال: (سبحان الله وبحمده) في يوم مائة مرة ؛ حُطَّت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر.[3]

وعنه قال: من قال حين يُصبِح وحين يُمسي (سبحان الله وبحمده مائة مرة) ؛ لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به ، إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه.[1]

---

[1] انظر «شرح الواسطية» لابن عثيمين رحمه الله (1/ 123).

[2] انظر «لسان العرب» لابن منظور.

[3] رواه البخاري (6405) ، ومسلم (2691).

وعنه عن النبي ﷺ قال: كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمٰن ؛ سبحان الله العظيم ، سبحان الله وبحمده.[2]

أقول: فكم حُرِم الواقعون في تأويل صفات الله عز وجل من ثواب وأجر التسبيح بسبب تأويلهم لصفات الرب عز وجل التي وصف نفسه بها؟

تنبيه

والواقعون في التأويل لم يخسروا ثواب التسبيح فحسب ، بل قد باؤوا بإثم عظيم بسبب عدم إيمانهم بمعاني تلك الصفات على مراد الله ومراد رسوله ﷺ ، ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله: لأن يلقى الله عز وجل المرء بكل ذنب ما خلا الشرك بالله تبارك وتعالى خير له من أن يلقاه بشيء من الأهواء.[3]

فائدة

ومما يدل على عِظمِ شأن توحيد الأسماء والصفات أيضا أن أعظم آية في القرآن هي آية الكرسي ، والتي تتضمن كل جملة منها اسما أو صفة من أسماء الله وصفاته ، فعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : يا أبا المنذر ، أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟

قال: قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: يا أبا المنذر ، أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظم؟

قال: قلت: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾[4] ، قال: فضرب في صدري وقال: واللهِ ، لِـيَهْنِكَ العلم أبا المنذر.[5]

أي: هنيئا لك العلم.

قال النووي[6] رحمه الله في شرح الحديث: قال العلماء: إنما تميزت آية الكرسي بكونها أعظم لما جمعت من أصول الأسماء والصفات من الإلٰهية والوحدانية والحياة والعلم والملك والقدرة والإرادة ، وهذه السبعة أصول الأسماء والصفات ، والله أعلم. انتهى.

---

[1] رواه مسلم (2692).

[2] رواه البخاري (6406) ، ومسلم (2694).

[3] رواه البيهقي في «آداب الشافعي ومناقبه» ، ص 143 ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

[4] سورة البقرة: 255 .

[5] رواه مسلم (810).

[6] هو الإمام العالم ، مفتي الأمة في زمنه ، الفقيه الشافعي الزاهد ، أبو زكريا ، محيي الدين ، يحيى بن شرف النووي ، نفع الله الأمة بتصانيفه نفعا عظيما ، كشرح صحيح مسلم ، و «رياض الصالحين» و «المجموع» وهو شرح «المهذب» ، وغيرها ، انظر ترجمته في

ومما يدل على عِظَم شأن توحيد الأسماء والصفات أيضا أن سورة الإخلاص – التي تتضمن صفة الرحمٰن – تعدل ثلث القرآن في ثواب القراءة ، يدل لهذا حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: أيعجِز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟

قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟

قال: ﴿قل هو الله أحد﴾ تعدل ثلث القرآن.[1]

فائدة من فوائد العلم بمعاني أسماء الله وصفاته ذكرها ابن القيم رحمه الله تعالى

قال رحمه الله:

والأسماء الحسنى والصفات العلا مقتضِيةٌ لآثارها من العبودية والأمر اقتضاءَها لآثارِها من الخلق والتكوين ، فلِكلِّ صفة عبودية خاصة هي من موجِبات العلم بها والتحقق بمعرفتها ، وهذا مُطَّرِدٌ في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح ، فعِلْمُ العبد بتفرد الرب تعالى بالضُّر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة ؛ يُثمر له عبودية التوكل عليه باطنا ، ولوازم التوكل وثمراته ظاهرا.

وعِلمه[2] بسمعِه – تعالى – وبصرِه وعلمِه ، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات والأرض ، وأنه يعلم السر وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ؛ يثمر له حِفظَ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل مالا يُرضي الله ، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه ، فيثمر له ذلك الحياء باطنا ، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح.

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبرِّه وإحسانه ورحمته ؛ توجب له سعة الرجاء ، وتثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه.

وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه ؛ تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة ، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة[3] أنواعا من العبودية الظاهرة هي موجِباتها.

وكذلك عِلمه بكماله[4] وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية ، **فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات** ، وارتبطت بها ارتباط الخلق بها ، فخلقه سبحانه وأمره هو مُوجَبُ أسمائه وصفاته في العالم وآثارها ومقتضاها.[1] انتهى كلامه.

«تاريخ الإسلام» (324/15) و «تذكرة الحفاظ».

[1] رواه مسلم (811) ، ورواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (5015).

[2] أي العبد.

[3] أي الخضوع والاستكانة والمحبة.

[4] أي الله تعالى.

قلت: وللإيمان بأسماء الله وصفاته فوائد جليلة غير ما ذكر رحمه الله ، (فمن آمن بأن من أسماء الله تعالى (العفو) و(الغفور) و(الرحيم) ، وأن من صفاته (المغفرة للمذنبين) و(الرحمة) و (العفو) ؛ دعاه ذلك إلى عدم اليأس من روح الله ، وإلى عدم القنوط من رحمته ، بل ينشرح صدره لما يرجو من رحمة ربه ومغفرته.

ومن عرف أن من صفات الله تعالى أنه (شديد العقاب) و (الغيرة إذا انتُهِكت محارمه) ، و(الغضب) ، وأنه (ذو انتقام ممن عصاه) ؛ حمله ذلك على الخوف من الله تعالى والبعد عن معصيتِه.

كما أن المؤمن إذا أيقن أن من أسماء الله تعالى (القوي) و (القادر) و (العزيز) ، وأنه تعالى (يتولى المؤمنين بالحفظ والنصر) ؛ أكسبه ذلك عظمة التوكل على الله ، والوثوق بنصره ، وعدم الهلع من أعدائه ، فيعيش قرير العين ، واثقا بحفظ الله وتأييده ونصره.

ومن استقر في قلبه أن من أسماء الله تعالى (البصير) ، وأنه تعالى يرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة السوداء ، وعلم أن من أسماء الله تعالى (الرقيب) و(العليم) ، وأنه تعالى يعلم نيات العباد وخلجات نفوسهم ؛ حمَله ذلك على البعد عن معصية الله ، وأن لا يراه الله حيث نهاه ، وعلى مراقبته سبحانه في كل ما يأتي وما يذر.

ومن آمن بصفات الله واستعاذ بها أعاذه الله مما يخاف منه.

ومن عَلِمَ أسماء الله وصفاته وتوسل إلى الله تعالى بها استجاب الله دعاءه ، فحصل له ما يرجوه من مرغوب ، واندفع عنه ما يخافه من مرهوب.

هذا كله قطرةً من بحرٍ من ثمراتِ الإيمان بالأسماء والصفات).[2]

خاتمة

وختاما لهذه المقدمة التوضيحية لفهم عقيدة أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ، فإني أُذكِّر نفسي وإخواني بأن الواجب على المؤمن اتباع النصوص ، وفهمها على ضوء فهم السلف الصالح وهم الصحابة والتابعون ، فإن علِم الله من المؤمن حرصه على اتباع الرسول ﷺ وصحابته ومن تبعهم بإحسان ؛ هداه إلى الصراط المستقيم ، مصداقا لقوله تعالى ﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم﴾[3] ، أي لأسمعهم السماع الموجب للفهم والانقياد ، وأما إن علم الله في قلب الإنسان زيغا أزاغ قلبه ، كما قال

---

[1] «مفتاح دار السعادة» (2/510-511).

[2] نقلا من «تهذيب تسهيل العقيدة الإسلامية» ، ص 67 – 68 ، للشيخ الدكتور عبد الله بن عبد العزيز الجبرين حفظه الله ، بتصرف يسير.

[3] سورة الأنفال: 23 .

تعالى ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾[1] ، فإنه ما من قلب إلا وهو بين أصبُعين من أصابع الرحمٰن ، إن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه ، نسأل الله تعالى أن يُقيم قلوبنا على العقيدة الصحيحة ، وألا يزيغنا بعدما هدانا ، (يا مقلِّب القلوب ثبت قلوبنا على دينك) ، إنك خير مسئول وأعظم مأمول.

[1] سورة الصف: 5 .

خاتمة الركن الأول

ثمرات الإيمان بالله تعالى

والإيمان بالله تعالى على ما وصفنا يثمر للمؤمنين ثمرات جليلة منها:

الأولى: تحقيق توحيد الله تعالى ، بحيث لا يتعلق بغيره رجاءً ولا خوفاً ، ولا يَعبد غيره.

الثانية: كمال محبة الله تعالى وتعظيمه بمقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثالثة: تحقيق عبادته ، بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.[1]

[1] قاله ابن عثيمين رحمه الله كما في «شرح ثلاثة الأصول» ، ص ٩٠ .

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة

(الملائكة عالم غيبي مخلوقون ، عابدون لله تعالى ، ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء ، خلقهم الله تعالى من نور ، ومنَحهم الانقياد التام لأمره ، والقوة على تنفيذه ، قال الله تعالى ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[1] ، وقال ﴿وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُون * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾[2].

وهم عدد كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى ، ففي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه في قصة المعراج أن النبي ﷺ رُفع له البيت المعمور في السماء ، فسأل جبريل عنه فقال: هذا البيت المعمور ، يُصلِّي فيه كل يوم سبعون ألف مَلَكٍ ، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم.[3]

والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بوجودهم.

الثاني: الإيمان بمن علِمنا اسمه منهم ، كجبريل ، وأما من لم نعلم اسمه فنؤمن بهم إجمالا.

الثالث: الإيمان بما علمنا من صفاتهم الخَلقية ، كصفة جبريل ، فقد أخبر النبي ﷺ أنه رآه على صفته التي خُلق عليها وله ست مئة جناحٍ قد سدَّ الأفق.[4]

وقد يتحول المَلَكُ بأمر الله تعالى إلى هيئةِ رجلٍ ، كما حصل لجبريل حين أرسله الله تعالى إلى مريم فتمثل لها بشرًا سويًا ، وحين جاء إلى النبي ﷺ وهو جالس في أصحابه ، جاءه بصفة رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه أحد من الصحابة ، فجلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخِذيه ، وسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأماراتها ، فأجابه النبي ﷺ ، فانطلق ، ثم لما سأل الصحابة النبي ﷺ عنه قال: هذا جبريل ، جاء ليعلم الناس دينهم.[5]

---

[1] سورة التحريم: ٦ .

[2] سورة الأنبياء: ١٩ – ٢٠ ، ومعنى ﴿لا يستحسرون﴾ أي لا يتعبون ولا يسأمون. انظر «تفسير الطبري».

[3] أخرجه البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٤).

فائدة: وقد جاء وصفهم في التنزيل بأنهم يصُفون صفوفا إذا قاموا لطاعة ربهم من صلاة وغيرها ، قال تعالى ﴿والصافات صفا﴾ ، وقال تعالى على لسان الملائكة ﴿وإنا لنحن الصافون﴾.

[4] رواه البخاري (٣٢٣٢ ، ٣٢٣٣) ، ومسلم (١٧٤ ، ١٧٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

[5] رواه مسلم (٨).

وكذلك الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى إلى إبراهيم ولوط كانوا في صورة رجال)[1].

قلت: ولكن هذا التحول من هيئة إلى هيئة لا يكون إلا بأمر الله عز وجل.

وأعظم الملائكة وصْفاً في خَلْقه وخُلُقه هو جبريل عليه السلام ، فقد وصفه الله بأنه ﴿رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾[2] ، أي ذو مكانة عند ربه ، ثم قال ﴿مُطاعٍ ثَمَّ أمين﴾[3] ، أي مُطاعٍ عند سائر الملائكة ، أمين على الوحي.

كما وَصفَهُ الله بالقوة الخَلقية في قوله عن نبيه محمد ﴿علَّمه شديد القوى * ذو مِرّة فاستوى﴾[4] ، أي أن الذي علَّم محمدا الوحي هو جبريل ، وصفه الله بأنه شديد القوى ، أي: شديد القوة الظاهرة والباطنة ، قوي على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه ، قوي على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ ، ومنعِه من اختلاس الشياطين له ، أو إدخالهم فيه ما ليس منه ، وهذا من حفظ الله لوحيه ، أن أرسله مع هذا الرسول القوي الأمين.[5]

وقوله ﴿ذو مِرَّةٍ﴾ ، المِـرّةُ هي السلامة والصحة من الآفات والعاهات الظاهرة والباطنة ، وذلك يستلزم كمال الخِلقة وحسنها وجمالها ، فهي القوة والصحة المتضمنة صحة وجمالا ، قال ذلك ابن القيم في «الإغاثة»[6].

الرابع: الإيمان بما علِمنا من أعمالهم العامة والخاصة التي يقومون بها امتثالا لأمر الله تعالى ، فأما العامة فكتسبيح الله ، والتَّعبُّد له ليلا ونهارًا بدون ملل ولا فتور ، قال تعالى عنهم ﴿فالتاليات ذكرا﴾[7].

وقد يكون لبعضهم أعمال خاصة ، مثل جبريلَ الأمينُ على وحي الله تعالى ، يرسله الله به إلى الأنبياء والرسل ، وقد يتنزل أفراد من الملائكة بشيء من الوحي ، قال تعالى ﴿فالمُلقيات ذكرا * عذرا أو نذرا﴾[8] ، ، أي: تُلقي الذِّكر على الأنبياء لأجل الإعذار – وهو قطع العذر بالتبليغ – ، أو الإنذار.

ومثل ميكائيلَ الموكَـلُ بالقطْرِ ، أي بإنزال المطر.[9]

---

[1] «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٠ – ٩١ ، بتصرف يسير.

[2] سورة التكوير: ١٩ – ٢٠ .

[3] سورة التكوير: ٢١ .

[4] سورة التكوير: ٥ – ٦ .

[5] انظر «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان» للشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي.

[6] (١٢٩/٢) ، تحقيق الفقي.

[7] سورة الصافات: ٣ .

[8] سورة المرسلات: ٥ – ٦ .

[9] رواه النسائي في «الكبرى» ، كتاب عشرة النساء ، باب كيف تؤنث المرأة ، (٩٠٢٤) ، وأحمد (٢٧٤/١) ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وحسنه الشيخ مقبل الوادعي بمجموع طرقه كما في تحقيقه لتفسير ابن كثير (٢٤٢/١) ، وكذا محققو «المسند».

ومثل المَلَكِ الموكَلُ بالنفخِ في الصُّور[1] ، والمشهور أن اسمه إسرافيل[2] ، والصُّور قرنٌ يُنفخُ فيه كما جاء في الحديث[3] ، وذلك عند قيام الساعة وبعث الخلق.

وهؤلاء الثلاثة هم أعظم الملائكة.

وقد كان النبي ﷺ عند افتتاح صلاة الليل يتوسل بربوبية الله على هؤلاء الملائكة أن يهديه لما اختلف من الحق بإذنه ، فعن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن بن عوف قال: سألتُ عائشة أم المؤمنين: بأيِّ كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟

قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته:

اللهم ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيل ، فاطرَ السماوات والأرض ، عالمَ الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.[4]

وهؤلاء الملائكة مُوكَلون بما فيه حياة ، فجبريل مُوكَلٌ بالوحي الذي فيه حياة القلوب ، وميكائيل مُوكَلٌ بالقطر الذي في حياة الأرض ، وإسرافيل مُوكَلٌ بالنفخ في الصور ، وعنده تكون حياة الأجساد يوم المعاد.

---

[1] روى الترمذي (٣٢٤٣) وأحمد (٧/٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال: كيف أنعم وقد التقم صاحب القَرن القَرن ، وحنى جبهته ، وأصغى سمعه ، ينتظر أن يؤمر فينفُخ؟

قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟

قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل ، توكلنا على الله ربنا ، وربما قال سفيان: على الله توكلنا.

قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وصححه الألباني كما في الصحيحة (١٠٧٩) ، وكذا محققو «المسند».

[2] جزم به ابن جرير رحمه الله كما في تفسير آية الزمَر ﴿ونفخ في الصور فصعق من السماوات ومن في الأرض﴾ (الآية: ٦٨).

وانظر كلام علماء التفسير عند هذه الآية ، وكذا عند قوله تعالى ﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾ (الأنعام: ٧٣).

وقد ورد أن إسرافيل أحد حملة العرش ، كما روى ذلك أبو الشيخ في كتاب «العظَمة» (برقم ٢٨٨ ، ٤٧٧) بلفظ: «إن ملكا من حملة العرش يقال له إسرافيل ...» ، ولكنه ضعيف الإسناد كما قال ذلك محقق الكتاب رضا الله المباركفوري ، الناشر: دار العاصمة – الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ..

[3] روى أبو داود (٤٧٤٢) والترمذي (٣٢٤٤) واللفظ له عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال أعرابي: يا رسول الله ، ما الصور؟ قال: قَرنٌ يُنفخُ فيه.

وصححه الألباني كما في «الصحيحة» (١٠٨٠).

[4] رواه مسلم (٧٧٠).

ومن الملائكة أيضا مَلَكُ الموت ، وهو المُوَكَلُ بقبض الأرواح عند الموت ، قال تعالى ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾.[1]

وملك الموت له أعوان من الملائكة ، قال الله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ والملائكة بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[2] ، وقال تعالى ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يُفَرِّطون﴾.[3]

ومعنى يُفرِّطون أي يُضَيِّعون ، أي لا يُضَيِّعون ما وُكِلَ إليهم من مهام.

روى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس في هذه الآية قال: إن لملك الموت أعوانا من الملائكة.

ومنهم الملائكة السياحون في الأرض ، يلتمسون حِلَقَ الذِّكر ، فإذا وجدوا حَلْقَةَ علمٍ وذكرٍ تنادَوا وجلسوا وحَفُّوا أصحاب الحلْقةِ بأجنحتهم إلى السماء الدنيا.[4]

ومنهم الملائكة المُوكَلون بالأجِنَّة في الأرحام إذا تمَّ للإنسان أربعةُ أشهرٍ في بطن أمه ، فعندئذ يُرسل الله إليه مَلَكًا ، ويأمرهُ بِكَتْبِ رزقِهِ وأجلِه وعملِه ، وشقي هو أم سعيد.[5]

ومنهم الملائكة المُوكَلون بحفظ أعمال بني آدم وكتابتها ، لكل شخص ملكان ، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، كما قال تعالى ﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾[6] ، وقال تعالى ﴿وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾[7].

---

[1] ومن الأخطاء الشائعة تسمية ملَكَ الموت بعزرائيل ، وهذه التسمية لم تثبت لا في الكتاب ولا في السنة ، بل الذي ثبت هو تسميته بملك الموت ، كما في سورة قوله تعالى في سورة السجدة ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ ، فالواجب أن نقف عند كلام الله ولا نتعداه.

انظر للفائدة تفصيلات أخرى في «شرح العقيدة الواسطية» للشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله (٦٠/١) وما بعده.

[2] سورة الأنعام: ٩٣ .

[3] سورة الأنعام: ٦١ .

[4] انظر صحيح البخاري (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩).

[5] انظر ما رواه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

[6] سورة ق: ١٧ – ١٨ .

روى ابن جرير في «تفسيره» عن مجاهد قال: ملك عن يمينه ، وآخر عن يساره ، فأما الذي عن يمينه فيكتب الخير ، وأما الذي عن شماله فيكتب الشر.

وقد صحح الشيخ د. حكمت بشير ياسين إسناد هذا الأثر عن مجاهد كما في «التفسير الصحيح ، موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور» (٣٧٨/٤) ، ط ١ ، الناشر: دار المآثر – المدينة.

[7] سورة الانفطار: ١٠-١٢ .

ومنهم الملائكة المُوكَلون بسؤال الميت إذا وضع في قبره ، ويسألانه عن ربه ودينه ونبيه.[١]

ومنهم الملائكة المُوكَلون بخدمة أهل الجنة ، وهم خزنتها أي المؤتمنون عليها ، قال تعالى في أهل الجنة ﴿وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم من كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[٢].

ومنهم الملائكة المُوكَلون بالنار ، ورئيسهم هو مالك ، خازن النار ، أي المؤتمن عليها ، قال تعالى على لسان أصحاب النار ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾[٣].

ومن الملائكة مَلَكَ الجبال ، الذي أتى النبي ﷺ بعدما لاقى من قومه ما لاقى ، فقال له: إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبين[٤].

فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله تعالى من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئا.[٥]

ومنهم الملائكة الزاجرات للسحاب ، تسوقه إلى حيث يريد الله تعالى ، قال تعالى ﴿فالزاجرات زجرا﴾[٦].

فالحاصل أن الملائكة تقوم بأمر الله الذي وَكَلَها به بحسبها لتدبير أمور الكون ، قال ابن تيمية في «الفتاوى»: وأما قوله تعالى ﴿فالمدبرات أمرا﴾[٧] ؛ فالمدبرات هي الملائكة.[٨]

بل قد حكى رحمه الله اتفاق السَّلف وغيرهم من علماء المسلمين على أن المقصود بقوله تعالى ﴿فالمدبرات أمرا﴾ ، ﴿فالمُقسِّمات أمرا﴾[٩] هم الملائكة.[١٠]

والملائكة خلق كثير ، لا يحصيهم إلا الله تعالى ، قال تعالى ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾[١١].

---

[١] انظر حديث أنس بن مالك الذي رواه البخاري (١٣٧٤).

فائدة: جاء تسميتهما بـ «المنكر والنكير» في حديث رواه الترمذي (١٠٧١) ، وصححه الألباني كما في «السلسلة الصحيحة» (١٣٩١) ، وليس في هذه التسمية نكارة ، فإنهما منكران من جهة أن الميت لا يعرفهما ، وقد قال إبراهيم للملائكة ﴿قوم منكرون﴾ ، الذاريات: ٢٥ ، قاله الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في شرحه على «العقيدة الواسطية».

[٢] سورة الرعد: ٢٣- ٢٤ .

[٣] سورة الزخرف: ٧٧ .

[٤] الأخشبان جبلان عظيمان بمكة.

[٥] رواه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥) عن عائشة رضي الله عنها.

[٦] سورة الصافات: ٢ .

[٧] سورة النازعات: ٥ .

[٨] (١٧٧/٣٥).

[٩] سورة الذاريات: ٤ .

[١٠] «الرد على المنطقيين» ، ص ٥١٦ ، الناشر: مؤسسة الريان – بيروت.

[١١] سورة المدثر: ٣١ .

وقد سمَّى الله تعالى الملائكةَ رُسُلا ، لأنها تقوم بما أرسلها الله به من وظائف ، قال تعالى في سورة فاطر ﴿الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة **رسلا** أولي أجنحة﴾[1] ، فالملائكة مرسلة بالوحي وقبض الأرواح وتسخير الرِّياح والسَّحاب – أي سَوْقها – وكَتْبِ أعمالِ بني آدم وغير ذلك.

قال الشنقيطي رحمه الله:

الملائكة يُرسلون إلى الرسل ، والرسل تُرسل إلى الناس ، والذي أنكره الكفار هو إرسال الرسل إلى الناس ، وهو الذي حصر الله فيه الرسل في الرجال من الناس ، فلا ينافي إرسال الملائكة للرُّسل بالوحي ولقبض الأرواح وتسخير الرِّياح والسَّحاب وكَتْبِ أعمال بني آدم وغير ذلك ، كما قال تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾.[2]

ولعظم شأن الملائكة وما تقوم به ؛ أقسم الله بهم فقال ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ ، فدل هذا على شرفهم.

قال ابن تيمية رحمه الله: وأما الملائكة فأمرهم أجَلُّ ، وهم رُسُلُ الله في تدبير العالم ، كما قال تعالى ﴿فالمدبرات أمرا﴾ ، وقال ﴿فالمقسمات أمرا﴾ ، وقد ذكر الله تعالى في كتبه من أخبارهم وأصنافهم ما يطول وصفه ، وآثارهم موجودة في العالم.[3]

ومن الملائكة من هم قائمون بعبادة الله على الدوام ، كما قال النبي ﷺ : أطَّت[4] السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملَكٌ واضعٌ جبهته ساجدا لله.[5]

فتأمل أيها المؤمن كيف أن السماء على سعتها فإنها تضيق بالعُبَّاد من الملائكة ، فسبحان الله العظيم.[6]

والإيمان بالملائكة يثمرُ ثمرات جليلة منها[7]:

أولا: العلم بعظمة الله تعالى وقوته وسلطانه ، فإن عظمة المخلوق تدل على عظمة الخالق سبحانه.

---

[1] سورة فاطر: ١ .

[2] «أضواء البيان» ، تفسير سورة النحل: ٤٣ .

[3] «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٦/٢٥-٢٦).

[4] الأطيط هو صوت الأقتاب ، وهو ما يوضع على ظهور الإبل من الخشب ونحوه ليكون كالكرسي للراكب ، والمعنى أن كثرة الملائكة قد أثقل السماء حتى أطَّت. انظر «النهاية».

[5] رواه الترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠) وأحمد (١٧٣٩٥) ، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٢) وكذا محققو «المسند».

[6] وانظر للمزيد من الاستفادة المراجع التالية:

١. ما قاله ابن أبي العز الحنفي في كتابه «شرح العقيدة الطحاوية» في الإيمان بالملائكة ، ص ٢٩٩ – ٣٠١ ، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت.

٢. ما قاله ابن القيم رحمه الله في «روضة المحبين» (١/٧٣ – ٧٥) ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت.

٣. ما قاله الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله في أول تفسير سورة النازعات.

[7] هذا الفصل منقول من «شرح الأصول الثلاثة» لابن عثيمين ، ص ٩٢ ، بتصرف يسير.

ثانيا: شكر الله تعالى على عنايته ببني آدم ، حيث وَكَّلَ من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم وكتابة أعمالهم وغير ذلك من مصالحهم.

ثالثا: محبة الملائكة على ما قاموا به من عبادة الله تعالى.

فصل في الرد على بعض من ضل في باب الإيمان بالملائكة

وقد أنكر قومٌ من الزائغين كَوْنَ الملائكةِ أجسامًا ، وقالوا إنهم عبارة عن قُوى الخير الكامنة في المخلوقات[1] ، وهذا تكذيب لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، والتي تدل على أن الملائكة أجساما مادية ولكنا لا نراها ، وليست قوى معنوية كما يزعمون.

والذي دعاهم لإنكارها إعجابهم بعقولهم التي لا تؤمن إلا بالمحسوس ، وعدم إيمانهم بالغيب الذي جاء به الكتاب والسنة ، فهم كما قال الله تعالى ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾[2].

والدليل على أن الملائكة أجسام مادية ما ذكره الله في كتابه أن لها أجنحة يختلف عددها باختلاف نوع الملك ، قال الله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلآئِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ ، وقال ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾[3].

ورأى النبي ﷺ جبريل على صورته التي خلق عليها ، له ست مئة جناح ، قد سد الأفق.

ومما يدل على أن الملائكة أجساما أنها تتكلم وتفعل ، وتحب وتكره ، وتدخل وتكتب ، وتُؤمر وتُنهى ، وغير ذلك من الأعمال ، قال تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُم﴾[4] ، وقال ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[5] ، وقال في أهل الجنة ﴿وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم من كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[6].

---

[1] وممن قال بذلك محمد عبده وتلامذته كالشيخ محمد رشيد رضا والمراغي وغيرهم.

انظر «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» للدكتور فهد الرومي ، (ص: ٦٢٠ – ٦٣٠) ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ .

[2] سورة يونس: ٣٩ .

[3] سورة الأنفال: ٥٠ .

[4] سورة الأنعام: ٩٣ .

[5] سورة سبأ: ٢٣ .

[6] سورة الرعد: ٢٣-٢٤ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال: إذا أحب الله العبد نادى جبريل: (إن الله يحب فلانًا فأحِبَّهْ) ، فيحبه جبريل ، فينادي جبريل في أهل السماء: (إن الله يحب فلانا فأحبوه) ، فيحبُّه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض).[1]

زاد مسلم: وإذا أبغض الله عبدا دعا جبرئيل فيقول: إني أبغض فلانا فأبغضه ، فيبغضه جبرئيل ، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانا فأبغِضوه. قال: فيُبغضونه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض.

ولهما عنه قال: قال النبي ﷺ : إذا كان يوم الجُمُعَة ؛ كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكةٌ يكتبون الأول فالأول ، فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاؤوا يستمِعون الذِّكر.[2]

وهذه نصوص صريحة في أن الملائكة أجسام مادية ، لا قوى معنوية أو مجرد أرواح كما قال الزائغون ، وعلى مقتضى هذه النصوص أجمع المسلمون.[3]

---

[1] رواه البخاري (٣٢٠٩) ، ومسلم (٢٦٣٧).

[2] رواه البخاري (٣٢١١) ، ومسلم (٨٥٠).

[3] انظر «شرح ثلاثة الأصول» ، ص ٩٣ – ٩٤ .

الركن الثالث: الإيمان بالكتب

الكتب جمع كتاب ، والكتاب بمعنى (مكتوب) ، والمراد بالكتب هنا الكتب التي أنزلها تعالى على رسله رحمة للخلق ، وهداية لهم ، ليصلوا بها إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.[1]

وقد أرسل الله مع كل رسول كتابا ، قال تعالى ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان﴾[2].

كما أوجب الله تعالى الإيمان بجميع الكتب المنزلة ، قال تعالى ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾[3].

والمقصود بالإيمان بالكتب في الآية هو الإيمان بها على وجهها الذي أنزلت به على الأنبياء قبل التحريف ، وإلا فمن المعلوم أن جميع الكتب المنزلة قد أصابها التحريف والتبديل إلا القرآن ، قال تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[4].

فصل في بيان ما يتضمنه الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب يتضمن خمسة أمور[5] ، نذكرها على سبيل الإجمال ثم نفصل القول فيها:

الأول: الإيمان بأنها أُنزلت من عند الله حقاً.

الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها.

الثالث: تصديق ما صحَّ من أخبارها.

الرابع: العمل بأحكام ما لم يُنسخ منها.

الخامس: الإيمان بأنها تدعو إلى عقيدة واحدة وهي التوحيد.

---

[1] انظر «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٤ .

[2] سورة الحديد: ٢٥ .

[3] سورة البقرة: ١٣٦ .

[4] سورة الحجر: ٩ .

[5] يراجع «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين رحمه الله ، ص ٩٤ ، فقد ذكر الشيخ أربعة أمور ، ومنَّ الله بواحدة.

تفصيل

الأول: الإيمان بأنها أُنزلت من عند الله حقاً ، كما قال تعالى في وصف المؤمنين ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ ، وقال تعالى ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾[1].

وإنزال الكتب كان من طريق الوحي ، فقد أوحى الله بالكتب إلى الملك المختص بإنزال الوحي من السماء إلى الأنبياء ، وهو جبريل ، ثم قرأها جبريل على الأنبياء فحفظوها ، ثم كل نبي يقرأ كتابه على القوم المُرسل إليهم.

نبذة عن إنزال القرآن

جبريل رسولٌ ملَك ، ومحمَّدٌ رسولٌ بشر ، والله يصطفي من الملائكة رسلاً لأداء مهام معينة ، ويصطفي من الناس رسلا لأداء مهمة تبليغ الرسالة ، فاصطفى لنقل كلامه (القرآن) الرسول المَلائكي وهو جبريل ، واصطفى لنقل القرآن الذي يحمل رسالة الإسلام رسوله البشري وهو محمد ﷺ ، فنزل الرسول المَلَائكي بالقرآن على الرسول البشري ولقنه إياه أجزاءً على مدى ثلاث وعشرين سنة ، بحسب الأحداث.

واختيار الله تعالى لجبريل عليه السلام دون غيره من الملائكة للقيام بهذه المهمة إنما هو لما فيه من صفات القوة والأمانة وغيرهما ، وقد وصفه الله بذلك في القرآن ، فقال ﴿نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين﴾ ، وقوله ﴿نزل به﴾ أي نزل بالقرآن.

الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها ، وهي ستة ، صحف إبراهيم وموسى ، والتوراة التي أُنزلت على موسى ﷺ ، والإنجيل الذي أُنزل على عيسى ﷺ ، والزبور الذي أُوتيه داود ﷺ ، والقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ، وبعض العلماء يقول إن صحف موسى هي التوراة فتكون خمسة.

وأما ما لم يأت ذكر اسمه من تلك الكتب فنؤمن به إجمالاً.

والذي ينبغي على المؤمن الإيمان به هو الإيمان بالكتب الأصلية التي أنزلها الله على أنبياءه ، وليس بما تحرف منها ، فنؤمن مثلا بالتوراة التي أنزلها الله على موسى ﷺ ، ونؤمن بالإنجيل الذي أنزله الله على المسيح عيسى ابن مريم ﷺ ، فتلك هي التوراة وذلك هو الإنجيل ، وليست الكتب المنتشرة الآن في أيدي اليهود والنصارى هي التوراة والإنجيل الأصليين وإن سَمَّوها بذلك ، بل الذي بيد النصارى الآن هي أربعة

[1] سورة البقرة: ١٣٦ .

أناجيل وثلاثة وعشرون رسالة ، وهي أسفار تمت كتابتها من قِبَل أشخاص لم يثبت أنهم التقوا بالمسيح ورأوه لحظة واحدة ، بل كتبوها بعد رفعه إلى السماء ، وبينها من التناقض والاختلاف الشيء الكثير ...

وإذا أُضيفت أسفار العهد القديم الستة وأربعون (المكونة من التوراة وغيرها) إلى أسفار العهد الجديد (الإنجيل) السبعة وعشرين صار مجموع الأسفار ثلاثة وسبعين ، يؤمن البروتستانت بستة وستين منها ، ولا يؤمنون بالبقية ، بينما يؤمن الأرثوذكس والكاثوليك بها كلها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما الإنجيل الذي بأيديهم فهم معترفون بأنه لم يكتبه المسيح عليه السلام ، ولا أملاه على من كتبه ، وإنما أملوه بعد رفع المسيح «متى» و «لوقا»، وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح وبعض أخباره ، وأنهم لم يستوعبوا ذِكر أقواله وأفعاله.[1]

وقال أيضا: هذه المقالات الأربعة التي يسمونها الإنجيل – وقد يسمون كل واحد منهم إنجيلا – إنما كتبها هؤلاء بعد أن رُفع المسيح ، فلم يذكروا فيها أنها كلام الله ، ولا أن المسيح بلَّغها عن الله ، بل نقلوا فيها أشياء من كلام المسيح ، وأشياء من أفعاله ومعجزاته ، وذكروا أنهم لم ينقلوا كل ما سمعوه منه ورأوه.[2]

فالحاصل أن الله أمر بالإيمان بالكتب **الأصلية** التي أنزلها الله على أنبياءه ، وتلك هي التي وصفها الله بأنها هدى ونور ، قال الله في القرآن عن التوراة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ ، وقال في القرآن عن الإنجيل ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

ولما تعرضت كتب الأنبياء للضياع ولم تحفظ ، أرسل الله نبيه محمدا ﷺ بالقرآن ، وحفِظه من التحريف والضياع كما قال تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذِّكر وإنا له لحافظون﴾ ، والذِّكر هو القرآن.

والقرآن كلام الله ، تكلم الله به حقيقة ، ثم بلَّغه المَلَك جبريل إلى النبي محمد ﷺ ، ثم بلَّغه النبي محمد لأصحابه ، ثم حُفظ في الصدور ، ثم حُفظ في الأوراق والقراطيس ، ثم جُمِع القرآن في كتاب واحد في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ثم نُسِخت النسخ على تلك النسخة إلى يومنا هذا ، وصدق الله ﴿إنا نحن نزلنا الذِّكر وإنا له لحافظون﴾.

الثالث: تصديق ما صحَّ من أخبارها ، كأخبار القرآن ، والأخبار التي لم تُبدل أو تُحرف من الكتب السابقة.

---

[1] باختصار يسير من «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (١/٤٩١) ، الناشر: دار الفضيلة – الرياض.

[2] «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٢/١٤).

الرابع: العمل بأحكام ما لم يُنسخ منها ، عملا بقول الله تعالى ﴿يريد الله ليبين لكم **ويهديكم سنن الذين من قبلكم** ويتوب عليكم﴾[1] ، وقوله تعالى ﴿أولئك الذين هدى الله **فبهداهم اقتده**﴾[2].

فإن قيل: فما الجمع بين التوجيه القرآني بالاقتداء بهدي الأنبياء السابقين وبين قول الله تعالى ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾[3]؟

فالجواب على قولين:

الأول: أن الاقتداء المقصود هو الاقتداء بالأمور التي اتفقت الشرائع عليها لا كل مفردات الشرائع مما سيأتي ذكره قريبا إن شاء الله ، ودليل التخصيص قوله تعالى ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾.

الثاني: أن يكون المقصود بالاقتداء بشرائع من قبلنا هو العمل بما لم يُنسخ منها مما هو من الأمور الفرعية ، ومن ذلك ما رواه البخاري في «صحيحه» عن العوَّام قال: سألت مجاهدا عن سجدة «ص»[4] فقال: سألت ابن عباس: من أين سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ ﴿ومن ذريته داود وسليمان ... أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ ، فكان داود ممن أُمِر نبيكم ﷺ أن يَقتدي به ، فسجدها داود فسجدها رسول الله ﷺ .[5]

قال الشوكاني رحمه الله[6]: وقد فصَّل بعضهم تفصيلا حسنا فقال: إنه إذا بلغنا شرع من قبلنا على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو لسان من أسلم كعبد الله بن سلام و كعب الأحبار ولم يكن منسوخا ولا مخصوصا ؛ فإنه شرع لنا ، وممن ذكر هذا القرطبي.[7]

وبناء على هذا ؛ فلا يجوز العمل بأي حكم من الأحكام الواردة في الكتب السابقة إلا ما صح منها وأَقَـرَّهُ القرآن أو السنة الصحيحة.[1]

---

[1] سورة النساء: ٢٦ .

[2] سورة الأنعام: ٩٠ .

[3] سورة المائدة: ٤٨ .

[4] أي السجود عند قوله تعالى ﴿وظن داود أنما فتناه فخر راكعا وأناب﴾.

[5] رواه البخاري (٤٨٠٧).

[6] هو الشيخ الفقيه الأصولي محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، اليمني ، درس على شيوخ كثر في فنون كثيرة ، وألف كتبا كثيرة منها «إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول» ، وطُبع له مجموع فتاوى بعنوان «الفتح الرباني في فتاوى الشوكاني» ، وفي التفسير له كتاب «فتح القدير» ، ورد على أرباب القول باتحاد الخالق والمخلوق في كتاب «الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد» ، وغيرها من الكتب والرسائل التي بلغت ١١٤ مؤلفا ، توفي رحمه الله سنة ١٢٥٠ . انظر ترجمته لنفسه في «البدر الطالع» ، وانظر «الأعلام» للزركلي (٢٩٨/٦).

[7] «إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول» (٩٨٥/٢) تحقيق: سامي بن العربي الأثري ، الناشر: دار الفضيلة – الرياض.

فائدة

وللعلم ؛ فإن القرآن حاكمٌ ومهيمنٌ على جميع الكتب السابقة ، فهي منسوخة به على وجه الإجمال ، ويستثنى من ذلك العقائد وما أقره القرآن والسنة من الشرائع كما تقدم ، قال تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[٢] ، أي حاكمًا عليه.

قال ابن تيمية رحمه الله:

فالسلف كلهم متفقون على أن القرآن هو المهيمن المؤتَمَن الشاهد على ما بين يديه من الكتب ، ومعلوم أن المهيمن على الشيء أعلى منه مرتبة ، ومن أسماء الله (المهيمن) ، ويسمى الحاكم على الناس ، القائم بأمورهم ؛ (المهيمن) ، قال المبرد والجوهري وغيرهما: المهيمن في اللغة ؛ المؤتمن.

وقال الخليل: الرقيب الحافظ.

وقال الخطابي: المهيمن ؛ الشهيد.

قال: وقال بعض أهل اللغة: الهيمنة ؛ القيام على الشيء والرعاية له ...

وهكذا القرآن ؛ فإنه قرر ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر ، وزاد ذلك بيانا وتفصيلا ، وبَيَّن الأدلة والبراهين على ذلك ، وقَرَّر نبوة الأنبياء كلهم ، ورسالة المرسلين ، وقرَّر الشرائعَ الكلية التي بُعثت بها الرسل كلهم ، وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين ، وبَيَّن عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتبعين لها ، وبَيَّن ما حُرِّف منها وبُدِّل ، وما فَعله أهلُ الكتابِ في الكتب المتقدمة ، وبَيَّن أيضا ما كتموه مما أمر الله ببيانه ، وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن ، فصارت له الهيمنة على ما بين يديه من الكتب من وجوه متعددة ، فهو شاهد بصدقها وشاهد بكذب ما حُرِّف منها ، وهو حاكم بإقرار ما أقره الله ، ونسخ ما نسخه الله ، فهو شاهد في الخبريات ، حاكم في الأمريات.

وكذلك معنى الشهادة والحَكَم ؛ يتضمن إثبات ما أثبته الله من صِدْقٍ ومُحكَم ، وإبطال ما أبطله من كَذِبٍ ومنسوخ ، وليس الإنجيل مع التوراة ولا الزبور بهذه المثابة ، بل هي متبعة لشريعة التوراة إلا يسيراً نسخه الله بالإنجيل ، بخلاف القرآن.

---

[١] يراجع للفائدة كلام الشنقيطي رحه الله في هذا الموضوع في تفسيره «أضواء البيان» (٨١/٢) ، عند تفسير قول الله تعالى في سورة المائدة ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض﴾ من قوله: وحاصل تحرير المقام في مسألة «شرع من قبلنا».

[٢] سورة المائدة: ٤٨ .

ثم إنه مُعجزٌ في نفسِهِ ، لا يَقدِرُ الخلائق أن يأتوا بمثله ، ففيه دعوة الرسول ، وهو آية الرسول وبرهانه على صدقه ونبوته ، وفيه ما جاء به الرسول ، وهو نفسه برهان على ما جاء به.

وفيه أيضا من ضربِ الأمثالِ وبيانِ الآياتِ على تفضيل ما جاء به الرسول ما لو جُمع إليه علوم جميع العلماء لم يكن ما عندهم إلا بعض ما في القرآن ، ومن تأمل ما تكلَّم به الأولون والآخِرون في أصول الدين والعلوم الإلٰهية وأمور المعاد والنبوات والأخلاق والسياسات والعبادات وسائر ما فيه كمال النفوس وصلاحها وسعادتها ونجاتها ؛ لم يجد عند الأولين والآخرين من أهل النبوات ومن أهل الرأي – كالمتفلسفة وغيرهم – إلا بعض ما جاء به القرآن ، ولهذا لم تحتَج الأمة مع رسولها وكتابها إلى نبي آخر وكتاب آخر فضلا عن أن تحتاج إلى شيء لا يستقل بنفسه غيره[1] ، سواء كان من عِلم المحدَّثين والملهمين ، أو من علم أرباب النظر والقياس ، الذين لا يعتصمون مع ذلك بكتاب منزل من السماء. انتهى باختصار.[2]

وقال ابن تيمية أيضا: وأما القرآن فإنه مُستَقلٌ بنفسه ، لم يُحْوِجْ أصحابه إلى كتابٍ آخر ، بل اشتمل على جميع ما في الكتب من المحاسن ، وعلى زيادات كثيرة لا توجد في الكتب ، فلهذا كان مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، يقرر ما فيها من الحق ويُبطل ما حُرِّف منها ، وينسخ ما نسخه الله ، فيقرر الدين الحق ، وهو جمهور ما فيها[3] ، ويُبطل الدين المبدل الذي لم يكن فيها ، والقليل[4] الذي نسخ فيها ، فإن المنسوخ قليل جدا بالنسبة إلى المحكم المقرر. انتهى.[5]

قلت: ولما كان القرآن لا يصير منسوخا كله ، ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف ؛ صار مهيمناً على الكتب السابقة.

وقال ابن كثير رحمه الله في معنى وصف القرآن بالمهيمن: فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله ، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها ، وأشملها وأعظمها وأحكمُها ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ، فلهذا جعله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها ، وتكفَّل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة ، فقال تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.[6]

---

[1] هكذا في المطبوع ، وأظنه خطأ مطبعي ، وصوابه: أو بغيره.

[2] «مجموع الفتاوى» (١٧/٤٣ – ٤٥).

[3] أي: هو غالب ما فيها.

[4] أي وينسخ القليل .

[5] «مجموع الفتاوى» (١٩/١٨٤ – ١٨٥).

[6] انظر «تفسير القرآن العظيم» ، سورة المائدة ، الآية ٤٨ .

الخامس مما يتضمنه الإيمان بالكتب: الإيمان بأنها تدعو إلى عقيدة واحدة وهي التوحيد بأنواعه الثلاثة ، توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

وأما الأحكام الشرعية التفصيلية فقد تتفق فيها الكتب من جهة العموم وتختلف من جهة التفصيل ، بحسب ما تقتضيه حكمة الله واختياره لما يناسب عباده الذين وُضِعت لهم تلك الشريعة ، كما قال تعالى ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾ ، وقال تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

فالأمر بالصلاة والصوم – مثلا – ثابت في جميع الشرائع ، ولكن كيفية الصلاة والصوم تختلف من شريعة لأخرى.

وكذلك الطيبات من الأطعمة – كمثال آخر – ، فإن الله قد أحلها لأمة محمد ﷺ ، في حين أنه حرَّم بعض الطيبات على بني إسرائيل بعدما كانت حلالا لهم ، حكمة منه سبحانه وتعالى واختيارا ، قال تعالى ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا﴾.

وإلى هذا الاتفاق والاختلاف في الشرائع أشار النبي ﷺ بقوله: والأنبياء إخوةٌ لِعَلاَّت ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد.[1]

فقوله (إخوةٌ لِعَلاَّت): كلمة (علاَّت) جمع (عَلَّة) ، وهي الضَّرَّة ، وهي المرأة يكون لزوجها امرأة أخرى ، وفي هذا الحديث شبَّهَ النبي ﷺ الأنبياء بالأبناء من أب واحد وأمهات شتى ، فالأمهات هن الشرائع وفيها يحصل الاختلاف ، والأب هو أصل الدين وهو عبادة الله وحده ، والدليل على هذا قول الله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ ، وقال ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ ، وقال الله لنبيه محمدا ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمٰن آلهة يُعبدون﴾.

وسيأتي قريبا إن شاء الله مزيد تفصيل لمواطن اتفاق الكتب السماوية واختلافها.

فصل في بيان أعظم الكتب

وأعظم الكتب هي القرآن والتوراة والإنجيل ، وكثيرا ما يجيء ذكرها في القرآن ، وكثيرا ما يقرن الله في القرآن بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﷺ ، وبين كتابيهما وشريعتيهما ، لأن كتابيهما أفضل الكتب ، وشريعتيهما أكمل الشرائع ، ونبوتيهما أعلى النبوات ، وأتباعهما أكثر المؤمنين.[2]

---

[1] رواه البخاري (٣٤٤٣) ومسلم (٢٣٦٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] قاله الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله في تفسيره في مقدمة تفسير سورة الإسراء.

وأعظم الكتب الثلاثة هو القرآن بلا شك ، ولهذا جعله الله مهيمنا على كل الكتب السماوية قبله كما تقدم ، وفيه من الإعجاز ما ليس في غيره من الكتب ، وسيأتي ذكر وجوه إعجاز القرآن الكريم في خاتمة مبحث الإيمان بالرسل لكونه من معجزات النبي محمد ﷺ .

فائدة في ميزة التوراة على الإنجيل

قال ابن كثير رحمه الله في خاتمة تفسير سورة الأحقاف ما محصَّلُهُ أن الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم ، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة ، فالعمدة هو التوراة ، فلهذا قالت الجن عن القرآن إنه أُنزِل من بعد موسى ولم تقل إنه أنزل من بعد عيسى ، لأن التوراة التي أنزِلت على موسى هي الأصل.

فالحاصل أن العمدة في شريعة بني إسرائيل هو التوراة ، والإنجيل متمم له.

فصل في بيان مواطن اتفاق الكتب السماوية ومواطن اختلافها

الكتب السماوية قاطبة متفقة على أمور ومختلفة في أمور ، فأما مواطن الاتفاق فستة:

الأول: أن جميع الكتب دعت الى شيء واحد وهو عبادة الله وحده وترك عبادة من سواه ، سواء كانوا أصناما أو أشخاصا أو أنبياءً أو أحجارا أو غيرها.

فدين الأنبياء واحد بهذا الاعتبار ، وهو عبادة الله وحده.

الثاني: تتفق الكتب السماوية على وجوب الإيمان بأصول العقيدة ، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

الثالث: تتفق الكتب السماوية على وجوب التَّعبدُ للهِ تعالى بعبادات معينة ، وقد تشترك بعض الأمم في عبادات معينة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، ولكن تلك العبادات تختلف عن بعضها في كيفية أدائها بحسب الناس الذين بُعِث إليهم ذلك النبي ، فبني إسرائيل مثلا أمرهم النبي موسى بالصلاة ، ثم لما بعث الله نبيه عيسى أمرهم بالصلاة أيضا ، ثم لما أرسل الله نبيه محمدا أمر الناس بالصلاة ، لكن كيفية الصلاة وتوقيتها يختلف من شريعة موسى إلى شريعة عيسى إلى شريعة محمد ، ولكنها في النهاية تشترك في كونها عبادة لله وحده ، ينبغي أن تؤدى على نحو ما ، بينه ذلك النبي لأتباعه.

ونفس الشيء يقال بالنسبة لعبادة الصوم وغيرها من العبادات.

قال تعالى مبينا اشتراك بعض الأمم في الصلاة والزكاة ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾[1] ، وقال تعالى في الصوم ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾[2] ، وقال لإبراهيم كما في سورة الحج ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا﴾[3].

الرابع: اتفاقها على الأمر بالعدلِ والقِسطِ ، قال تعالى ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[4].

والأمر بالعدل مذكور في شريعة موسى وإبراهيم ، ومن أمثلة ذلك ألا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، قال تعالى ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفّى * ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾[5].

الخامس: اتفاقها على الأمر بحفظ الضروريات الخمس ، وهي الدين والعقل والمال والعرض والنفس.

السادس: اتفاقها على الأمر بمحاسن الأخلاق والنهي عن قبيحها ، فتأمر مثلا ببر الوالدين وصلة الأرحام وإكرام الضيف والعطف على الفقراء والمساكين والقول الحسن ونحو ذلك ، كما أنها تنهى عن القبائح ، كالظلم والعدوان وعقوق الوالدين وانتهاك الأعراض والغيبة والكذب والسَّرقة وغير ذلك.

وأما مواطن الاختلاف بين الشرائع السماوية ففي أمرين ، وهذا الاختلاف من حكمة الله تعالى ليكون لكل أمة من الشرائع ما يناسب طبيعتها ، قال تعالى ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾[6] ، وموطِنا الاختلاف هما:

الأول: كيفية العبادات المشتركة بين الشرائع ، فالصلاة كانت مفروضة في شريعة عيسى ، ولكنها تختلف في كيفيتها عن الصلاة المفروضة في شريعة محمد ﷺ ، وربما تتفق معها في بعض صورها ، كما قال النبي ﷺ : إنا معاشر الأنبياء أُمِرْنا أن نُعجِّل إفطارنا ، ونؤخِّر سحورنا ، ونضع أيماننا على شمائلنا في الصلاة.[7]

---

[1] سورة الأنبياء: ٧٣ .

[2] سورة البقرة: ١٨٣ .

[3] سورة الحج: ٢٧ .

[4] سورة الحديد: ٢٥ .

[5] سورة النجم: ٣٦ – ٣٨ .

[6] سورة المائدة: ٤٨ .

[7] رواه البيهقي (٢٣٨/٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأشار إلى ثبوته الألباني في «الصحيحة» (٣٧٥/٤).

وكذلك الصوم المفروض في شريعة من قبلنا ؛ تختلف كيفيته عن الصوم في شريعة محمد ﷺ ، فقد كان الإمساك في شريعة من قبلنا يبدأ إذا استيقظ الإنسان من نومه إذا نام في أي وقت من الليل ، أوله أو وسطه أو آخره ، ويمتد ذلك الإمساك إلى مغرب الليلة القابلة ، ثم جعل الله ابتداء الإمساك في شريعة محمد ﷺ عند طلوع الفجر ، بدون اعتبار للنوم قبله ، وهذا من حكمة الله تعالى وتيسيره على هذه الأمة.

الثاني: الاختلاف في تشريع بعض الأحكام ، فقد يُحِل الله طعاما لأمة ، ويُحرِّمه على آخرين لحكمة يعلمها الله عز وجل ، قد نعلمها وقد لا نعلمها ، كما حرم الله على اليهود أنواعا من الأطعمة ، قال تعالى ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾[1].

ثم في شريعة عيسى ﷺ أُحِلَّت تلك الأطعمة ، فقد قال عيسى لقومه ﴿ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾[2].

ثم جاءت شريعة محمد ﷺ ، فأَحلَّت الطيبات كافة وحَرَّمتِ الخبائث كافة.

الحكمة من إنزال القرآن[3]

بيَّن الله تعالى في كتابه العزيز الحكمة الكبرى من إنزال القرآن في قوله جل وعلا ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾[4] ، وقد بيَّن الله تعالى في آيات أخرى الحكمة من ذلك الإخراج وهي:

الأولى والثانية والثالثة: تدبُّر آياته وتذكُّر أولوا الألباب ومن ثَمَّ حصول التقوى ، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك **ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب**﴾[5] ، وقال تعالى ﴿وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرَّفنا فيه من الوعيد **لعلهم يتقون** أو يحدث لهم ذكرا﴾[6].

الرابعة: البِشارة بالثواب للمتقين والإنذار بالعقاب لمن أعرض عنه ، قال تعالى ﴿فإنما يسرناه بلسانك **لتبشر** به المتقين **وتنذر** به قوما لُـدًّا﴾[7].

---

[1] سورة النساء: ١٤٦ .

[2] سورة آل عمران: ٥٠ .

[3] استفدت هذا الفصل من «أضواء البيان» ، تفسير سورة ص ، قوله تعالى ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾.

[4] سورة إبراهيم: ١ .

[5] سورة ص: ٢٩ .

[6] سورة طه: ١٣٣ .

[7] سورة مريم: ٩٧ .

الخامسة: تبيين الأحكام الشرعية للناس ، قال تعالى ﴿وأنزلنا إليك الذكر **لتبين للناس ما نُزِّل إليهم** ولعلهم يتفكرون﴾[1] ، وقال تعالى ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا **لتبين** لهم الذي اختلفوا فيه﴾[2].

السادسة: تثبيت المؤمنين على الإيمان والهدى ، قال تعالى ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق **ليثبت الذين آمنوا** وهدى وبشرى للمسلمين﴾[3].

السابعة: الحُكم بين الناس به – أي بالقرآن – ، قال تعالى ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق **لتحكم بين الناس** بما أراك الله﴾[4] ، أي: بما علَّمك في هذا القرآن من العلوم.

تَميُّـز القرآن العظيم عن غيره من الكتب السماوية

تميَّـز القرآن بخصائص عدة عن غيره من الكتب السماوية ، نذكر منها ثلاث خصائص:

١. أن فيه تبيانا لكل شيء ، كما قال تعالى ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء﴾[5] ، وكما قال تعالى ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[6]، وقد بين جلال الدين السيوطي[7] رحمه الله ذلك التبيان في مقدمة كتابه «الإكليل في استنباط التنزيل»[8] ، فقال ما ملخصه:

قد اشتمل كتاب الله على كل شيء. أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها.

وفيه علم عجائب المخلوقات، وملكوت السماوات والأرض، وما في الأفق الأعلى، وما تحت الثرى، وبدء الخلق، وأسماء مشاهير الرسل والملائكة، وعيون أخبار الأمم السالفة; كقصة آدم مع إبليس في إخراجه من الجنة، وإغراق قوم نوح، وقصة عاد وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقوم يونس، وإلياس، وأصحاب الرَّس، وقصة موسى في ولادته وفي إلقائه في اليم، وقتلِه القِبطي، ومسيره إلى مدين، وتزوجه ابنة شعيب، وكلام الله تعالى له بجانب الطور، وبعثه إلى فرعون، وخروجه من البحر وإغراق عدوه فرعون، وقصة العجل، وقصة

---

[1] سورة النحل: ٤٤ .

[2] سورة النحل: ٤٦ .

[3] سورة النحل: ١٠٢ .

[4] سورة النساء: ١٠٥ .

[5] سورة النحل: ٨٩ .

[6] سورة الأنعام: ٣٨ .

[7] هو عبد الرحمٰن بن أبي بكر الخضيري السيوطي ، إمام حافظ مؤرخ أديب ، برز في جميع الفنون ، له نحو ٦٠٠ مصنف ، منها في علوم القرآن «الإتقان في علوم القرآن» ، وله في التفسير «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» ، وله في علوم الحديث «ألفية السيوطي في الحديث» ، وله في الحديث «الجامع الكبير» و «الجامع الصغير». توفي عام ٩١١ . انظر ترجمته في «البدر الطالع» للشوكاني ، و«الأعلام» للزركلي.

[8] هو من منشورات دار الأندلس الخضراء بجدة ، بتحقيق: د. عامر بن علي العراقي.

القوم الذين خرج بهم وأخذتهم الصعقة، وقصة القِتال وذبح البقرة، وقصته في قتال الجبارين، وقصته مع الخضر، وقصة طالوت وداود مع جالوت وقتله، وقصة سليمان وخبره مع ملكة سبإ وفتنته، وقصة القوم الذين خرجوا فرارا من الطاعون فأماتهم الله ثم أحياهم، وقصة إبراهيم في مجادلته قومه، ومناظرته النمروذ، ووضعه إسماعيل مع أمه بمكة، وبنائه البيت، وقصة الذَّبيح إسماعيل، وقصة يوسف، وقصة مريم وولادتها عيسى وإرساله ورفعِه، وقصة زكريا وابنه يحيى، وأيوب وذي الكِفل، وقصة ذي القرنين ومسيره إلى مطلع الشمس ومغربها وبنائه السَّد، وقصة أصحاب الكهف والرقيم، وقصة بُختنصر، وقصة الرجلين اللذين لأحدهما الجنة، وقصة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليقطعُنَّ ثمار حديقتهم مبكِّرين في الصباح، فلا يَطْعَم منها غيرهم من المساكين ونحوهم، وقصة مؤمِن آل فرعون، وقصة أصحاب الفيل.

وفيه من شأن النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – دعوة إبراهيم به[1]، وبِشارة عيسى بنبوته[2]، وبَعثِه وهجرته[3].

ومن غزواته: غزوة بدر في «سورة الأنفال»، وأُحُد في «سورة آل عمران»، وغزوة الخندق في «سورة الأحزاب»، والنضير في «سورة الحشر»، والحديبية في «سورة الفتح»، وتبوك في «سورة براءة»، وحجة الوداع في «سورة المائدة»، ونكاحه زينب بنت جحش ، وتظاهُر أزواجه عليه، وقصة الإفك، وقصة الإسراء، وانشقاق القمر، وسِحر اليهود إياه.

وفيه بدء خلق الإنسان إلى موته، وكيفية الموت وقبض الروح وما يُفعل بها بعد صعودها إلى السماء، وفتح الباب للروح مؤمنة وإلقاء الروح الكافرة، وعذاب القبر والسؤال فيه، ومقر الأرواح، وأشراط الساعة الكبرى العشرة، وهي:
نزول عيسى، وخروج الدجال، ويأجوج ومأجوج، والدابة، والدخان، ورفع القرآن، وطلوع الشمس من مغربها، وإغلاق باب التوبة، والخسف.

وأحوال البعث من نفخة الصور، والفزع، والصَّعق، والقيام، والحشر والنشر، وأهوال الموقف، وشدة حر الشمس، وظل العرش، والصراط، والميزان، والحوض، والحساب لقوم، ونجاة آخرين منه، وشهادة الأعضاء، وإيتاء الكُتب بالأيمان والشمائل وخلف الظهور، والشفاعة، والجنة وأبوابها، وما فيها من الأشجار والثمار والأنهار والحُلِي والألوان والدرجات ورؤيته تعالى.

---

[1] أي دعاء النبي إبراهيم – عليه السلام – أن يبعث في الأمة نبيا، فكان هو محمد صلى الله عليه وسلم.

[2] يوجد في التوراة والأناجيل المنتشرة بين اليهود والنصارى بشارات كثيرة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

[3] أي هجرته من مكة إلى المدينة فرارا بدينه لما ضيَّق عليه قومه وحالوا دونه ودون نشر الإسلام في مكة.

والنار وما فيها من الأودية، وأنواع العقاب، وألوان العذاب، والزقوم والحميم، إلى غير ذلك مما لو بُسِط جاء في مجلدات.

وفي القرآن جميع أسمائه تعالى الحسنى، وفيه من أسماء النبي – صلى الله عليه وسلم – جملةً[1].

وفيه شعب الإيمان البضع والسبعون.

وفيه شرائع الإسلام الثلاثمائة وخمس عشرة.

وفيه ذكر أنواع الذنوب الكبائر وكثير من الذنوب الصغائر.

وفيه تصديق كل حديث ورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم.

هذه جملة القول في ذلك.

انتهى باختصار يسير وتصرف من كلام السيوطي رحمه الله في مقدمة كتابه «الإكليل في استنباط التنزيل».

***

٢. ومن خصائص القرآن أنه كتاب هداية **للناس كافة** ، بخلاف الكتب الأخرى ، فإنها كانت تصلح لناس دون آخرين ، حكمة منه جل وعلا ، كما جاء في القرآن ذكرُ المصالح التي يحتاجها البشر وتدور عليها الشرائع ، وفيه حلول المشاكل العالمية ، انظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في هذا الباب في تفسير قوله تعالى ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[2]، فقد تكلم عليه في نحو من خمس وخمسين صفحة.

***

٣. ومن أعظم خصائص القرآن العظيم أنه محفوظ من التغيير والتبديل والتحريف على مر الدهور والعصور إلى نهاية العالم ، فقد تعهَّد الله بحفظه كما قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾[3] ، أي: إن الله نزل الذِّكر وهو القرآن ، ثم حَفِظه ، وطريقة حفظه على مدى العصور الماضية كانت كالتالي:

بعد إنزال القرآن على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) عن طريق المَلَك جبريل ؛ حفظه النبيُّ في قلبه ، ثم قرأه على أصحابه فحفظوه في صدورهم وكتبوه على الألواح ، وكان عدد أصحاب النبي (صلى الله

[1] أي مجموعة من الأسماء، كأحمد والسراج المنير ونحو ذلك.

[2] سورة الإسراء: ٩ .

[3] سورة الحِجْر: ٩ .

عليه وسلم) ألوفا ، ثم تتابع الناس في الآفاق على حفظ القرآن بعد الصحابة ولم يفرطوا فيه ، جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، وكان حِفظهم متطابقا ، ولا يزال متطابقا ، لا يختلف حرفا واحدا ، فبهذا حفِظ الله ألفاظ القرآن من التغيير والزيادة والنقص ، وحفِظ معانيه من التبديل ، فلا يوجد في القرآن مؤلف مجهول ، لأن الكلام كلام الله ، لم يتدخل فيه أحدٌ بتأليف أو تحريف ، كما لا يوجد في القرآن جزء مفقود أو تناقض بين الآيات أو سقط في بعض الآيات ، ولم يتجرَّأ أحدٌ على مر التاريخ على تحريف معنًى من معانيه إلا وقَيَّض الله له من يرد عليه ، ويكشف كذبه وزوره وبهتانه ، ويُبَيِّن الحق المُبين ، وهذا من أعظم آيات الله على أنه كتاب منزل ، ومن أعظم نعمه على عباده المؤمنين إلى نهاية الدنيا.

فإن قيل: وما هي الدلائل على أن القرآن محفوظ لم يتعرض للتحريف؟

فالجواب على ذلك من وجوه:

- أن البشر كلهم ما استطاعوا أن يأتوا بآية مثل آية واحدة في القرآن في بلاغته وحسن كلامه، ولو أنه تعرض للتحريف لاتضح هذا في سياق القرآن، لأن أسلوب كلام البشر مختلف عن أسلوب كلام الرب.

- ثم إن القرآن متميزٌ في نظمه وأسلوبه عن كلام البشر، وقد حاول أناس على مر التاريخ إدخال تحريفات في القرآن فانكشفوا وذهبت جهودهم.

- ثم إن القرآن محفوظ في الصدور علاوة على كونه محفوظا في القراطيس، فإن ملايين البشر يحفظونه في آن واحد على مر الأزمان، ومن المعلوم أن ما كان في الصدور فلا يمكن تحريفه.

- كذلك فإن التاريخ يشهد بأن القرآن لم يتعرض قط للتحريف، ولو أنه تعرض للتحريف لذكره المؤرخون وأتوا بإثباتات، لاسيما مع وجود أعداء للقرآن على مر التاريخ.

  فلم يُذكر قط في التاريخ أن المسلمين اختلفوا في سورة أو آية أو كلمة واحدة أو حتى حرف واحد من القرآن، هل هو من القرآن أم مُدخلٌ عليه.

  بل التاريخ يشهد على ثبوت النص القرآني كما هو على مر العصور والقرون، وفي مختلف بقاع الدنيا، شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا.

- ومما يدل على حفظ القرآن أن القارئ الكريم لو أتى بنسخة من القرآن وقارنها بنسخة أخرى في أمريكا، وبنسخة ثالثة في الصين، ونسخة رابعة في الهند، لوجد بأمِّ عينيه أن هذه النسخ متطابقة، ليس فيها اختلاف بحرف واحد، فهذا دليل مادي حِسِّي على حفظ القرآن.
- ثم إن النسخة الأصلية من القرآن محفوظة منذ أربعة عشر قرنا، وهي موجودة في متحف في اسطنبول بتركيا، وجميع النسخ المطبوعة في العالم هي مقابلة بتلك النسخة.
- فالحاصل أن القرآن هو هو كما أُنـزِل قبل أربعة عشر عاما، لا يتعرض لتحديث revision ، كما هو الحال في الكتب الأخرى التي يُحدِّثها البشر، ثم يقولون إنها من عند الرب، وإنها كلامه!
- وبهذا تتضح قدرة الرب سبحانه وتعالى في حفظ القرآن ، مقارنة بقدرة البشر على حفظ غيره من الكتب كالتوراة والإنجيل ، فالنص القرآني محفوظ كما هو منذ أنزل ، والتاريخ شاهد بذلك ، لأن الله تكفل بحفظه ، بينما النصوص الأصلية لجميع الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل غير محفوظة ، والتاريخ شاهد بذلك ، مع أنهما أقرب كتابين للقرآن من الناحية الزمانية، والسبب في ذلك أن الأحبار والرهبان لم يحفظوها ، فالإنجيل **الأصلي** «الكتاب المقدس» الذي كان بيد المسيح عيسى ابن مريم والحواريين تعرض للضياع، فليس له وجود الآن ، وحَلَّ مكانه أربعة أناجيل كتبها أربعة أشخاص (متى، مرقس، لوقا، يوحنا) ، وملحقٌ بها ثلاثة وعشرون رسالة ، كلها قد أُلِّفت بعد رفع المسيح، فيكون المجموع سبعة وعشرين سفرا، وقد بدأ تدوين تلك الأناجيل الأربعة من سنة ٣٧ م إلى سنة ١١٠م، وهؤلاء الأربعة لم يثبت أن التقوا بالمسيح ولو للحظة واحدة ، بل كتبوها بعد رفعه إلى السماء ، وبينها من التناقض والاختلاف الشيء الكثير.

ليس هذا فحسب، بل الأناجيل الأربعة المذكورة هي المعتمدة في المسيحية المعاصرة، وأما الثلاثة والعشرون رسالة فغير معتمدة!

وإذا أُضيفت أسفار العهد القديم الستة وأربعين (المكونة من التوراة وغيرها) إلى أسفار العهد الجديد (الإنجيل) السبعة وعشرين صار مجموع الأسفار ثلاثة وسبعين ، يؤمن البروتستانت بستة وستين منها ، ولا يؤمنون بالبقية ، بينما يؤمن الأرثوذكس والكاثوليك بها كلها.

- ومما يدل بوضوح على تحريف رجال الدين المسيحيين للإنجيل أن هذه الأناجيل الأربعة يتم تحديثها بشكل مستمر مِن قِبَل متخصصين في الأناجيل ، حيث يكتشف هؤلاء المتخصصون من وقت

لآخر أن هناك عبارات مقحمة في النص الأصلي منها ، فيُخرجون نسخة جديدة من الأناجيل revision ، ويقولون إنها منقحة من تلك العبارات المُقحمة في النص ، أليس هذا دليلا واضحا على تلاعبهم بها؟

- فبهذا يتبين لنا بوضوح أن الرجوع إلى هذه الكتب التي تسمى أناجيل والاعتماد عليها لمعرفة رسالة المسيح عيسى ابن مريم الأصلية خطأ فادح ، لأنه رجوع إلى كلام البشر الذي يعتريه الصواب والخطأ ، فهي مثل كتب التاريخ ونحوها ، وكتب القصص والحكايات ، التي تؤلف بعد مرور فترة من الزمن على الأحداث التي تكلموا عنها ، فيكون فيها الصح والخطأ ، والاختلاف والاضطراب ، وليس رجوعا إلى كتاب الله المقدس ((الإنجيل الأصلي)) الذي أنزله الله على المسيح عيسى ابن مريم ، ولو أن هذه الأناجيل التي يتداولها النصارى ((المسيحيون)) هي فعلا الإنجيل الأصلي لَمَا تعددت ولَمَا تناقضت فيما بينها ، لأنه من المعلوم قطعا أن الإنجيل الذي كان بيد المسيح إنما هو كتاب واحد ، وكذلك الأمر يقال بالنسبة للتوراة، وهذا مِصداق قول الله تعالى ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾[1] .
- فبناء على هذا فلا يستطيع باحث أو عالم منصف أن يقول إن الأناجيل الأربعة محفوظة كما هي كما كتبها مؤلفوها ، فضلا عن أن يقولوا إنها – أو واحد منها – تُمَثِّل النص الأصلي للإنجيل الذي أنزله الله على المسيح ، وكان بيد المسيح والحواريين.
- ولكن الله رحيم بعباده ، لم يترك الناس هكذا بلا كتاب هداية وإرشاد ، فقد أنعم على الناس كلهم بكتاب خالد وهو القرآن ، فيه هدى ونور ، وحَـفِـظَـهُ على هيئته كمـــا هو غضا طريا، وسيبقى محفوظا إلى نهاية الدنيا ، كما قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾ ، وجعله صالحا لكل زمان ومكان ، ولجميع أصناف البشر[2] ، فبهذا تم وعد الله بحفظ القرآن ليكون كتاب هداية للناس كلهـــم ، بني إسرائيل وغير بني إسرائيل ، الأبيض والأسود ، العرب والعجم ، الإنس والجن ، إلى نهاية هذا العالم ، وتضمن هذا القرآن شريعة الإسلام التي هي خاتمة الشرائع.

---

[1] سورة النساء: ٨٢ .

[2] بإمكان القارئ الكريم تصفح القرآن من خلال هذا الموقع www.quran.ksu.edu.sa

- وفيما يلي قصة لطيفة من التاريخ تثبت حفظ القرآن على مر العصور والدهور، وقد حصلت لأحد خلفاء المسلمين كان يسمى المأمون ، دخل عليه في مجلسه رجل يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة ، فتكلم فأحسن الكلام والعبارة ، فلما انتهى المجلس دعاه المأمون فقال له: إسرائيلي؟

فقال: نعم.

فقال له: أسلِم حتى أفعل بك وأصنع ، أي يعطيه مالا ونحو ذلك.

فقال: ديني ودين آبائي! وانصرف.

يعني لن أترك ديني ودين آبائي.

فلما كان بعد سنة جاء اليهودي مسلما إلى مجلس المأمون ، فتكلم في أمور الدين الإسلامي فأحسن الكلام ، فلما انتهى المجلس دعاه المأمون فقال له: ألست صاحبنا بالأمس؟

فقال: بلى.

قال: فما كان سبب إسلامك؟

قال: انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان ، فعمدت إلى التوراة فكتبتُ ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الكنيسة فاشتُرِيت مني.

وعمدت إلى الإنجيل فكتبتُ ثلاث نسخ فزدتُ فيها ونقصت ، وأدخلتها البيعة فاشتُرِيت مني.

وعمدت إلى القرآن فعمِلت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها على الورَّاقين (هم الذين يكتبون الكتب ويبيعونها ، قبل وجود المطابع) فتصفحوها ، فلما وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها ، فعلِمت أن هذا كتاب محفوظ ، فكان هذا سبب إسلامي. انتهت القصة.

فصل في بيان الأدلة القرآنية على تحريف الأحبار والرهبان للتوراة والإنجيل

قال الشنقيطي رحمه الله في تفسير قوله تعالى في سورة المائدة عند ذكر حال الأحبار والرهبان مع الكتب المنزلة إليهم وتفريطهم في حفظها ﴿بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾[1] ، قال رحمه الله:

أخبر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الأحبار والرهبان استُحفظوا كتاب الله يعني استُودعوه ، وطُلب منهم حفظه ، ولم يبين هنا هل امتثلوا الأمر في ذلك وحفِظوه ، أو لم يمتثلوا الأمر في ذلك وضيعوه ، ولكنه بيَّن في مواضع أخر أنهم لم يمتثلوا الأمر ، ولم يحفظوا ما استُحفظوه ، بل حرَّفوه وبدلوه عمداً ، كقوله ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ الآية ، وقوله ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ الآية ، وقوله ﴿تجعلونه

[1] سورة المائدة: ٤٤ .

قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾ ، وقوله ﴿فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله﴾ الآية ، وقوله جل وعلا ﴿وإنَّ منهم فريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب﴾ الآية ، إلى غير ذلك من الآيات ...

ثم قال رحمه الله: والقرآن العظيم لم يكِلِ الله حفظه إلى أحد حتى يُمْكِنه تضييعَه ، بل تولى حِفظه جل وعلا بنفسه الكريمة المقدسة ، كما أوضحه بقوله ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ وقوله ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ الآية ، إلى غير ذلك من الآيات. انتهى كلامه رحمه الله.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه «إغاثة اللهفان»:

ثم بعث الله سبحانه عبدَه ورسولَه وكلمتَه المسيح ابنَ مريم ، فجدَّد لهم الدين ، وبيَّن لهم معالمه ، ودعاهم إلى عبادة الله وحده ، والتبرّي[1] من تلك الأحداث والآراء الباطلة ، فعادوه وكذبوه ، ورموه وأمه بالعظائم ، ورامواْ[2] قتله ، فطهَّره الله تعالى منهم ، ورفعه إليه فلم يصِلوا إليه بسوء ، وأقام الله تعالى للمسيح أنصارا دعوا إلى دينه وشريعته ، حتى ظهر دينُه على من خالفه ، ودخل فيه الملوك ، وانتشرت دعوته ، واستقام الأمر على السَّداد بعده نحو ثلثمئة سنة.

ثم أخذ دين المسيح في التبديل والتغيير حتى تناسخ واضمحل ولم يبق بأيدي النصارى منه شيء ، بل ركَّبوا دينا بين دين المسيح ودين الفلاسفة عُبَّاد الأصنام ، ورامواْ بذلك أن يتلطفوا للأمم حتى يُدخلوهم في النصرانية ، فنقلوهم من عبادة الأصنام المجسدة إلى عبادة الصور التي لا ظل لها ، ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق ، ونقلوهم من القول باتحاد العاقل والمعقول والعقل إلى القول باتحاد الأب والابن وروح القدس.

هذا ومعهم بقايا من دين المسيح ، كالختان والاغتسال من الجنابة وتعظيم السبت وتحريم الخنزير وتحريم ما حرَّمته التوراة إلا ما أُحِل لهم بنصها ، **ثم تناسخت الشريعة** إلى أن استحلَّوا الخنزير وأحلَّوا السبت وعوَّضوا منه يوم الأحد وتركوا الختان والاغتسال من الجنابة ، وكان المسيح يُصلي إلى بيت المقدس فصلُّوا هم إلى المشرق ، ولم يُعظِّم المسيح عليه السلام صليبا قط ، فعظَّموا هم الصليب وعبدوه ، ولم يصُم المسيح عليه السلام صومَهم هذا أبدا ولا شرَعه ولا أمر به البتة ، بل هم وضعوه على هذا العدد ونقلوه إلى زمن الربيع ، فجعلوا ما زادوا فيه من العدد عِوضا عن نقله من الشهور الهلالية إلى الشهور الرومية ، وتعبدوا بالنجاسات وكان المسيح عليه السلام في غاية الطهارة والطيب والنظافة وأبعد الخلق عن النجاسة

[1] أي التبرؤ.

[2] أي: قصَدوا.

، فقصدوا بذلك تغيير دين اليهود ومراغمتهم ، فغيروا دين المسيح وتقربوا إلى الفلاسفة عباد الأصنام بأن وافقوهم في بعض الأمر ليُرضوهم به وليستنصروا بذلك على اليهود. انتهى كلامه رحمه الله.[1]

تنبيه مهم

- ومع ذلك التحريف والتبديل الذي تعرضت له التوراة والإنجيل ؛ فإنه لا زال في التوراة والأناجيل المتوافرة بأيدي اليهود والنصارى الآن شيئا من الحق الذي جاء به موسى والمسيح ، وشهِد له القرآن أيضا ، كنبوة محمد[2] ﷺ ، وبشرية عيسى ﷺ ، ووجوب إفراد الله بالعبادة ، نذكر هذا من باب الإنصاف، لأن الله أمر المسلمين بالإنصاف كما في قوله تعالى ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾.

وجوه إعجاز القرآن

القرآن الكريم مُعجِزٌ في ذاته من تسعة وجوه[3]:

الأول: بيانه وفصاحته ، فالقرآن الكريم نزل على العرب بلغتهم ، وفي زمان بلغوا فيه الذِّرْوَةَ في الفصاحة والبلاغة والبيان وحسن نظم الشعر ، فظنوا في أول الأمر أنهم يستطيعون الإتيان بمثله فقالوا ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾[4] ، فنزل القرآن بتحديهم على ثلاثة مراحل ؛ الأولى أن يأتوا بمثله[5] ، والثانية أن يأتوا بعشر سور مثله[1]، والثالثة أن يأتوا بسورة مثله[2] ، فعجِزوا مع شدة حرصهم على

---

[1] «إغاثة اللهفان» (٢/٢٧٠) ، تحقيق الفقي.

قلت: وقد أُلِّف بعض علماء الإسلام كتبا في تحريف الكتب السابقة ، كما أُلِّفت بعض الرسائل العلمية في ذلك ، منها:

١. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.
٢. مصادر النصرانية – دراسة ونقدا ، عبد الرزاق بن عبد المجيد الأرو ، الناشر: دار التوحيد للنشر – الرياض
٣. تحريف رسالة المسيح عليه السلام عبر التاريخ – أسبابه ونتائجه ، تأليف: بسمة جستنيه
٤. تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ، تأليف: القاضي أبي البقاء صالح بن الحسين ، الناشر: مكتبة العبيكان – الرياض
٥. النصرانية – الأصل والواقع ، تأليف: د. محمد السحيم ، الناشر: دار العاصمة – الرياض
٦. الأسفار المقدسة قبل الإسلام – دراسة لجوانب الاعتقاد في اليهودية والمسيحية ، تأليف: د. صابر طعيمة ، الناشر: عالم الكتب – لبنان

[2] انظر كتاب «البشارات العجاب في صحف أهل الكتاب» (٩٩ دليلا على وجود النبي المبشر به في التوراة والإنجيل) ، تأليف د. صلاح الراشد ، الناشر: دار ابن حزم – بيروت.

[3] قولي إنها تسعة ليس على سبيل التحديد ، ولكن بحسب ما يسر الله الوقوف عليه ، وربما كانت هناك وجوه أخرى ، فالله تعالى أعلم ، وانظر للاطلاع وجوه إعجاز القرآن الكريم العشرة كما ذكرها القرطبي رحمه الله في مقدمة كتابه «الجامع لأحكام القرآن» ، باب: ذكر نكت في إعجاز القرآن ، وشرائط المعجزة وحقيقتها.

[4] سورة الأنفال: ٣١ .

[5] سورة الطور: ٣٣ – ٣٤ .

مغالبة القرآن وقوة فصاحتهم ، فقطع الله طمعهم إلى قيام الساعة في قوله تعالى ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾[٣].[٤]

قال ابن تيمية رحمه الله:

والقرآن آيته باقية على طول الزمان من حين جاء به الرسول ، تُتلى آيات التحدي به ويتلى قوله ﴿فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين﴾ و ﴿فأتوا بعشر سورٍ مثله﴾ و ﴿بسورةٍ مثله وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ ، ويُتلى قوله ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً﴾ ، فنفس إخبار الرسول بهذا في أول الأمر[٥] وقطعِه بذلك مع علمه بكثرة الخلق دليل على أنه كان خارقاً يُعجز الثَّقَلين[٦] عن معارضته ، وهذا لا يكون لغير الأنبياء.

ثم مع طول الزمان قد سمِعه الموافق والمخالِف ، والعرب والعجم ، وليس في الأمم من أظهرَ كتاباً يقرأه الناس وقال إنه مثله ، وهذا يعرفه كل أحد ، وما من كلام تكلم به الناس – وإن كان في أعلى طبقات الكلام لفظاً ومعنى – إلا وقد قال الناس نظيرَه وما يشبهه ويقاربه ، سواء كان شعراً أو خطابة أو كلاماً في العلوم والحكم والاستدلال والوعظ والرسائل وغير ذلك ، وما وُجِد من ذلك شيء إلا وَوُجِد ما يُشبهه ويُقاربه.

والقرآن مِما يَعلم الناس عربهم وعجمهم أنه لم يوجد له نظير مع حرص العرب وغير العرب على معارضته ، فلفظُه آية ، ونظمُه آية ، وإخبارُه بالغيوب آية ، وأمرُه ونهيُه آية ، ووعدُه ووعيدُه آية ، وجلالتُه وعظمتُه وسلطانُه على القلوب آية ، وإذا تُرجم بغير العربي كانت معانيه آية ، كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم.[٧]

قال مقيده عفا الله عنه:

تحدى الله في خمس آيات من القرآن جميع الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو سورة منه أو آية منه فما استطاعوا ، وهي:

---

[١] سورة هود: ١٣ .

[٢] سورة البقرة: ٢٣ .

[٣] سورة الإسراء: ٨٨ .

[٤] وانظر أيضا ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ (سورة يونس: ٣٧).

[٥] أي في أول أمر نبوته.

[٦] الثَّقَلين هما الإنس والجن.

[٧] كتاب «النبوات» ، ص ٥١٥ – ٥١٧ .

١. ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن **مِّثْلِهِ** وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وتفسير الآية الكريمة كالتالي:

وإن كنتم في شَكٍّ من القرآن الذي نَزَّلناه على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وتزعمون أنه ليس من عند الله، فهاتوا سورة تماثل سورة من القرآن، واستعينوا بمن تقدرون عليه مِن أعوانكم، إن كنتم صادقين في دعواكم.

٢. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا **بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ** وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾.

وتفسير الآية الكريمة كالتالي:

أم يقول الكفار الذين لا يؤمنون بأن القرآن من عند الله: إن هذا القرآن افتراه محمد من عند نفسه؟ فقل لهم أيها الرسول: فأتوا أنتم بسورة واحدة من جنس هذا القرآن في نظمه وهدايته، واستعينوا على ذلك بكل مَن قَدَرْتم عليه من دون الله من إنس وجن، إن كنتم صادقين في دعواكم.

بل سارَعوا إلى التكذيب بالقرآن أول ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته، وكفروا بما لم يحيطوا بعلمه من ذكر البعث والجزاء والجنة والنار وغير ذلك من الأمور التي لم يأتهم بعدُ حقيقة ما وُعِدوا به في الكتاب.

وكما كذَّب المشركون بوعيد الله كذَّبت الأمم التي خلت قبلهم، فانظر أيها الرسول كيف كانت عاقبة الظالمين، فقد أهلك الله بعضهم بالخسف، وبعضهم بالغرق، وبعضهم بغير ذلك.

٣. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ **مِّثْلِهِ** مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وتفسير الآية الكريمة كالتالي:

بل يقول هؤلاء المشركون من أهل "مكة": إن محمدًا قد افترى هذا القرآن، فقل لهم: إن كان الأمر كما تزعمون فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من جميع خلق الله ليساعدوكم على الإتيان بهذه السور العشر، إن كنتم صادقين في دعواكم.

٤. ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا **بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ** لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

وتفسير الآية الكريمة كالتالي:

قل يا محمد للذين لا يؤمنون بأن القرآن كلام الله: لو اتفقت الإنس والجن على محاولة الإتيان بمثل هذا القرآن المعجز لا يستطيعون الإتيان به، ولو تعاونوا وتظاهروا على ذلك.

٥. ﴿أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ **مِّثْلِهِ** إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

وتفسير الآية الكريمة كالتالي:

أم يقول هؤلاء المشركون إن محمدا اختلق القرآن من تلقاء نفسه؟

بل هم لا يؤمنون، فلو آمنوا لم يقولوا ما قالوه. فليأتوا بكلام مثل القرآن إن كانوا صادقين في زعمهم أن محمدًا اختلقه من عنده.

٦. ﴿وَمَا كَانَ **هَٰذَا الْقُرْآنُ** أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وتفسير الآية الكريمة كالتالي:

وما كان يتهيَّأ لأحد أن يأتي بهذا القرآن مِن عند غير الله، لأنه لا يقدر على ذلك أحد من الخلق، وفي هذا القرآن بيان وتفصيل لما شرعه الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولا شك في أن هذا القرآن موحىً من رب العالمين.

فائدة – التوراة والإنجيل لا يُجزم بأنها معجزة في لفظِها

لا يُجزم بأن التوراة والإنجيل مُعجزة من حيث اللفظ والنَّظم كالقرآن ، فهذا يرجع إلى اللغة التي أنزِل بها وهي العبرانية ، وإنما هي مُعجزة لما تضمنته من المعاني ، كالإخبار عن الغيوب ، وما فيها من الهدى والنور ، وما فيها من الإخبار بنبوة محمد ﷺ .[1]

الوجه الثاني من وجوه إعجاز القرآن: أنه ليس فيه عوج لا من جهة الألفاظ ولا من جهة المعاني ، قال الشنقيطي رحمه الله في تعليق له على قوله تعالى ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾:

أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً كائناً ما كان ، لا من جهة الألفاظ ولا من جهة المعاني ، فألفاظه في غاية الإعجاز والسلامة من العيوب والوصمات ، ومعانيه كلها في غاية الكمال ، أخباره صدق ، وأحكامه عدل ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ أي: صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأحكام.[2]

---

[1] انظر كتاب «النبوات» (٥١٩).

[2] «الرحلة إلى أفريقيا» ، ص ١٨ .

ثالثا: حِفظه من التحريف على مر العصور والدهور ، ووجه الإعجاز أنه لم يُحفظ كتابٌ من الكتب السماوية كما حُفِظَ هذا الكتاب ، وصدق الله ﴿إنا نحن نزلنا الذِّكر وإنا له لحافظون﴾[1].

رابعا: حُسْنُ ما تضمنه القرآن من تشريعات وأحكام ، تصلح لجميع البشر ولجميع الأزمنة والأمكنة ، وتشمل جميع ما يصلح العباد في دنياهم وآخرتهم ، في العقيدة والشريعة والآداب والاقتصاد والسياسة وغيرها ، وجعله مستغنٍ عن غيره من القوانين والدساتير.

خامسا: صِدقُ الأخبار التي تضمنها ، سواء التي مضت ، أو التي تحصل تَبَعًا مع مرور الزمن أثناء تَنَزُّل القرآن ، أو الآيات التي فيها ذكر بعض الأمور المستقبلية ، **فأما الأخبار التي مضت** فهي كالإخبار عن خلق السماوات والأرض ، وقصة آدم وإبليس ، ثم قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم ، وقصة صاحب الجنتين ، وقصة أصحاب الكهف وذي القرنين ، وغيرها ، جاءت كل هذه الأخبار على لسان نبي أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

وتَضَمَّن القرآن كذلك ذكر بعض الأحكام الواردة في التوراة ، وبيان كتمان أحبار اليهود لها ، حتى تحداهم القرآن بقوله ﴿قل فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين﴾[2].

وأما الآيات التي نزلت تَبَعًا مع التنزيل فكالآيات التي نزلت لكشف أحوال المنافقين ، والآيات التي فيها إجابة على أسئلة ، كالآيات التي تَصَدَّرها قولُه ﴿ويسألونك﴾ ونحوها﴾ ، وكذا المواقف التي كشفت عن صدق الله وعدِه لنبيِّه بالنصر في الحروب ، وغير ذلك.

وأما الآيات التي فيها أخبار ما سيأتي في المستقبل فوقعت مطابقة لما أخبر فكدخول المسجد الحرام ، وهي في آخر سورة الفتح.

وأيضا قوله تعالى ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾[3] ، فقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم أن عمر لما نزلت هذه الآية قال: أيُّ جمعٍ يُهزم؟

فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يَثِبُ في الدِّرع ويقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾.

وفي رواية لابن أبي حاتم: فعرفتُ تأويلها يومئذ.

وكذلك الآيات التي فيها تقرير عجز الناس عن أن يأتوا بآية مثل آيات القرآن ، فعجز الناس فعلا ، وكالآيات التي تقرر حفظ الله لكتابه ، كقوله تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ ، فوقع الأمر كما أخبر ، فكم من ملحدٍ حاول ثم نكص على عقبيه ، وكالآيات التي تقرر حصول العزة والكرامة

---

[1] سورة الحجر: ٩ .

[2] سورة آل عمران: ٩٣ .

[3] سورة القمر: ٤٥ .

والسيادة والظهور للأمة الإسلامية إن استقامت على أمر الله ، فوقع الأمر كما أخبر الله في القرون الثلاثة المفضلة الأولى ، قال تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولَيمكنن لهم دينهم الذين ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا﴾[1] ، ثم لما فشا فيهم الشرك والبدع ، والبعد عن منهج السلف الصالح في العقيدة والشريعة والسلوك ؛ صاروا في ذيل الأمم ، وتسلطت عليهم الأمم الأخرى ، واحتلوا بلادهم قرونا من الزمن[2].

ومن دلائل صدق القرآن ما جاء فيه من ذكر بعض الأمور العلمية ، ثم لما ظهرت الاكتشافات العلمية الحديثة وقعت مطابقة لما أخبر ، فمراحل تكوين الإنسان في بطن أمه – مثلا – قد تحدث عنه القرآن قبل أربعة عشر قرنا ، بينما لم يَهتدِ علماءُ الطب إلى مراحل ذلك التكوين إلا في العقود المتأخرة من هذا الزمان.

وبيان ذلك أن القرآن الكريم بين أن حياة الإنسان تمر **بأربعة** مراحل ، فقال تعالى في مطلع سورة المؤمنون: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين * ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾.

فالمرحلة الأولى هي أصل الخلقة ، لما خلق الله أبانا آدم عليه السلام من طين ، وفي هذا يقول الله تعالى ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾.

المرحلة الثانية هي مرحلة تكون الإنسان في بطن أمه ، وقد أشار القرآن الكريم إلى المراحل التدريجية لتكون الإنسان في بطن أمه ، وهي خمسة مراحل ؛ نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظام ثم لحم فوق العظام.

فقوله: (خلقنا النطفة علقة) أي دمًا أحمر.

وبعد أربعين يومًا تتحول العلقة إلى مضغة ، أي قطعة لحم قَدْر المضغة التي يمضغها الإنسان في فمه.

ثم تتحول المضغة اللينة وتتحول خلقتها إلى عظام.

---

[1] سورة النور: ٥٥ .

[2] تعمدت هنا ذكر جملة (واحتلوا بلادهم قرونا) بدل (واستعمروا بلادهم قرونا) ، والفضل في هذا الاختيار يعود للعلامة السلفي محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله ، فقد انتقد كلمة (الاستعمار) ، فقال ما معناه إن مادة هذه الكلمة هي (العمارة) ، ومن مشتقاتها التعمير والعمران ، كما قال الله تعالى ﴿هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ ، والذي وقع من الإفرنج في تلك الحقبة الزمنية هو الخراب لا العمران ، فإنهم خرّبوا الأوطان والأديان والعقول والأفكار والمقومات ، وتركوا آثارا وبصمات سيئة بعد انسحابهم من البلاد التي احتلوا وهيمنوا عليها ، ومع الأسف فالمصطلح المستعمل بين المسلمين بعد انسحابهم وإلى الآن هو الاستعمار ، وهذا خطأ لفظي واضح.
انظر «آثار الإبراهيمي» (٥٠٦/٣ – ٥٠٧).

ثم تُكسى العظام لحمًا ، ثم يُنشؤه الله خلقًا آخر بنفخ الروح فيه.
فتبارك الله الذي أحسن كل شيء خلقه.
والشاهد من هذا السَّرد لمراحل خلق الإنسان أن علم الطب الجديد اكتشف هذه المراحل كلها ، ثم تفاجأ بأنه هذه المراحل مذكورة في القرآن منذ أربعة عشر قرنا ، فاستـدلوا من هذا على أن القرآن كلام الله ، لا يمكن أن يكون الذي أتى به بشر ، فسبحان من بهر بحكمته العقول.
وكذا الأمر بالنسبة لتكوين البحار والجبال وغيرها ، فقد جاء ذكر تكوينها الطبيعي في القرآن ، وبعد ظهور المكتشفات الحديثة وقعت مطابقة لما أخبر به.
وقد أُلِّفَت في مطابقة الاكتشافات العلمية لما جاء به القرآن مؤلفات كثيرة ، وأسلم بسبب هذا التطابق عددٌ ليس بالقليل من علماء الطبيعة ، ومن أراد التوسع في ذلك فليرجع إلى مطبوعات هيئة الإعجاز العلمي التابعة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

سادسا: ومن دلائل إعجاز القرآن تنوُّع العلوم التي احتواها ، فعلاوة على أن القرآن الكريم قد قرر العقيدة الصحيحة فيما يتعلق بصفات الله تعالى وأحقيته بالعبادة ، وهَدَمَ أساطير الخرافة والتعلق بالمخلوقات ؛ فإنه لم يقتصر على هذا ، فقد اغترف منه علماء النحو والبلاغة واللغة الشيء الكثير ، بل هو المعيار الأساس لضبط علومِهم.

فتنوُّع العلوم هذه كلها تدل على أن النبي ﷺ صادق فيما يُبَلِّغُه عن ربه ، فإنه من المستقر المعلوم عند قومه أنه أُمِّيٌّ ، لا يقرأ ولا يكتب ، فمن أين سيأتي بكل هذه الأخبار القرآنية لولا أنه يُوحى إليه من ربه؟ قال تعالى ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بها إلا المبطلون﴾[1].

سابعا: ومن وجوه إعجاز القرآن تأثيره البليغ في النفوس ، سواء كانت نفوسا مؤمنة أو كافرة ، وصدق الله ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾[2] ، وقوله ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾[3].
وقد تأثر بالقرآن بعض صناديد الكفر من قريش ، ومن ذلك قصة الوليد بن المغيرة لما سمع القرآن ، فقد روى ابن جرير في «تفسيره»[4] والحاكم في «مستدركه»[1] واللفظ له عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد

---

[1] سورة العنكبوت: ٤٨ – ٤٩ .
[2] سورة الحشر: ٢١ .
[3] سورة الزمر: ٢٣ .
[4] تفسير سورة المدثر ، الآيات ١٨ – ٢٥ .

بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رقَّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عمْ ، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا.

قال: لِمَ؟

قال: ليعطوكَهُ ، فإنك أتيت محمدا لتَعرِض لما قِبَلَه.[٢]

قال: قد علِمَت قريش أني من أكثرها مالا.

قال: فقُل فيه قولا يبلُغ قومك أنك منكرٌ له ، أو أنك كارهٌ له.

قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برَجزٍ ولا بقصيدةٍ مني ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يُشبه الذي يقول شيئا من هذا ، ووالله إن لِقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطُلاوة[٣] ، وأنه لمثمرٌ أعلاه ، مُغدِقٌ[٤] أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعلى ، وإنه لَيَحْطِمُ ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعْني حتى أفكر.

فلما فكَّر قال: هذا سحر يؤثر ، يأثِره عن غيره[٥] ، فنزلت ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا﴾[٦].

وأخرج ابن إسحاق في السيرة[٧] والبيهقي في «الدلائل»[٨] واللفظ له عن الزهري قال: حُدِّثتُ أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شُريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته ، وأخذ كل رجل منهم مجلسا ليستمع فيه ، وكُلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتُوا يستمعون له ، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرَّقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: (لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا) ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كان الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرَّقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا ، فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقالوا: (لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود) ، فتعاهدوا على

---

[١] (٥٠٧/٢).

[٢] أي لتعرض نفسك لما عنده من مال ، يريدون أنه طمِع بما عنده ، فلهذا ذهب إليه.

[٣] أي رونقا وحسنا ، وقد تفتح الطاء. انظر «النهاية».

[٤] الغدَق هو الماء الكثير ، وفي التنزيل ﴿لأسقيناهم ماء غدقا﴾ ، والمقصود بالمُغدق في الكلام هنا هو كثرة خيره. انظر «لسان العرب».

[٥] أي يرويه عن غيره.

[٦] سورة المدثر: ١١ .

[٧] كتاب «السيرة» ، ص (١٦٩) ، تحقيق محمد حميد الله.

[٨] باب جماع أبواب المبعث (٢٠٦/٢).

ذلك ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد.

فقال: يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها.

قال الأخنس: وأنا ، والذي حلفتَ به.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فقال: يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟

قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف في الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفَرَسَيْ رِهان ؛ قالوا: (منا نبي يأتيه الوحي من السماء!) ، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ، فقام عنه الأخنس بن شريق. انتهى.

ولما سمع جُبير بن مطعم رضي الله عنه رسول الله ﷺ يقرأ سورة الطور فبلغ هذه الآيات ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾[1] ، وكان جبير يومئذ مشركًا ؛ قال : كاد قلبي أن يطير ، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي.[2]

ولما كان القرآن يتصف بهذا التأثير البليغ في النفوس ؛ تعاهد الكفار ألا يستمعوا للقرآن ، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾[3] ، وما ذاك إلا لتأثيره في نفوسِهم ، وإحساسهم به في أعماقهم ، ولكنهم قوم يستكبرون عن سماع الحق.

وقد أثّر القرآن في بعض النصارى فآمنوا به ، قال تعالى عنهم ﴿وإذا سمعوا ما أُنـزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبا مع الشاهدين﴾[4].

أما المؤمنون فتأثير القرآن فيهم واضح ، قال تعالى ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا﴾[5] ، والكلام في هذا يطول ، وهو موجود في مظانه ، ويكفي في هذا ما ذكره جلال الدين السيوطي رحمه الله في كتابه «الإتقان في علوم القرآن»[6] أن جماعةً ماتوا عند سماع آيات من كتاب الله ، وقد أفرَدَ أسمائهم في مصنف.

---

[1] سورة الطور: ٣٥ – ٣٧ .

[2] رواه البخاري مفرقا ، (٤٨٥٣ ، ٤٠٢٣).

[3] سورة فصلت: ٢٦ .

[4] سورة المائدة: ٨٣ .

[5] سورة الأنفال: ٢ .

[6] باب: النوع الرابع والستون في إعجاز القرآن.

ثامنا: ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم كونه شفاء من الأمراض الحسية والمعنوية (أي النفسية) ، فأما الأمراض الحسية فقد حذر القرآن من جملة من المطعومات والمشروبات والسلوكيات على سبيل الوقاية من الأمراض ، ومن ذلك تحريم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، وارتكاب الزنا واللواط ، وكذا إتيان النساء في فترة المحيض.

وأما إذا أُصِيب الإنسان بمرض فقد أرشد النبي ﷺ إلى التداوي بقراءة سورة الفاتحة ، كما أرشد القرآن إلى التداوي بالعسل ، ﴿فيه شفاء للناس﴾[1].

وأما الأمراض النفسية فالقرآن هو أفضل الأدوية لها ، بل إن سبب هذه الأمراض هو البعد عن القرآن ، ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا﴾[2] ، ومن تلك الأمراض القلق والاكتئاب والسحر والأخلاق الرديئة من طمع وكبر والانجراف وراء الشهوات وغير ذلك ، وذلك أن هذه الأمراض تحصل نتيجة الخواء الروحي ، وليس للخواء الروحي دواء إلا الرجوع إلى الله تعالى ، وصدق الله ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[3] ، ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾[4] ، ﴿قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾[5] ، ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾[6].

وقد شفى الله بقراءة القرآن الألوفَ المؤلفة ممن أصيبوا بالأمراض العضوية والنفسية على مرِّ العصور ، ولا يزال هذا يُشاهدُ ويُمارسُ ، بل قد صار الاستشفاء بالقرآن مُقرَّرا في بعض العيادات النفسية.

تاسعا: ومن وجوه إعجاز القرآن يُسرُ حفظِه عن ظهر قلب لمن أراد ذلك ، خلافا لغيره من الكتب ، فقد حُفِظ القرآن كاملا في صدور الملايين من الناس منذ عصر النبوة إلى يومنا هذا ، وقد حفظه من هو من المكفوفين ، كما حفظه من هو من الأعاجم الذين يتكلمون اللغة العربية إلا قليلا ، فسبحان من بهر بكتابه العقول ، وسيستمر حفظه في صدور الناس إلى نهاية الدنيا.

وهذا الوجه من وجوه الإعجاز لم – ولن – يحصل لغيره من الكتب إطلاقا.

فصل في بيان ما يضاد الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب يضادُّه أحد عشر أمرا:

---

[1] سورة النحل: ٦٩ .

[2] سورة طه: ١٢٤ .

[3] سورة الرعد: ٢٨ .

[4] سورة الإسراء: ٨٢ .

[5] سورة يونس: ٥٧ .

[6] سورة فصلت: ٤٤ .

الأول: تكذيبها ، أي ادعاء أنها لم تنزل من عند الله ، ومن ذلك تكذيب الكفار بأن القرآن كلام الله وقالوا إنه مفترى من عند البشر ، حاشا لله ، وقد أكذب الله تعالى هذه المقولة في آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله﴾[1].

الثاني: تحريفها كما هو واقع التوراة والإنجيل ، وقد تقدم الكلام في هذا الموضوع.

الثالث: معارضة القرآن بالعقول ، وادعاء أن هناك ما هو أحسن منه وأفضل.

الرابع: ادعاء أن القرآن الموجود بأيدي المسلمين اليوم ناقص ، ومن هذا قول الرافضة إن القرآن أُنتقِص ثُلُثاه ، وإن هذين الثلثين متعلقان بفضائل أهل البيت ، ويدَّعون أن القرآن الكامل سيخرج في آخر الزمان!!

الخامس: ومما يضاد الإيمان بالقرآن العظيم تفضيل بعض الأوراد عليه ، كما تقوله فرقة التيجانية وبعض فرق المتصوفة ، قالوا: إن قراءة صلاة الفاتح مرة واحدة خير من قراءة القرآن ستة آلاف مرة![2]

السادس: ومما يقدح في الإيمان بالقرآن العظيم قدحا عظيما ، الإعراض عن التحاكم إليه ، واستبداله بشرائع البشر وقوانينهم ودساتيرهم الوضعية ، وفاعل ذلك حكمه من جهة تكفيره أو عدمه بحسب حاله ، فإن كان الإعراض عن التحاكم إليه منطلقٌ من تَنَقُّص القرآن فهذا كُفرٌ لا ريب فيه ، كمن يحكم بغير ما أنزل الله في القرآن معتقدا أنه لا يصلح للتحاكم إليه في زماننا ، أو إن شريعة البشر مساوية لما في القرآن في العدل والحكمة أو أحسن منه ، فهذا كفر صريح ، لأنه تكذيب للقرآن ، وطعنٌ في حكمِ الله وشرعِهِ ، ومن ثم فإنه تَـنَـقُّصٌ له ، وتنقُّـصُ الله كفر ، بل يلزم منه تفضيل المخلوقين على الخالق تعالى في بعض صفاتهم ، كصفة العلم والحكمة وغيرها ، وهذا كفر صريح لا شك فيه ، والواجب هو الإيمان بأن الله هو الحكيم الخبير العليم بمصالح خلقه ، قال تعالى ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[3].

وأما إن كان الإعراض عن التحاكم إليه لهوى في النفس من ظلم أو رشوة أو نحوه ، مع اعتقاده بأن حكم الله يجب العمل به وأنه الأصلح للبشر ؛ فهذا الحاكم لا يكفُر ، سواء كان واليا أو قاضيا ، بل يكون قد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب ، وهو المعروف بالكفر الأصغر.

والكلام في الحكم بغير ما أنزل الله يطول ، وقد تكلم أهل العلم فيه في كتب التفسير والعقائد وغيرها.

---

[1] سورة يونس: ٣٨ .

[2] انظر للتوسع في معرفة ما عليه هذه الفرقة كتاب «التيجانية» لعلي بن محمد الدخيل الله ، (ص ١١٦ وما بعدها) ، الناشر: دار طيبة – الرياض.

[3] سورة الملك: ١٤ .

والإعراض عن التحاكم إلى ما أنزل الله يعتبر من ألوان الانحراف التي وقع فيها من قبلنا من الأمم كاليهود والنصارى ، عياذا بالله ، فمن وقع في ذلك فقد تشبه بهم ، وبئس من تُشُبِّهَ بهم.

السابع: ومما ينافي الإيمان بالقرآن تفسيره بالأهواء والأقوال الباطلة التي لم تثبُت عن السلف الصالح ، كتفسيرات الجهمية والمعتزلة والرافضة والتفسير الإشاري ونحو ذلك.

الثامن: ومما ينافي الإيمان بالقرآن إهانتُهُ كما يفعل السحرة من وضعِهِ في المزابل أو في أماكن قذرة وتلويثه وتمزيقه ، وهذا كفرٌ بالله العظيم ، وللعلم فإنه الشياطين لا تُتمِّم للساحر سحره إلا بإهانة القرآن العظيم.

التاسع: ومما يقدح في الإيمان بالقرآن الإعراض عن العمل بأحكامه ، سواء المتعلقة بجانب الاعتقاد أو العبادات أو الآداب والسلوك.

تنبيه

ومما ينبغي أن يُعلم أن أعداء الدين من يهودٍ ونصارى وملحِدين ومقلِّدين لهم دور هام في صد المسلمين عن العمل بالقرآن منذ القِدم ، ومن ذلك قول «غلادستون» رئيس وزراء بريطانيا سابقا في مجلس العموم البريطاني: «ما دام هذا القرآن موجودا في أيدي المسلمين فلن تستطيع «أوربة» السيطرة على الشرق».

وقال الحاكم الفرنسي في الجزائر في ذكرى مرور مئة سنة على استعمار الجزائر: «إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن ويتكلمون العربية ، فيجب أن نُزيل القرآن العربي من وجودِهم ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم».[1]

العاشر: ومما ينافي الإيمان بالقرآن القول بخلق القرآن ، وأنه ليس كلام الله تعالى على الحقيقة ، وإنما هو معانٍ نفسية خلقها الله في غيره ، وهذه عقيدة فرقة الجهمية. والصواب الذي عليه أهل الإسلام أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

الحادي عشر: ومما ينافي الإيمان بالقرآن عدم الإيمان بالسنة الشريفة ، وهذا كفر بالقرآن أصلا ، لأنها – أي السنة الشريفة – وحي من عند الله ، تُبين القرآن وتفسره ، وتُخصِّص عموماته ، وتُقيِّد مطلقه.

ثم إن الله تعالى أمر الله بطاعة رسوله ﷺ ، ولا يكون ذلك إلا بالإيمان بالسنة الشريفة ، قال تعالى ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ ، وقال تعالى﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا﴾[1].

[1] يُنظر للتوسع كتاب «قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام ، أبيدوا أهله» ، لجلال العالم (ص: ٤٠).

هذه أهم مظاهر الإعراض عن القرآن العظيم ، نسأل الله أن يُجنبنا إياها ، وأن يوفقنا للإيمان بكتابه حق الإيمان ، وقراءته وتدبره والعمل به.

فصل في ثمرات الإيمان بالكتب[٢]

الإيمان بالكتب يثمر ثمرات جليلة منها:

الأولى: العلم بعناية الله تعالى بعباده ، حيث أنزل لكل قوم كتابًا يهديهم به.

الثانية: العلم بحكمة الله تعالى في شرعه حيث شرّع لكل قوم ما يناسب أحوالهم ، كما قال الله تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٣].

الثالثة: شكر نعمة الله في ذلك.

الرابعة: الهداية إلى الصراط المستقيم والدين القويم الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى لعباده.

الخامسة: السلامة من الضلال والانحراف والتخبط الذي يقع فيه البشر بسبب بعدهم عن شريعة الله المذكورة في كتبه المنزلة.

---

[١] سورة النساء: ٨٠ .

[٢] استفدت جُلَّ هذا الفصل من كتاب «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٥ ، و «شرح أصول الإيمان» ، ص ٣١ ، الناشر: دار ابن خزيمة – الرياض.

[٣] سورة المائدة: ٤٨ .

الركن الرابع: الإيمان بالرُّسُـل

الرُّسُـل جمع (رسول) بمعنى (مُرسَل) وهو المبعوث بإبلاغ شيء ، والمراد هنا: مَن أُوحي إليه من البشر بشرعٍ ، وأُمِر بتبليغِهِ.[1]

ستة عشر فائدة في النبوات

١. الغاية من إرسال الرسل

الرسل وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ شرعه إليهم وإرشادهم إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم ، لأن الناس مهما أوتوا من العلم والذكاء فلا يمكن أن تستقل عقولهم بتشريع عام مُوحَّد تنتظم به مصالح الأمة على أحسن ما يكون ، وذلك لأن عقول البشر قاصرة ، أما الله فهو الحكيم الخبير العليم بمصالح خلقه ، قال تعالى ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[2].

فمن رحمة الله تعالى أن أرسل الرسل ليبلغوا الناس ما ينفعهم ، وبهذا كانوا حجة لله على الناس ، كما قال تعالى ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما﴾[3].

---

[1] انظر «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٥ .

[2] سورة الملك: ١٤ .

[3] سورة النساء: ١٦٥ .

٢. بيان الفرق بين النبي والرسول

اختلف العلماء رحمهم الله في تعريف النبي على عدة أقوال ، والذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هو أن النبي هو الذي أَوحى الله إليه بوحيٍ ، لينقله إلى المؤمنين الذين عنده ، كأنبياء بني إسرائيل ، يأمرون أقوامهم بما جاء في التوراة التي أُنزِلت على موسى ﷺ .

وكذا اختلف العلماء في تعريف الرسول على عدة أقوال ، والذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هو أن الرسول هو الذي ينبئه الله ، ثم يأمره أن يبلغه رسالته إلى قوم كافرين كما حصل مع نوح وإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

ويشهد لصحة هذا المعنى أن نوحا وُصف بالرسالة مع أنه قد تقدمه أنبياء على مدى عشرة قرون ، منهم شيث وإدريس عليهما السلام ، وما ذاك إلا لأنه بُعِث لقوم كافرين أول ما وقع الشرك في الأرض ، بخلاف من تقدمه من الأنبياء ، فإنهم بُعِثوا إلى قوم مؤمنين.

وعلى هذا فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا.[١]

٣. **أول الرسل نوح** ، قال الله تعالى ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾[٢].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم ليشفع لهم فيعتذر إليهم ويقول: ائتوا نوحًا ، فإنه **أول رسول** بعثه الله إلى أهل الأرض.[٣]

فإن قيل: أليس آدم عليه السلام أول رسول لبني آدم؟

فالجواب ما قاله الإمام الشنقيطي رحمه الله:

الظاهر أنه لا طريق للجمع إلا من وجهين:

---

[١] انظر كتابه «النبوات» ، (٢/٧١٤ ، ٧١٧) ، تحقيق د. عبد العزيز بن صالح الطويان ، الناشر: دار العاصمة – الرياض.

وانظر للاستزادة في هذا الباب ما قاله الشنقيطي رحمه الله في كتابه «أضواء البيان» في تفسير قوله تعالى في سورة الحج ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾.

وانظر كذلك تفسير ابن كثير لقول الله تعالى ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ ، فقد قال رحمه الله: مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ، ولا ينعكس. انتهى.

[٢] سورة النساء: ١٦٣ .

[٣] أخرجه البخاري (٤٤٧٦) ، ومسلم (١٩٣) ، ولفظ مسلم: فيأتون نوحا عليه السلام ، فيقولون: يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ... الحديث.

الأول: أن آدم أُرسِل لزوجه وذريته في الجنة ، ونوح أول رسول أُرسِل في الأرض ، ويدل لهذا الجمع ما ثبت في الصحيحين وغيرهما: (ويقول: ولكن ائتوا نوحا ، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ...) الحديث.

فقوله: (إلى أهل الأرض) لو لم يُرَد به الاحتراز عن رسولٍ بُعِث لغير أهل الأرض لكان ذلك الكلام حشوا ، بل يُفهم من مفهومِ مخالفته ما ذكرنا.

الوجه الثاني: أن آدم أُرسِل إلى ذريته وهم على الفطرة ، لم يصدر منهم كفر فأطاعوه ، ونوح هو أول رسولٍ أُرسِل لقوم كافرين ينهاهم عن الإشراك بالله تعالى ويأمرهم بإخلاص العبادة له وحده ، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة﴾ الآية ، أي: على الدين الحنيف حتى كفر قوم نوح ، وقوله ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين﴾ الآية. والله تعالى أعلم.[1]

٤. **وآخر الرسل والأنبياء محمد ﷺ** ، قال تعالى ﴿ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ من رجَالِكُمْ وَلَكِن رسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّين﴾[2].[3]

٥. **ولم تخلُ أمة من رسول** يبعثه الله تعالى بشريعة مستقلة إلى قومه ، أو نبي يوحَى إليه بشريعة مَن قبله ليجددها ، قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾[4] ، وقال تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[5] ، وقال تعالى ﴿إِنَّا أَنزلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾[6].

٦. **ودعوة الرسل واحدة** ، وهي الدعوة إلى توحيد الألوهية ، كما دل على ذلك قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[7].

---

[1] باختصار يسير من كتابه «أضواء البيان» ، تفسير سورة البقرة: ٢٥٣ .

[2] سورة الأحزاب: ٤٠ .

[3] **تنبيه**: لم يقل (وخاتم المرسلين) ، لأن النبوة إذا ختمت فقد ختمت الرسالة من باب أولى.
فإن قيل: كيف الجمع بين كون محمد ﷺ خاتم النبيين ونزول عيسى ﷺ في آخر الزمان؟
فالجواب أن عيسى ﷺ لا ينزل بشريعة مستقلة ، بل ينزل ويحكم بشريعة محمد ﷺ ، فهو تابع لمحمد ﷺ .
انظر «فتاوى الحرم المكي» (٣٧/١) لابن عثيمين ، وكذا «شرح الواسطية» (٦٦/١).

[4] سورة النحل: ٣٦ .

[5] سورة فاطر: ٢٤ .

[6] سورة المائدة: ٤٤ .

[7] سورة الأنبياء: ٢٥ .

٧. **والرسل بشر اصطفاهم الله لحمل الرسالة** ، وحباهم قدرة على القيام بأعبائها والصبر على مشاقِّها ، لاسيما أولو العزم منهم[١] ، قال تعالى ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس﴾[٢].

٨. **والرسل بشر مخلوقون** ، ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء ، قال تعالى عن نبيه محمد ﷺ – وهو سيد المرسلين وأعظمهم جاهًا عند الله – ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٣] ، وقال تعالى ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[٤].

٩. **والرسل تلحقهم خصائص البشرية** من المرض والموت والحاجة إلى الطعام والشراب وغير ذلك ، قال الله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في وصفه لربه تعالى ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[٥].

وقال النبي ﷺ : إنما أنا بشر مثلكم ، أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني.[٦]

١٠. **وقد وصف الله تعالى رسله بالعبودية له في سياق الثناء عليهم** ، فقال تعالى في نوح ﷺ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورا﴾[٧] ، وقال في محمد ﷺ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نزلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرا﴾[٨] ، ، وقال في إبراهيم وإسحاق ويعقوب صلى الله عليهم وسلم ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَار﴾[٩] ، وقال في عيسى ابن مريم ﷺ ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيل﴾[١٠].

---

[١] سيأتي التعريف بهم قريبا إن شاء الله.

[٢] سورة الحج: ٧٥ .

[٣] سورة الأعراف: ١٨٨ .

[٤] سورة الجن: ٢١-٢٢ .

[٥] سورة الشعراء: ٧٩-٨١ .

[٦] رواه البخاري (٤٠١) ، ومسلم (٥٧٢) ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

[٧] سورة الإسراء:٣ .

[٨] سورة الفرقان: ١ .

[٩] سورة ص: ٤٥ .

[١٠] سورة الزخرف: ٥٩ .

فالرسل عبيد لله ، وعليه فلا يجوز أن يُصرف لهم شيء من العبادات ، لا دعاء ولا ذبح ولا نذر ولا سجود ولا غيرها من العبادات ، بل المستحق لذلك هو الله وحده ، وهذا أمر مُجمع عليه في جميع الشرائع السماوية كما قال تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[1].

١١. **وقد فضل الله بعض النبيين على بعض** ، كما قال تعالى ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾[2].

١٢. **وأفضل الرسل هم أولو العزم وهم خمسة** ، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، صلى الله عليهم وسلم ، وقد ذكرهم الله تعالى في موضعين من القرآن ؛ في سورة الأحزاب وفي سورة الشورى ، في قوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[3] ، وفي قوله ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[4].

ودلائل تفضيل هؤلاء الخمسة على غيرهم من الأنبياء وكونهم من أولي العزم واضحة ، فمحمد ﷺ قد تقدم الكلام عنه.

وأما نوح ﷺ فإنه أول رسول بُعث إلى أهل الأرض بعدما طرأ الشرك عليهم ، وقد لبث نحو عشرة قرون يدعو إلى التوحيد.

وأما إبراهيم ﷺ فإنه أبو الأنبياء كلهم ممن أتى بعده ، ولهذا أخبر تعالى عنه أنه جعل في ذريته النبوة والكتاب ، قال تعالى ﴿ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾[5].

كما أن إبراهيم عليه السلام كان صِدِّيقا ، وهي صيغة مبالغة من الصِّدق ، لشدة صدقه في معاملته مع ربه ، وقد شهد له الله بذلك في قوله تعالى ﴿وإبراهيم الذي وفَّى﴾ ، وقوله ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه

---

[1] سورة الأنبياء: ٢٥ .

[2] سورة الإسراء: ٥٥ .

[3] سورة الأحزاب: ٧ .

[4] سورة الشورى: ١٣ ، وانظر تقرير ابن كثير لهذه المسألة عند تفسيره لقوله تعالى ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾. سورة الأحقاف ، الآية ٣٥ .

[5] سورة الحديد: ٢٦ ، وانظر ما قاله العلامة الشنقيطي رحمه الله في هذا الباب في كتابه «دفع إيهام الإضطراب عن آيات الكتاب» ، سورة العنكبوت.

بكلمات فأتمَّهن﴾ ، ودلائل صدقه في معاملته مـع ربه عديدة ، منها رضاه بذبح ولده استـجابةً لأمر ربه ، وصبره على الإلقاء في النار ، وصبره على مفارقة الأهل والوطن فرارا بدينه.[1]

وأما موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام فوجْـهُ تفضيلهما على غيرهما من الأنبياء أن الله تعالى أرسلهما إلى أعظم أمة بعد أمة محمد ﷺ ، وهي أمة بني إسرائيل ، وأنزل عليهما أفضل الكتب بعد القرآن وهما التوراة والإنجيل ، وقد لقيا في سبيل تحمل أعباء الدعوة من المشاق الشيء العظيم مما هو مذكور في القرآن العظيم.[2]

وموسى أفضل من عيسى عليهما الصلاة والسلام ، وذلك ظاهر في كون الآيات التي آتاها الله تعالى لموسى أعظم من الآيات التي آتاها الله لعيسى ، قال ابن تيمية رحمه الله:

وأهل الكتاب عندهم في كتبهم أن غير المسيح أحيا الله على يديه الموتى ، وموسى بن عمران من جملة آياته العصا التي انقلبت فصارت ثعبانا مبينا حتى بلعت الحبال والعِصِي التي للسحرة ، وكان غير مرة يلقيها فتصير ثعبانا ثم يمسكها فتعود عصا.

ومعلوم أن هذه آية لم تكن لغيره ، وهي أعظم من إحياء الموتى ، فإن الإنسان كانت فيه الحياة ، فإذا عاش فقد عاد إلى مثل حاله الأول ، والله تعالى يحيي الموتى بإقامتهم من قبورهم ، وقد أحيا غير واحد من الموتى في الدنيا ، وأما انقلاب خشبة تصير حيوانا ثم تعود خشبة مرة بعد مرة وتبتلع الحبال والعصي فهذا أعجب من حياة الميت.

وأيضا فالله قد أخبر أنه أحيا من الموتى على يد موسى وغيره من أنبياء بني إسرائيل أعظم ممن أحياهم على يد المسيح ، قال تعالى ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾[3] ، وقال تعالى ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى﴾[4] ، وقال تعالى ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾[5].

---

[1] انظر ما قاله العلامة الشنقيطي رحمه الله في هذا الباب في كتابه «أضواء البيان» ، تفسير سورة مريم ، تفسير قوله تعالى ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا﴾.

[2] انظر للفائدة ما قاله العلامة الشنقيطي رحمه الله في علة كون آدم عليه السلام ليس من أولي العزم في كتابه «أضواء البيان» ، تفسير سورة طه ، تفسير قوله تعالى ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما﴾.

[3] سورة البقرة: ٥٥ – ٥٦ .

[4] سورة البقرة: ٧٣ .

[5] سورة البقرة: ٢٤٣ .

وأيضا فموسى عليه الصلاة والسلام كان يُخرج يده بيضاء من غير سوء ، وهذا أعظم من إبراء أثر البرص الذي فعله المسيح عليه السلام ، فإن البرص مرض معتاد ، وإنما العَجَب الإبراء منه ، وأما بياض اليد من غير برص ثم عودها إلى حالها الأول ، ففيه أمران عجيبان لا يُعرف لهما نظير.

وأيضا فموسى فلق الله له البحر حتى عبر فيه بنو إسرائيل وغرِق فيه فرعون وجنوده ، وهذا أمر باهر فيه من عظمة هذه الآية ومن إهلاك الله لعدو موسى ما لم يكن مثله للمسيح.

وأيضا فموسى كان الله يُطعمهم على يده المَنَّ والسلوى[1] مع كثرة بني إسرائيل ، ويفجر لهم بضربه للحَجر كل يوم اثني عشر عينا يكفيهم ، وهذا أعظم من إنزال المسيح عليه السلام للمائدة ، ومن قلب الماء خمرا ونحو ذلك مما يحكى عنه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وكان لموسى في عدوه من القُمَّل والضفادع[2] والدم وسائر الآيات ما لم يكن مثله للمسيح.[3]

---

[1] المَنُّ هو نبات الكمأ ، وهو نوع من الخضروات يخرج من الأرض أيام الأمطار بدون سقي ولا بذر ، وهي مما مَنَّ الله بها على عباده ، وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: الكمْأة من المَن ، وماؤها شفاءٌ للعين. رواه البخاري (٤٨٧٤) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه. وانظر «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير.

والسلوى طائر كالسُّمَّانى. قاله الأصبهاني في «المفردات في غريب القرآن».

[2] انظر الكلام على هاتين الآيتين في الحاشية التالية.

[3] أشار الله تعالى إلى آيات موسى التسع الدالة على نبوته في موضعين من القرآن:

الأول: في سورة الإسراء ، الآية رقم ١٠١ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾.

والآية الثانية في سورة النمل ، الآية رقم ١٢ : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

ومعنى الآيتين: ولقد آتينا موسى تسع معجزات واضحات شاهدات على صِدْق نبوته وهي: العصا واليد والسنوات العجاف التي ابتلى بها الله آل فرعون ، ثم كشفها الله عنهم بسبب دعاء موسى لهم ، ونقص الثمرات عليهم والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم الذي ابتلاهم الله به.

فأما آية العصا فمعروفة.

وأما آية اليد فهي إدخال موسى يده في جيبه فتخرج بيضاء كالثلج من غير بَرَص ولا مرض.

وأما الآيات السبع الباقية فهي التي ذكرها الله في القرآن في سورة الأعراف في قوله تعالى ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسّنين ونقص من الثمرات لعلهم يذَّكَّرون * فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطَّيَّروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون * وقالوا مهما تأتِنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين * فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين * ولما وقع عليهم الرِّجزُ قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهِد عندك إلئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنُرسِلن معك بني إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرِّجزَ إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون * فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾.

انتهى كلامه رحمه الله.[1]

١٣. **وأفضل الرسل قاطبة هما الخليلين** ، إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، لأن الله لم يتخذ خليلين إلا هما عليهما الصلاة والسلام.

١٤. **وأفضل الخليلين هو محمد** ﷺ ، فقد فضله الله على جميع الخلق أولهم وآخرهم ، الأنبياء وغيرهم ، فهو إمامهم وسيدهم ، كما قال ﷺ : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة)[2].

وتفسير الآيات المتقدمة كالتالي: ولقد ابتلينا فرعون وقومه بآيتين وهما **القحط ونَقْص الثمار** ، ليتذكروا ، وينزجروا عن ضلالاتهم ، ويفزعوا إلى ربهم بالتوبة.

فإذا جاء فرعونَ وقومَه سنة فيها خِصب وسعة رزق قالوا: هذا لنا بما نستحقه ، وإن يُصِبْهم جدب وقحط يتطيروا أي يتشاءموا ، ويقولوا: هذا بسبب موسى ومَن معه. فرد الله عليهم أن ما يصيبهم من الجدب والقحط إنما هو بقضاء الله وقدره ، وبسبب ذنوبهم وكفرهم ، ولكن أكثر قوم فرعون لا يعلمون ذلك ، لانغمارهم في الجهل والضلال.

وقال قوم فرعون لموسى: أيُّ آيةٍ ودلالةٍ وحجةٍ تأتِنا بها لتصرفنا عما نحن عليه من ديننا ، فما نحن لك بمصدِّقين بها.

فأوقع الله عليهم الرِّجز ، وهو خمس من البلايا ، أولها **الطوفان** ، وهو سيل جارفٌ أغرق الزروع والثمار ، وكذلك **الجراد** ، فأكل زروعهم وثمارهم وأبوابهم وسقوفهم وثيابهم ، وأرسل عليهم **القُمَّل** الذي يفسد الثمار ويقضي على الحيوان والنبات ، وأرسل عليهم **الضفادع** فملأت آنيتهم وأطعمتهم ومضاجعهم ، وأرسل عليهم **الدم** فصارت أنهارهم وآبارهم دمًا ، ولم يجدوا ماء صالحًا للشرب.

هذه البلايا التي ابتلى الله بها بني إسرائيل هي آيات من آيات الله لا يقدر عليها غيره ، ودالات على أن موسى نبي من عند الله ، عصاه فرعون وقومه فابتلاهم الله بها.

ولما نزل العذاب على فرعون وقومه فزِعوا إلى موسى وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك بما أوحى به إليك مِن رَفْع العذاب بالتوبة ، لئن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه لنصَدِّقنَّ بما جئت به ، ونتبع ما دعوت إليه ، ولنطلقنَّ معك بني إسرائيل ، فلا نمنعهم من أن يذهبوا حيث شاؤوا.

فلما رفع الله عنهم العذاب الذى أنزله بهم إلى أجلٍ إذا هم ينقضون عهودهم التي عاهدوا عليها ربهم وموسى ، ويقيمون على كفرهم وضلالهم ، فانتقمنا منهم حين جاء الأجل المحدد لإهلاكهم ، وذلك بإحلال نقمتنا عليهم ، وهي إغراقهم في البحر ، بسبب تكذيبهم بالمعجزات التي ظهرت على يد موسى ، والدالة على نبوته.

ثم أورثنا بني إسرائيل – الذين كانوا يُستَذَلُّون لخدمة قوم فرعون – مشارق الأرض ومغاربها ، وهي بلاد الشام التي باركنا فيها ، بإخراج الزروع والثمار والأنهار ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بالتمكين لهم في الأرض بسبب صبرهم على أذى فرعون وقومه ، ودمَّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه من العمارات والمزارع ، وما كانوا يبنون من الأبنية والقصور ويتخذونها عروشا لملكهم.

تنبيه: قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية المتقدمة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ ، قال:

وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أُخَـر كثيرة ، منها ضربه الحجر بالعصا ، وخروج الماء منه ، ومنها تظليلهم بالغمام ، وإنزال المن والسلوى ، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر ، ولكن ذكر هٰهنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر ، وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرا وجحودا. انتهى.

[1] انظر ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله في «الجواب الصحيح» (٤/١٧ – ١٩).

[2] رواه مسلم (٢٢٧٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

كما اختصه الله بآيات تفوق تلك التي آتاها الله غيره من الأنبياء ، وآمن عليها أكثر ما آمن عليه البشر ، وأعظمها القرآن الكريم ، ومن المعلوم أن آيات الأنبياء انتهت بموتهم ، أما القرآن فآية خالدة.

ومن دلائل تفضيله ﷺ على سائر الأنبياء أن الله تعالى جمع فيه ما تفرق في غيره من الأنبياء من الخصائص ، وهو الخُلَّة والكلام والنبوة والرسالة ، فأما الخلة – وهي أعلى درجات المحبة – فهو خليل الله ، والله خليله ، وهو يشترك في هذه الخصلة مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، قال ﷺ : وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلا.[1]

وكذلك الكلام ؛ فقد كلمه الله يوم عُرِج به إلى السماء وفرضت عليه الصلوات الخمس ، وهو يشترك في هذه الخصلة مع موسى عليه الصلاة والسلام.

وأما وصفه بالنبوة والرسالة فمعلوم من آيات كثيرة ، كقوله تعالى ﴿يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ ، وقوله ﴿وأرسلناك للناس رسولا﴾.

وهذه الصفات الأربع ، الخُلَّة والكلام والنبوة والرسالة ، لم تجتمع في نبي قط إلا في نبينا محمد ﷺ ، وهذا من دلائل تفضيله على سائر الأنبياء.

فإن قيل: وما الجمع بين ما نصَّ عليه القرآن الكريم من تفضيل بعض الأنبياء على بعض وبين ما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا تُفضِّلوا بين أنبياء الله)[2]؟

فالجواب من كلام ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية المتقدمة: المراد من ذلك[3] هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية لا بمقتضى الدليل ، فإذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه ، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء ، وأن أولي العزم منهم أفضلهم. انتهى كلامه.

فائدة

كثيرا ما يقرن الله سبحانه وتعالى في القرآن بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﷺ ، وبين كتابيهما وشريعتيهما ، لأن كتابيهما أفضل الكتب ، وشريعتيهما أكمل الشرائع ، ونبوتيهما أعلى النبوات ، وأتباعهما أكثر المؤمنين.[4]

---

[1] رواه مسلم (٢٣٨٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

[2] رواه البخاري (٣٤١٤) ومسلم (٢٣٧٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[3] أي: من ذلك النهي.

[4] قاله الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله في تفسيره في مقدمة تفسير سورة الإسراء.

١٥. فائدة في انقسام الأنبياء إلى عبدٍ رسولٍ ونبيٍّ ملِكٍ ، وأفضلية من كان عبدا رسولا على من كان ملِكا نبيا

الأنبياء والرسل ينقسمون إلى عبد رسول ونبي ملِك ، والدليل على هذا التقسيم حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء ، فإذا ملَكٌ ينزِل ، فقال له جبريل: إن هذا الملَك ما نزل منذ يوم خُلِق قبل الساعة ، فلما نزل قال: يا محمد ، أرسلَني إليك ربك ، أفملِكا نبيا يجعلُك أو عبدا رسولا؟

قال جبريل: تواضع لربك يا محمد.

فقال رسول الله ﷺ : بل عبدا رسولا.[١]

قلت: والعبد الرسول أفضل من الملِك النبي من وجهين:

الأول: أن الرسول يكون مبعوثا إلى قوم كافرين ، وأما النبي فيكون مبعوثا إلى قوم مؤمنين ، فمهمة الرسول أصعب فلهذا كان أفضل ، وقد تقدم معنا بيان الفرق بين النبي والرسول.

الوجه الثاني: أنَّ من كان عبدا فإنه لا يتصرف فيما تحت مُلكه إلا بإذن الله ، قال ﷺ : إنما أنا قاسم ، والله يعطي.[٢]

وأما من كان ملِكا فإنه يتصرف كما يشاء من غير إثم عليه.

فحال الأول أكمل من حال الثاني فيما يتعلق بالعبودية لله تعالى.

قال ابن تيمية رحمه الله في مسألة انقسام الأنبياء عليهم السلام إلى عبدٍ رسول ونبيٍ ملِك:

العبد الرسول أكمل من النبي الملِك ، ويوسف وداود وسليمان عليهم السلام أنبياء ملوك.

وأما محمد ﷺ فهو عبدٌ رسول ،كإبراهيم وموسى والمسيح عليهم السلام ، وهذا الصنف أفضل ، وأتباعهم أفضل.[٣]

وقال أيضا: وقد خيَّر الله سبحانه محمدا ﷺ بين أن يكون عبدا رسولا وبين أن يكون نبيا ملِكا ، فاختار أن يكون عبدا رسولا.

فالنبي الملِك مثل داود وسليمان ونحوهما عليهما الصلاة والسلام ، قال الله تعالى في قصة سليمان الذي ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّاب * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي

---

[١] رواه أحمد (١٢/٧٧) ، وقال محققو «المسند»: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

[٢] رواه البخاري (٧١).

[٣] «النبوات» (١/١٦٣).

بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَاب * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاص * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَاد * هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَاب﴾.

أي: أعطِ مَن شئت ، واحرم من شِئت ، لا حساب عليك.

فالنبي الملِك يفعل ما فرض الله عليه ، ويترك ما حرَّم الله عليه ، ويتصرف في الولاية والمال بما يحبه ويختار من غير إثم عليه.

وأما العبد الرسول فلا يُعطي أحدا إلا بأمر ربه ، ولا يُعطي من يشاء ويَحرم من يشاء...

ثم قال: والمقصود هنا أن العبد الرسول هو أفضل من النبي الملِك ، كما أن إبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا عليهم الصلاة والسلام أفضل من يوسف وداود وسليمان عليهم السلام ، كما أن المقربين السابقين أفضل من الأبرار أصحاب اليمين ، الذين ليسوا مقربين سابقين ، فمن أدى ما أوجب الله عليه وفعل من المباحات ما يحبه فهو من هؤلاء[1] ، ومن كان إنما يفعل ما يحبه الله ويرضاه ويقصد أن يستعين بما أُبيح له على ما أمره الله فهو من أولئك[2].[3]

وقال أيضا: والذي أوتيه ﷺ أعظم مما أوتيه سليمان ، فإنه استعمل الجن والإنس في عبادة الله وحده ، وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، لا لغرض يَرجع إليه إلا ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته.[4]

وقال أيضا: طاعة الجن لسليمان عليه السلام طاعة مَلَكية ، أما طاعة الجن لنبينا ﷺ فإنها طاعة نبوية.[5]

قلت: ومصداق ذلك في كتاب الله قوله تعالى عن الجن ﴿يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾.[6]

وقال تعالى عنهم في سورة الجن ﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا﴾ ... الآيات.

وقال أيضا ما محصَّلُه أن النبي ﷺ لم يستخلف من بعده أحدا من أهل بيته ولم يُخَلِّف لهم مالا ، وإن كان ذلك مباحا في حقه ﷺ ، فدل ذلك على حرصه على مقام العبودية والرسالة على مقام الملك والنبوة.[7]

---

[1] أي من الأبرار أصحاب اليمين.

[2] أي من المقربين السابقين.

[3] انظر «مجموع الفتاوى» (١١/١٨٠-١٨٢).

[4] انظر «مجموع الفتاوى» (١٣/٨٩).

[5] انظر كتاب «النبوات» ، ص ٨٤١ .

[6] سورة الأحقاف: ٣٠ – ٣١ .

[7] انظر «منهاج السنة النبوية» (٧/٤٦٧).

١٦. **والرسل غالبون دائما** ، كما قال تعالى ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾[١] قال الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية الكريمة:

قد دلت هذه الآية الكريمة على أن رُسُلِ الله غالبون لكل من غالبهم ، والغلبة نوعان: غلبة بالحجة والبيان ، وهي ثابتة لجميع الرسل ، وغلبة بالسيف والسنان ، وهي ثابتة لمن أُمِر بالقتال منهم دون من لم يؤمر به ، وقد دلت هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات كقوله تعالى ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون﴾[٢] أنه لن يقتل نبي في جهاد قط ، لأن المقتول ليس بغالب ، لأن القتل قِسمٌ مقابلٌ للغلبةِ كما بينه تعالى في قوله ﴿ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب﴾[٣] الآية ، وقال تعالى ﴿إنا لننصر رسلنا﴾[٤] الآية ، وقد نفى عن المنصور كونه مغلوبا نفيا باتا في قوله تعالى ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾[٥].[٦]

وقال ابن تيمية ما محصَّله أن ظهور الأنبياء على من خالفهم بالحجة والعلم من جنس المجاهد الذي هزم عدوه ، وظهور الأنبياء على من خالفهم بالسيف وغلبتَهم عليهم من جنس المجاهد الذي قتل عدوه.[٧]

فائدة

سَرَد الحافظ ابن حجر رحمه الله جملة فوائد من غزوة أحد منها "أن عادة الرسل أن تُبتلى وتكون لها العاقبة ، والحكمة في ذلك: أنهم لو انتصروا دائما دخل في المؤمنين من ليس منهم[٨] ، ولم يتميز الصادق من غيره ، ولو انكسروا دائما لم يحصل المقصود من البعثة ، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب".[٩]

فصل في بيان ما يتضمنه الإيمان بالرسل

الإيمان بالرسل يتضمن سبعة أمور:

---

[١] سورة المجادلة: ٢١ .

[٢] سورة الصافات: ١٧١ – ١٧٣ .

[٣] سورة النساء: ٧٤ .

[٤] سورة غافر: ٥١ .

[٥] سورة آل عمران: ١٦٠ .

[٦] انظر «أضواء البيان».

[٧] انظر «النبوات» ، ص ٢٠٩ .

[٨] يعني من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

[٩] باختصار يسير من «فتح الباري» ، كتاب المغازي ، تحت قوله: (باب غزوة أحد).

الأول: الإيمان بأن الأنبياء كلهم بينهم قاسم مشترك ، وهو الإسلام بمعناه العام ، وهو الاستسلام لله بالتوحيد (وهو إفراد الله بالعبادة وترك عبادة من سواه كائنا من كان) ، قال الله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[1].

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا الاتفاق في أصل الدين بين الأنبياء في قوله: والأنبياء إخوة لِـعَلاَّت ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد.[2]

ففي هذا الحديث شبه النبي ﷺ الأنبياء بالإخوة من العَلاَّت ، وهن الأمهات الذين لهم زوج واحد ، فالأمهات هن الشرائع ، والأب واحد وهو الإسلام بمعناه العام الذي تقدم آنفا ، وهو الاستسلام لله بالتوحيد (وهو إفراد الله بالعبادة).

فبناء على هذه القاعدة فالأنبياء جميعهم من آدم إلى محمد مرورا بإبراهيم وموسى وعيسى كلهم مشتركون مع الدين الإسلامي الذي جاء به محمد في التمسك بالإسلام بمعناه العام ، ليس بينهم فرق إذا نظرنا إليهم من هذا الجانب ، في حين أن لكل أمة من الأمم التي أُرسِل إليها الأنبياء شريعة ومِنهاجا غير التي مع الأمة الأخرى ، كما قال تعالى ﴿لكل جعلنا منكم شِرعة ومنهاجا﴾. أي: فقد جعلنا لكل أمة شريعة وطريقة يعملون بها ، وهذا من حكمة الله تعالى في شرعه ، حيث شرّع لكل قوم ما يناسب أحوالهم.

الثاني: الإيمان بهم جميعا من غير تفريق بينهم ، وضد هذا الإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم الآخر ولو كان نبيا واحدا ، قال تعالى في وجوب الإيمان بجميع الأنبياء ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾.

قال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿لا نُفرِّق بَينَ أحد منهم﴾: لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض ونتبرأ من بعضٍ ونتولى بعضًا ، كما تبرأت اليهودُ من عيسى ومحمد عليهما السلام وأقرّت بغيرهما من الأنبياء ، وكما تبرأت النصارَى من محمد ﷺ وأقرّت بغيره من الأنبياء ، **بل نشهد لجميعهم أنّهم كانوا رسلَ الله وأنبياءَه ، بُـعِـثوا بالحق والهدى**. انتهى.

قلت: ووجه كون عدم الإيمان برسول واحد كفرا أن هذا الفعل يقتضي الامتناع من قبول رسالة من رسالات الله ، وهي الرسالة التي بُعِث بها ذلك الرسول ، والاعتراض على عبودية الله التي أمر بها ذلك الرسول قومه.

---

[1] سورة الأنبياء: ٢٥.

[2] تقدم تخريجه.

قال ابن تيمية رحمه الله:

من صدّق محمدا فقد صدّق كل نبي ، ومن أطاعه فقد أطاع كل نبي ، ومن كذّبه فقد كذّب كل نبي ، ومن عصاه[1] فقد عصى كل نبي ، قال تعالى ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا﴾[2] ، وقال تعالى ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون﴾[3].

ومن كذَّب هؤلاء تكذيبا بجنس الرسالة فقد صرَّح بأنه يكذب الجميع ، ولهذا يقول تعالى ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ ، ولم يرسل إليهم قبل نوح أحدا ، وقال تعالى ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم﴾[4].[5]

قلت: ونظيره قول الله تعالى ﴿كذبت عاد المرسلين﴾ ، وقوله ﴿كذبت ثمود المرسلين﴾ ونحو ذلك من الآيات.

وقال العلامة الشنقيطي رحمه الله:

من كذَّب رسولا واحدا فقد كذَّب جميع المرسلين ، ومن كذَّب نذيرا واحدا فقد كذَّب جميع النذر ، لأن أصل دعوة جميع الرسل واحدة ، وهي مضمون «لا إله إلا الله» كما أوضحه تعالى بقوله ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[6] ، وقوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[7] وقوله تعالى ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمٰن آلهة يُعبدون﴾[8].

وأوضح تعالى أن من كذَّب بعضَهم فقد كذَّب جميعهم في قوله تعالى ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا﴾ الآية[9] ، وأشار إلى ذلك في قوله ﴿لا

---

[1] أي عصيانا كليا.

[2] سورة النساء: ١٥٠ – ١٥١ .

[3] سورة البقرة: ٨٥ .

[4] سورة الفرقان: ٣٧ .

[5] قاله ابن تيمية رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (١٨٥/١٩).

[6] سورة النحل: ٣٦ .

[7] سورة الأنبياء: ٢٥ .

[8] سورة الزخرف: ٤٥ .

[9] سورة النساء: ١٥٠ – ١٥١ .

نفرق بين أحد من رسله﴾[1] ، وقوله ﴿لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾[2] ، وقوله تعالى ﴿والذين ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم﴾[3] الآية. انتهى كلامه رحمه الله.[4]

تنبيه: النصارى كذبوا محمدًا ﷺ ولم يَتّبعوه ، فهم بهذا مكذبون للمسيح بن مريم غير متبعين له أيضًا ، لأنه قد بشرهم بمحمد ﷺ وأمرهم بالإيمان به فلم يتبعوه ، نسأل الله العافية والسلامة.

وكذلك الأمر بالنسبة لليهود ، فهم لم يصدقوا بنبوة محمد ﷺ ولا بنبوة المسيح عيسى بن مريم ﷺ ، فهم بهذا كفار ليسوا مؤمنين ، ولو كانوا يؤمنون بموسى والأنبياء قبله.

ووجه كون عدم الإيـمان برسول واحد كفرا أن هذا الفعل يقتضي الامتناع من قبول رسالة من رسالات الله ، وهي الرسالة التي بها ذلك الرسول ، والاعتراض على عبودية الله التي أمر بها ذلك الرسول قومه.

الثالث مما يتضمنه الإيمان بالرسل: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم في القرآن أو صحيح السنة ، فأما القرآن فجاء فيه ذكر ستة وعشرين نبيا ، وهم آدمُ ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل وداود وسليمان وأيوب وإلياس ويونس واليسع ولوط وإدريسُ وهودٌ وشعيبٌ وصالحٌ وذو الكِفلِ ويوسف وموسى وهارون والخِضر وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد ، صلى الله عليهم وسلم تسليما كثيرا.

وقد نظم أحد الشعراء أسماء خمسة وعشرين نبيا ورد ذكرهم في القرآن في نظمٍ لطيف فقال:

في ﴿تلك حجتنا﴾[5] منهُمُ ثمانيةٌ من بعدِ عشرٍ يبقى سبعةٌ وهُمُ

إدريسُ هودٌ شعيبٌ صالحٌ وكذا ذو الكِفلِ آدمُ وبالمختارِ قد خُتِموا

وقد جاء في السُّنَّـة ذكر نبي من الأنبياء لم يأت ذكره في القرآن ، وهو يوشـــع بن نون بن أفراهيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام[6] ، من أنبياء بني إسرائيل ، وكان قائد بني بني إسرائيل بعد وفاة موسى عليه الصلاة والسلام ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : إن الشمس لم تُحبَس على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس.[7]

---

[1] سورة البقرة: ٢٨٥ .

[2] سورة البقرة: ١٣٦ .

[3] سورة النساء: ١٥٢ .

[4] «أضواء البيان» ، تفسير سورة القمر: ٤١ .

[5] يشير إلى الآيات (٨٣ – ٨٦) من سورة الأنعام حيث ورد فيهن أسماء ثمانية عشر رسولا.

[6] رواه أحمد في «المسند» (٣٢٥/٢) ، وقال محققو «المسند»: إسناده صحيح على شرط البخاري.

[7] انظر «البداية والنهاية» ، ذكر نبوة يوشع.

وحبْسُ الشمس إنما هو ليستمر النهار فلا تغرب عليهم فيحل الظلام فلا يستطيعوا فتح البلد التي قصدوها وهي بيت المقدس ، وكانوا في يوم جمعة ، ولو دخل عليهم المغيب لدخل يوم السبت ، فلا يتمكنون معه من القتال ، لأن اليهود محرم عليهم فيه العمل ، فنظر النبي يوشع إلى الشمس ودعى ربه بأن لا تغيب حتى يتم الهجوم والنصر ، وبقدرة الله كان له ذلك ، فحبَس الله الشمس في مكانها حتى قضوا حاجتهم وفتحوا البلد ، والحمد لله.[1]

وأما من لم نعلم اسمه من الأنبياء فنؤمن به إجمالا ، وقد أومأ القرآن إليهم في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً من قَبْلِكَ مِنْهُم من قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم من لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[2].

ويدخل في هؤلاء الذين لم نعلم أسمائهم الأسباط ، وهم الأنبياء من ذرية يعقوب عليهم الصلاة والسلام ، وهو إسرائيل ، إذ السبط في بني إسرائيل يكافىء القبيلة في بني إسماعيل ، والشعوب في العجم ، وسُمُّوا الأسباط بذلك من السَّبط وهو التتابع ، وهم اثنا عشر رَجلا ، وَلَد كل رجل منهم أمّة من الناس ، فسموا أسباطا[3] ، وليس أحد من ذرية يعقوب نبيا إلا يوسف عليه السلام ، كما سيأتي بيانه.[4]

وكان هؤلاء الأسباط متتابعون في ظهورهم حتى جاء المسيح عليه السلام.

فالحاصل أن عدد الأنبياء والرسل المذكورين في الكتاب والسنة سبعة وعشرين ، والحمد لله.

ورسل الله ثلاثمائة وخمسة عشر ، منهم الرسل الذين صرح القرآن والسنة بأسمائهم وقد تقدموا ، والبقية لا نعلمهم ، والدليل على عددهم حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله ، أنبيٌّ كان آدم؟

قال: نعم ، معلَّمٌ مكلَّم.

قال: كم بينه وبين نوح؟

قال: عشرة قرون.

قال: كم كان بين نوح وإبراهيم؟

قال: عشرة قرون.

قالوا: يا رسول الله ، كم كانت الرسل؟

---

[1] وانظر القصة مفصلة في «صحيح البخاري» (٣١٢٤ ، و«مسلم» (١٧٤٧) ، وكذلك «البداية والنهاية» ، ذكر نبوة يوشع.

[2] سورة غافر: ٧٨ .

[3] انظر «تفسير الطبري» ، سورة البقرة: ١٣٦ .

[4] انظر «تفسير ابن كثير» ، سورة يوسف: ٨ .

قال: ثلاثمائة وخمس عشرة ، جمًّا غفيرا.[1]

فائدة في بيان أن الخِضْر كان نبيا عليه والسلام

تقدم ذِكر أن الخِضر من الأنبياء الخِضْر عليه السلام ، وقد جاء ذكره في سورة الكهف في قصة موسى مع الغلام ، كما جاء ذكره في السنة في سرد قصة موسى معه[2] ، وقد عقدت فصلا في آخر مبحث الإيمان بالرسل في إثبات أن الخضر كان نبيا عليه الصلاة والسلام.

ولتمام الفائدة ، فقد ألحقته بفصلٍ في إثبات أن إخوة يوسف عليه السلام ليسوا بأنبياء كما هو مشتهر بين الناس.

الرابع مما يتضمنه الإيمان بالرسل: التصديق بما صح عنهم من أخبارهم ، كالأخبار الواردة في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، والأخبار الصحيحة التي ذكرها أصحاب السِّيَر وكتب التاريخ ، والتي تتضمن قصصهم وخصائصهم ، وأما الأخبار المروية عن الرسل في كتب أهل الكتاب والتي ليس لها ما يعضدها من الأخبار الصحيحة المذكورة في كتب المسلمين فهذه لا يلزم المسلم تصديقها ولا تكذيبها ، إلا إن كانت منافية لما في كتب المسلمين الصحيحة فعندئذ يجب تكذيبها ، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ : «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»[3] الآية.[4]

والمقصود بما أنزل إليهم هما التوراة والإنجيل الأصليين التي أنزلها الله على موسى وعيسى ، وليست التوراة والإنجيل المحرفة التي بأيدي اليهود والنصارى الآن.

الخامس من مقتضيات الإيمان بالرسل: العمل بشريعة من أُرسل إلينا منهم ، وهو خاتمهم محمد ﷺ المرسل إلى جميع الناس ، قال الله تعالى ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[5].

السادس مما يتضمنه الإيمان بالرسل: الإيمان بأنهم بلَّغوا جميع ما أرسلوا به على وَفْق ما أمرهم الله به ، وأنهم بينوه بيانا شافيا لا يسع أحدا ممن أرسلوا إليه جهله ، قال تعالى ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ

---

[1] رواه الحاكم في «مستدركه» (٢/٢٦٢) ، واللفظ له ، وقال الذهبي: على شرط مسلم ، وكذا رواه الطبراني في «الكبير» (٨/١١٨-١١٩) ، وفيه: (ثلاثمائة وثلاثة عشر) ، وصححه الألباني كما في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٦٨).

[2] القصة رواها البخاري (٧٤) ومسلم (٢٣٨٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

[3] لعل هناك خطأ من النساخ ، فلفظ الآية ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم﴾ الآية (١٣٦) من سورة البقرة. وانظر تعليق محققي صحيح البخاري على الحديث ، طبعة مؤسسة الرسالة العالمية.

[4] رواه البخاري (٧٣٦٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[5] سورة النساء: ٦٥ .

المبين﴾[1] ، ﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين﴾[2] ، ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾[3] ، ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾[4].[5]

السابع مما يتضمنه الإيمان بالرسل: الإيمان بما أيَّدهم الله به من آيات ، وتسمى أيضا براهين ودلائل[6] ، وهي الأمور الخارقة للعادة التي يجريها الله على أيديهم دلالة على نبوتهم ، ولئلا يبقى أمرُهم مشكلا على الناس ، فإن الناس إذا رأوا رسلهم قد أُيِّدوا بأمور فوق قدرة البشر وطاقتهم ؛ عِلموا أنهم مرسلون من عند الله تعالى ، فاستيقنوا أمرهم وآمنوا بهم وثبتت قلوبهم على الدين.

ومن تلك الآيات عصا موسى التي ألقاها بين أيدي سحرة فرعون فإذا هي حية تسعى ، تلقف وتلتهم ما ألقَوه من الحبال والعصي ، فآمنوا ، لأنهم عِلموا أن ما أتى به موسى من عند الله وليس سحرا ، وبعد إيمانهم بقيت العصا معه ، فلما سار بقومه تجاه البحر فرارا من فرعون ضرب بهذه العصا البحر فانفلق فسار في طريق يابس مع قومه فنجاه الله ، وفي صحراء سيناء ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا على قدر أسباط بني إسرائيل ، فعصا موسى ليست إلا آية من عند الله ليعلم الناس أنه رسول من عند الله ، فيكون حجة على من لم يؤمن ، وتثبيتا لمن آمن به ﷺ .

ومن الآيات أيضا ما أيد الله به عيسى ﷺ ، فقد كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، ويمسح بيده على الأكمه – وهو الذي وُلِد أعمى – والأبرص فيبرآن بإذن الله ، وكان يُحيِي الموتى بإذن الله ، أفليس هذا دليل على أنه رسول من عند الله؟ بلى والله.

---

[1] سورة النحل: ٣٥ .

[2] سورة النحل: ٨٢ .

[3] سورة العنكبوت: ١٨ .

[4] سورة التغابن: ١٢ .

[5] انظر «شرح الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي ، ص ٣١١ ، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت.

[6] يحسن هنا التنبيه إلى أن «الآيات» هي التسمية الدقيقة للأمور الخارقة للعادة ، وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أن لفظ الآية والبيِّنة والبُرهان هو هو الوارد في الكتاب والسنة ، وذكر جملة من الأمثلة على هذا ، وأما لفظ «المعجزة» فلم يرد في القرآن ، ولا يدل على كون المقصود آية أو دليلا إلا إذا فُسِّر به ، وإن كان كونها معجزة وخرقا للعادة من لوازم وشروط وصفات كونها بينة وآية.

انظر «الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح» (٥/٤١٢-٤١٩) ، و «النبوات» (ص ٨٢٨).

كما يجدر التنبيه إلى أنه ليست كل الآيات التي أيَّد اللهُ بها أنبياءه من قبيل الإعجاز ، وإنما اختُصَّ بذلك الآيات التي وردت في سياق التحدي والإعجاز للخصم ، فالقرآن – مثلا – آية على نبوة محمد ﷺ وفيه تحدٍّ ، فيكون معجزة ، أما حنين الجذع إليه ، وتسليم الحَجَر عليه فإنه آية على نبوته ﷺ وليس فيه تحدٍّ ، فلا يوصف بأنه معجزة.

وقد ذكر القرطبي رحمه الله في مقدمة كتابه «الجامع لأحكام القرآن» ، باب: (نكت في إعجاز القرآن ، وشرائط المعجزة وحقيقتها) خمسة شروط للمعجزة ، فليراجعها من أراد التوسع.

كما أيد الله نبيه محمدا ﷺ بآيات كثيرة ، كلها تدل على صدق نبوته وأنه رسول من عند الله حقا ، أشهرها القرآن الكريم ، فهو الآية الكبرى الدالة على نبوة محمد ﷺ .

فائدتان في باب الإيمان بالآيات التي أُرسل بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

الفائدة الأولى:

إن من حكمة الله تعالى أن جعل كبريات الآيات على أيدي رسله من جنس ما برز فيه أهل العصر الذي بُعث فيه ذلك الرسول ، ليكون ذلك أبلغ في الحجة والإقناع بأن ذلك الرسول مرسل من عند الله حقا ، ففي عصر موسى عليه الصلاة والسلام اشتهر قومه بالسحر ، فكانت آية موسى من جنس ما اشتهروا فيه وزادت عليه ، بأن كانت حقيقة لا خيالاً.

وفي عصر عيسى عليه الصلاة والسلام كان علم الطب مترقياً إلى حد كبير ، فجاءت آيته من جنس ما برزوا فيه وزيادة ، بأن جعل الله على يده الشفاء من أمراض لا يستطيع قومه علاجها وهي العمى والبرص ، بل وإحياء الموتى، كلها بإذن الله تعالى.

وكذلك الأمر بالنسبة لنبينا محمد ﷺ ، فقد ترقى الناس في عصره في جانب الفصاحة ، فكُتبت المعلقات الفصيحة ونُظمت القوافي البليغة ، فجاء القرآن معجزاً لهم أن يأتوا بمثله ، ثم أعجزهم أن يأتوا بسورة مثله ، فلم يستطيعوا ذلك ولا بآية واحدة.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السِّحر وتعظيم السّحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيّرت كل سحّار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام ، وصاروا من عِباد الله الأبرار.

وأما عيسى عليه السلام فبُعِث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدا من الذي شرعَ الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكْمه والأبرص ، وبعْث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد[1]؟

وكذلك محمد ﷺ بعثه الله في زمان الفصحاء والبُلغاء ونحارير[2] الشعراء ، فأتاهم بكتاب من الله عز وجل ، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعَشْر سُور من مثله ، أو بسورة من مثله ؛ لم

[1] يوم التَّناد هو يوم القيامة ، سُمِّي بذلك لأن الملائكة تنادي أهل الجنة بأعمالهم وأهل النار وأعمالهم ، وقيل لأن الناس ينادي بعضهم بعضا في ذلك اليوم إذا اشتد الهول والفزع.

[2] نحارير جمع نحرير ، وهو الحاذق الماهر العاقل المجرب. انظر «لسان العرب» ، مادة (نحر).

يستطيعوا أبدا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا[1] ، وما ذاك إلا لأن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبدا.

انتهى كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله.[2]

الفائدة الثانية:

إن من حكمة الله تعالى أن جعل معجزة القرآن خالدة ، أما معجزات النبي ﷺ الأخرى وكذلك معجزات الأنبياء قبله فقد انقرضت ، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ما مِن الأنبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أُوتيت وحيا أوحى الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة.[3]

قال النووي رحمه الله:

أَمَّا مَعَانِي الْحَدِيث فَاخْتُلِفَ فِيهِ عَلَى أَقْوَال ؛ أَحَدهَا أَنَّ كُلّ نَبِيّ أُعْطِيَ مِنْ الْمُعْجِزَات مَا كَانَ مِثْله لِمَنْ كَانَ قَبْله مِنْ الأنبياء ، فَآمَنَ بِهِ الْبَشَر ، وَأَمَّا مُعْجِزَتِي الْعَظِيمَة الظَّاهِرَة فَهِيَ الْقُرْآن الَّذِي لَمْ يُعْطَ أَحَد مِثْله ، فَلِهَذَا قَالَ: أَنَا أَكْثَرهمْ تَابِعًا.

وَالثَّانِي مَعْنَاهُ أَنَّ الَّذِي أُوتِيته لا يَتَطَرَّق إِلَيْهِ تَخْيِيل بِسِحْرٍ وَشُبْهَة ، بِخِلَافِ مُعْجِزَة غَيْرِي ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يُخَيِّل السَّاحِر بِشَيْءٍ مِمَّا يُقَارِب صُورَتهَا ، كَمَا خَيَّلَتْ السَّحَرَة فِي صُورَة عَصَا مُوسَى ﷺ ، وَالْخَيَال قَدْ يَرُوج عَلَى بَعْض الْعَوَامّ ، وَالْفَرْق بَيْن الْمُعْجِزَة وَالسِّحْر وَالتَّخْيِيل يَحْتَاج إِلَى فِكْر وَنَظَر ، وَقَدْ يُخْطِئ النَّاظِر فَيَعْتَقِدهُمَا سَوَاء.

وَالثَّالِث مَعْنَاهُ أَنَّ مُعْجِزَات الْأَنْبِيَاء اِنْقَرَضَتْ بِانْقِرَاضِ أَعْصَارهمْ وَلَمْ يُشَاهِدهَا إلا مَنْ حَضَرَهَا بِحَضْرَتِهِمْ ، وَمُعْجِزَة نَبِيّنَا ﷺ الْقُرْآن الْمُسْتَمِرّ إِلَى يَوْم الْقِيَامَة ، مَعَ خَرْق الْعَادَة فِي أُسْلُوبه وَبَلَاغَته وَإِخْبَاره بِالْمُغَيَّبَاتِ ، وَعَجْز الْجِنّ وَالْإِنْس عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْله مُجْتَمِعِينَ أَوْ مُتَفَرِّقِينَ فِي جَمِيع الأَعْصَار ، وَمَعَ اِعْتِنَائِهِمْ بِمُعَارَضَتِهِ فَلَمْ يَقْدِرُوا وَهُمْ أَفْصَح الْقُرُون ، مَعَ غَيْر ذَلِكَ مِنْ وُجُوه إِعْجَازه الْمَعْرُوفَة. وَاَللَّه أَعْلَم.

وَقَوْله ﷺ : (فَأَرْجُو أَنْ أَكُون أَكْثَرهمْ تَابِعًا) عَلَم مِنْ أَعْلام النُّبُوَّة ، فَإِنَّهُ أَخْبَرَ عَلَيْهِ السَّلام بِهَذَا فِي زَمَن قِلَّة الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ مَنَّ اللَّه تَعَالَى وَفَتَحَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْبِلاد وَبَارَكَ فِيهِمْ ، حَتَّى اِنْتَهَى الأمْر وَاتَّسَعَ الْإِسْلام

---

[1] الظهير هو المعين. انظر «لسان العرب» ، مادة (ظهر).

[2] «تفسير القرآن العظيم» ، سورة آل عمران ، الآية ٤٩ ، وللقرطبي كلام مثله في مقدمة كتابه «الجامع لأحكام القرآن» ، خاتمة باب: (نكت في إعجاز القرآن ، وشرائط المعجزة وحقيقتها) ، وكذا ابن حجر في «فتح الباري» (٦٢٢/٨) ، شرح حديث: (وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي).

[3] رواه البخاري (٤٩٨١) ومسلم (١٥٢).

فِي الْمُسْلِمِينَ إِلَى هَذِهِ الْغَايَة الْمَعْرُوفَة ، وَلِلَّهِ الْحَمْد عَلَى هَذِهِ النِّعْمَة وَسَائِر نِعَمه الَّتِي لا تُحْصَى ، وَاَللَّه أَعْلَم. انتهى باختصار.

وقال شمس الدين الذهبي رحمه الله في شرح قوله (وإنما كان الذي أُوتيت وحيا أوحى الله إلي):

هذه هي المعجزة العظمى ، وهي القرآن ، فإن النبي من الأنبياء عليهم السلام كان يأتي بالآية وتنقضي بموته ، فقَلَّ لذلك من يتَّبِعه ، وكَثُرَ أتباع نبينا ﷺ لكون معجزته الكبرى باقية بعده ، فيؤمن بالله ورسوله كثيرٌ مِمَّن يسمع القرآن على مر الأزمان ، ولهذا قال: فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة. انتهى.[1]

وقال ابن حجر في «الفتح» في شرح الجملة المتقدمة: أي أن معجزتي التي تحديت بها ؛ الوحي الذي أُنزِل علي ، وهو القرآن ، لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح ، وليس المراد حصر معجزاته فيه ، بل المراد أنه المعجزة العظمى التي اختُص بها دون غيره. انتهى مختصرا.

وقد تقدم في الركن الثالث بيان وجوه إعجاز القرآن وخصائصه.

[1] «سير أعلام النبلاء» ، قسم السيرة النبوية ، (٣٥١/٢٧) ، باب جامع في دلائل النبوة ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت.

فصل في بيان نواقض الإيمان بالرسل

اعلم رحمك الله أنه كما أن الإيمان بالرسل لا يتحقق إلا بأمور ؛ فإن الإيمان بهم ينتقض بأمور:

الأول: تكذيبهم ، أي تكذيب أنهم رسل من عند الله وإن كان التكذيب متعلق برسول واحد ، لأن الإيمان بواحد منهم يقتضي الإيمان بالجميع ، والتكذيب بواحد منهم يقتضي التكذيب بالجميع ، وهذا الناقض حاصل في جميع الأمم من عهد نوح إلى قيام الساعة.

الثاني: تكذيب ما جاؤوا به ولو كان جزءا من الشريعة ، فلو أن رجلا زعم أنه آمن بما جاء به النبي ﷺ ، ولكنه لم يؤمن بأنه خاتم الأنبياء ؛ فهذا في الحقيقة لا يعتبر مؤمنا بالنبي ﷺ ، لأن الإيمان بالنبي ﷺ يقتضي الإيمان بما جاء به وعدم تكذيبه في شيء منه ولو كان شيئا واحدا.[1]

الثالث: عدم الانقياد لشريعتهم ، فلو أن رجلا زعم أنه آمن بأن محمد ﷺ مرسل من ربه ، ولكنه أبى العمل بشريعته ، فإن هذا الرجل لا يُعد مؤمنا حتى ينقاد لشريعته ، فإن دليل الإيمان العمل ، ولهذا فإن أبا طالب عم النبي ﷺ لا يُعتبر مسلما مع كونه آمن بأن ابن أخيه رسول من عند الله حقا ، وما ذاك إلا لأنه أبى الانقياد لشريعته تقليدا لقومه ولئلا يُعيره الناس بترك دين الآباء والأجداد.

الرابع: إيذاؤهم ، بسببهم أو الاستهزاء بهم أو تنقصهم أو التعدي عليهم في حياتهم ، وهذا الفعل كفر ، قال تعالى ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾[2].

ويدخل في تنقص الأنبياء تفضيل من ليسوا بأنبياء عليهم ، كتفضيل غلاة الصوفية للأولياء على الأنبياء ، وهذا كفر ، لأنه يقتضي تكذيب القرآن ، لأن الله فضل الأنبياء على العالمين ، فقد قال الله تعالى بعد أن ذكر عددا من الأنبياء ﴿وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين﴾[3].

قال أبو العباس القرطبي رحمه الله: لا إشكال أن النبي أفضل من الولي ، وهذا أمر مقطوع به عقلا ونقلا ، والصائر إلى خلافه كافر ، فإنه أمر معلوم من الشرائع بالضرورة.[4]

وممن قال بتفضيل الأولياء على الأنبياء الحكيم الترمذي في كتابه «ختم الأنبياء» ، وكذلك الصوفي الضال ابن عربي.

---

[1] يراجع للفائدة كتاب «المتنبئون في الإسلام وخطرهم على الفكر والمجتمع» ، د. غالب بن علي عواجي ، الناشر: دار النصيحة – المدينة.

[2] سورة التوبة: ٦٥ – ٦٦ .

[3] سورة الأنعام: ٨٦ .

[4] «المفهم على صحيح مسلم» (٢١٧/٦) ، الناشر: دار ابن كثير – دار الكلم الطيب ، الطبعة الأولى.

الخامس: الغلو فيهم ، أي تعظيمهم فوق الحد الشرعي ، بصرف شيء من العبادات لهم ، كدعائهم والسجود لهم والطواف بقبورهم والذبح لهم ، أو وصفهم بشيء من صفات الرب عز وجل ، كادعاء أنهم يعلمون الغيب ، أو يتصرفون في الكون ، ونحو ذلك ، فهذه كله شرك في العبادة وفي أسماء الله وصفاته.

تنبيه

الغلو في الصالحين من أعظم أسباب الانحراف ، سواء كان في حق من كانوا أنبياء أو من ليسوا بأنبياء ، وهو الذي أدى بكثير من الأمم إلى الوقوع في الشرك ، بدءا من أمة نوح إلى أمة محمد ﷺ ، فقد كان منشؤ الشرك في عهد نوح عليه الصلاة والسلام من تعظيم الصالحين ، كما في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قول الله تعالى ﴿وقالوا لا تذرُن آلهتكم ولا تذرُن ودًّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا﴾[1] قال: أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا[2] أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبوا إلى مجالِسهم التي كانوا يجلسون أنصابا[3] ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تُعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلم[4] عُبدت.[5]

وروى ابن جرير بإسناده إلى الثوري عن موسى عن محمد بن قيس أنه قال عن يغوث ويعوق ونسرا: كانوا قومًا صالحين من بني آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوّروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس ، فقال: إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يُسقون المطر ، **فعبدوهم**.[6]

وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: كان هؤلاء[7] قومًا صالحين في قوم نوح عليه السلام ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.[8]

وبعد نشوء الشرك وعبادة الأصنام في قوم نوح تتابع الناس على ذلك وانتشر بينهم كما قال ابن عباس رضي الله عنه: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ[9] ، أما وُد فكانت لكلب بدومة

---

[1] سورة نوح: ٢٣ .

[2] أي ماتوا.

[3] أي اصنعوا أنصابا ، وهي تماثيل تصنع على هيئتهم ثم تنصب في المجالس ليراها الناس فيقتدوا بهم في أفعالهم! وهكذا دخل عليهم الشيطان.

[4] أي تحول من حال إلى حال. انظر «النهاية». قال مقيده: وسبب التحول والتحريف هو عدم الحفظ.

[5] رواه البخاري (٤٩٢٠).

[6] «تفسير ابن جرير» ، تفسير سورة نوح: ٢٤ .

[7] أي ودًّا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا.

[8] «إغاثة اللهفان» ، (١٨٤/١) ، تحقيق محمد حامد الفقي.

[9] أي بعد ذلك الزمان ، كما سيأتي في كلامه.

الجندل[1] ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحِمير لآل ذي الكلاع.[2]

وقال قتادة: كانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح ، **ثم اتخذها العرب بعد ذلك**.[3]

وبناء على ما تقدم من الحقائق التاريخية ، فقد قرر ابن القيم في «زاد المعاد» أن غالب شرك الأمم كان من جهة الصور والقبور.[4]

وقد نهى الله أهل الكتاب من قبلنا عن الغلو عموما ، في الأنبياء وفي سائر أمور الدين ، فلم يستجيبوا فضلُّوا وأضلُّوا ، قال تعالى ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل﴾[5].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: أي لا تُجاوزوا الحد في اتباع الحق ، ولا تُطروا[6] من أُمرتم بتعظيمه ، فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية ، كما صنعتم في المسيح ، وهو نبي من الأنبياء ، فجعلتموه إلها من دون الله ، وما ذلك إلا لاقتدائكم بشيوخكم ، شيوخ الضلال ، الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً. انتهى كلامه.

وقال رحمه الله في تفسير آية النساء ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾:

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء ، وهذا كثير في النصارى ، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها ، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله ، يعبدونه كما يعبدونه ، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه ، فادعوا فيهم العصمة ، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً ، أو ضلالاً أو رشاداً ، أو صحيحاً أو كذباً ، ولهذا قال الله تعالى ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾[7].

ثم ساق حديث عمر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا: عبد الله ورسوله.[8] انتهى.

---

[1] موضع في شمال جزيرة العرب.

[2] رواه البخاري (٤٩٢٠).

[3] «تفسير ابن جرير» ، تفسير سورة نوح: ٢٤ .

[4] «زاد المعاد» (٤٥٨/٣) ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت.

[5] سورة المائدة: ٧٧ .

[6] الإطراء هو مجاوزة الحد في المدح.

[7] سورة التوبة: ٣١ .

[8] رواه البخاري (٣٤٤٥) واللفظ له ، وأحمد (٥٥/١) ، والدارمي (٢٧٨٧).

فصل في بيان ثمرات الإيمان بالرسل[1]

الإيمان بالرسل له ثمرات جليلة ، منها:

الأولى: العلم برحمه الله تعالى وعنايته بعباده ، حيث أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى صراط الله تعالى ، ويُبينوا لهم كيف يعبدون الله ، لأن العقل البشري لا يستطيع معرفة ذلك بنفسه.

الثانية: شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى.

الثالثة: محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتعظيمهم والثناء عليهم بما يليق بهم ، لأنهم رسل الله تعالى ، ولأنهم قاموا بعبادته ، وتبليغ رسالته ، والنصح لعباده ، وجاهدوا في سبيل ذلك.

الرابعة: الهداية إلى الدين الصحيح الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى ، وذلك بالعمل بما أمرت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من الشرائع المنزلة.

الخامسة: الاقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيما جاؤوا به من عبادات ، وسؤالهم عما أشكل من أمور الدين في حياتهم ، والرجوع إلى ورثتهم – وهم العلماء – بعد مماتهم ، كما قال تعالى ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾[2] ، وقال ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[3].

---

[1] هذا الفصل مستفاد أكثره من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٩ .

[2] سورة الأنعام: ٩٠ .

[3] سورة النساء: ٨٠ .

فصل في الرد على شبهة المكذبين بالرسل[1]

وقد كذَّب المعاندون رُسُلَهم ، زاعمين أن رسل الله تعالى لا يكونون من البشر ، وقد ذكر الله تعالى هذا الزَّعم وأبطله بقوله ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رسولا * قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ ملائكةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً﴾[2] ، فأبطل الله تعالى هذا الزَّعم بأنه لا بد أن يكون الرسول بشرًا من جنسهم ، لأنه مُرسلٌ إلى أهل الأرض ، وهم بشر ، ولو كان أهل الأرض ملائكة لنزَّل الله عليهم من السماء ملكًا رسولا ، ليكون مثلهم.

[1] هذا الفصل منقول من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٩ .

[2] سورة الإسراء: ٩٤- ٩٥ .

ملحق

تقرير أن الخضر كان نبيا ، عليه السلام[1]

ومن الأنبياء الخضر عليه السلام ، وقد جاء ذكره في القرآن العزيز في سورة الكهف ، وكذا في السنة الشريفة في الصحيحين وغيرهما في قصته مع موسى عليه السلام ، وقد دلت تلك القصة على نبوة الخضر من ستة وجوه:

١. ما دلت عليه الآيات من أن الخضر أوحي إليه ، والوحي لا يكون إلا للأنبياء ، وفي قصته المذكورة في سورة الكهف خمسة شواهد على أنه كان يوحي إليه:

الأول: قول الخضر في نهاية خبره مع موسى: ﴿وما فعلته عن أمري﴾ ، أي: ما فعلتُه مع أصحاب السفينة الذين خرقت سفينتهم والغلام الذي قتلتُه وأصحاب القرية الذين أصلحتُ جدارهم ليس عن أمري ورأيي ، بل عن أمر الله ، ومن المعلوم أن أوامر الله تعالى تصل لأنبيائه عليهم الصلاة والسلام عن طريق الوحي ، ولا طريق لمعرفة أوامر الله ونواهيه إلا بذلك.

قال الإمام الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية المذكورة: أي: وإنما فعلته عن أمر الله جل وعلا ، وأمر الله إنما يتحقق عن طريق الوحي ، إذ لا طريق تُعرف بها أوامر الله ونواهيه إلا الوحي من الله جل وعلا ، ولاسيما قتل الأنفس البريئة في ظاهر الأمر ، وتعييب سفن الناس بخرقها ، لأن العدوان على أنفس الناس وأموالهم لا يصح إلا عن طريق الوحي من الله تعالى ، وقد حصر تعالى طرق الإنذار في الوحي في قوله تعالى ﴿قل إنما أنذركم بالوحي﴾ ، و ﴿إنما﴾ صيغة حصر. انتهى.[2]

الثاني: ومما يدل على أن الخضر كان نبيا يوحي إليه ما قاله نبينا عليه الصلاة السلام في قصة موسى مع الخضر: (وأما الغلام فطُبع يوم طُبع كافراً ، وكان أبواه قد عَطفا عليه ، فلو أنه أدرك[3] أرهقهما طغياناً

---

[1] استفدت كثيرا في هذا المبحث من فتوى للشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله ، وتقع ضمن مجموع فتاوى لعدد من العلماء ضمن الكتاب الموسوم «جزيرة فيلكا وخرافة أثر الخِضْر فيها» ، تأليف الشيخ أحمد بن عبد العزيز الحُصَيِّن حفظه الله ، وهو من مطبوعات الدار السلفية بالكويت ، ولم يذكر على الكتاب تاريخ الطبع ، والذي يظهر أنه طبع في عام ١٣٩٤ هـ أو ١٣٩٥ هـ على أكثر تقدير ، كما هو ظاهر من تاريخ فتوى الشيخ الألباني المؤرخة عام ١٣٩٤ هـ ، والله أعلم.

[2] انظر كتابه «أضواء البيان» عند تفسير الآية المذكورة من سورة الكهف.

[3] أي أدرك سن البلوغ.

وكفراً[1] ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً) ، وفي روايةٍ: (ووقع أبوه على أمِّه فَعَلِقَت[2] فولَدت منه خيراً منه زكاةً وأقرب رحماً).[3]

والشاهد من الحديث أن إخبار الخضر عليه السلام بهذين الأمرين الغيبيين التي لا مجال للإطلاع عليهما إلا من طريق الوحي لمن أقوى الأدلة على أنه كان يوحى إليه ، وهما كونه طُبِعَ كافرا ، أي قُدِّر عليه الكفر حتى يموت ، وأن أباه وقع على أمه فحملت فولدت خيرا منه ، فإن الخضر ما رأى الغلام إلا للتوِّ فمن أين أتى بكل هذه الأخبار إلا إن كان نبيا يوحى إليه؟

الثالث: ومن دلائل أن الخضر كان يوحى إليه قول النبي ﷺ في نفس القصة كما في رواية الحاكم:

لما لقِي موسى الخضر عليهما السلام جاء طيرٌ ، فألقى منقاره في الماء ، فقال الخضر لموسى: تدبر ما يقول هذا الطير.

قال: وما يقول؟

قال: يقول: ما عِلمك وعلمُ موسى في علم الله إلا كما أخذ منقاري من الماء.[4]

فهذا النص صريح في أن الخضر قد عُلِّم منطق الطير ، وهو من الغيب الذي لا يعلمه البشر ، فهو في هذا على نحوِ النبي سليمان عليه الصلاة والسلام الذي حكى الله عنه في القرآن ﴿يا أيها الناس عُلِّمنا منطق الطير﴾.

انتهى الكلام هنا على دلالة القرآن والسنة على إثبات أن الخضر كان نبيا بدلالة أنه كان يوحى إليه.

٢. ومما يدل أيضا على نبوة الخضر ما ذكره الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآيات في كتابه «أضواء البيان» من أن الرحمة والعلم المذكوران في قوله تعالى ﴿آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما﴾ ؛ أنهما رحمة النبوة وعِلمُ النبوة ، واستدل على ذلك بشواهد من القرآن العظيم.

وقال العلامة الآلوسي رحمه الله في تفسير الرحمة والعلم ثلاثة أقوال ، أشار إلى تضعيفها كلها ، ثم قال:-

"والجمهور على أنها الوحي والنبوة ، وقد أُطلقت على ذلك في مواضع من القرآن ، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس ... والمنصور[5] ما عليه الجمهور ، وشواهده من الآيات والأخبار كثيرة ، وبمجموعها يكاد يحصل اليقين".[6]

---

[1] أرهقهُ أي غَشِيهُ بقهرٍ ، والمعنى: يُكره والديه على الكفر والطغيان بسبب ما يحملانِهِ من حب له. انظر «لسان العرب» ، مادة رهق.

[2] علِقت المرأة أي حبِلت. انظر «لسان العرب» مادة علق.

[3] أخرجه مسلم (٢٣٨٠) ، والزيادة لعبد الله بن أحمد (٥/١١٨-١١٩).

[4] رواه الحاكم (٢/٣٦٩) وصححه ووافقه الذهبي ، وهو مخرج في «الصحيحة» (٢٤٦٧).

[5] أي القول الراجح.

[6] «روح المعاني» (٥/٩٢-٩٣).

٣. ومن دلائل نبوة الخضر ما أخبر به النبي ﷺ في أول قصة موسى مع الخضر أن الله أوحى إلى موسى أن **الخضر أعلم منه** ، وهذه المنزلة لا تكون إلا للأنبياء ، ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

بينما موسى في ملأٍ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال: أتعلم أحدا أعلم منك؟

قال موسى: لا.

فأوحى الله تعالى إلى موسى: بلى ، عبدنا خضر.[١]

وفي القصة نص آخر على أن عند الخضر من العلم ما ليس عند موسى ، وهذه المنزلة لا تكون إلا للأنبياء ، فإنه لما لقي الخضر موسى سأله عن نفسه ولم يكن يعرفه: موسى بني إسرائيل؟

قال: نعم ، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا.

قال: ﴿إنك لن تستطيع معي صبرا﴾ ، يا موسى ، **إني على علم من علم الله علّمنيه لا تعلمه أنت** ، وأنت على علمٍ من علم الله علّمك الله لا أعلمه.[٢]

٤. ومما يدل على نبوة الخضر أن موسى عليه السلام كان تابعاً له في رحلته كلها ، وهذه المنزلة لا يتبوؤها إلا نبي.

٥. "ومما يُستأنس به للقول بنبوته تواضع موسى عليه الصلاة والسلام له في قوله ﴿هل أتبعك على أن تعلمنِ مما علمت رشدا﴾ ، وقوله ﴿ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا﴾ ، مع قول الخضر له ﴿وكيف تصبر على ما لم تُحِط به خبرا﴾".[٣]

٦. ومما يُستأنس به للقول بنبوة الخضر قوله لموسى في نهاية القصة ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ ، فالخضر هو الذي قرر المفارقة ، ومن المعلوم أن مثل هذا المطلب لا يكون إلا من مقام نبي ، وأما من دونه من الناس فلا يقوى على مواجهة نبي بطلب المفارقة.

انتهى الكلام على مسألة الخضر عليه الصلاة والسلام.

---

[١] رواه البخاري (٧٤) ومسلم (٢٣٨٠) ، ولفظ مسلم: بلى ، عبدنا الخضر.

[٢] رواه البخاري (٤٧٢٥).

[٣] قاله الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان» في معرِض كلامه على قصة موسى مع الخضر عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام عند تفسير قوله تعالى ﴿فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما﴾.

تقرير أن إخوة يوسف عليه السلام لم يكونوا أنبياء

قال ابن تيمية رحمه الله:

الذي يدلُّ عليه القرآنُ واللغةُ والاعتبار أن إخوةَ يوسف ليسوا بأنبياء ، وليس في القرآن ولا عن النبي ﷺ بل ولا عن أصحابه خبرٌ بأن الله تعالى نبَّأهم ، وإنما احتجّ من قال إنّهم نُبِّئوا بقوله في آيتي البقرة والنساء ﴿وَالأَسْبَاطِ﴾[1] ، وفُسِّر الأسباطُ بأنــهم أولاد يعقوب ، والصواب أنه ليس المراد بهم أولادُه لصلبه بل ذرِّيته ، كما يقال فيهم[2] أيضا «بنو إسرائيل» ، وكان في ذريته الأنبياء ، فالأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل.

قال أبو سعيد الضرير[3]: (أصل السِّبْطِ شجرةٌ ملتفةٌ كثيرة الأغصان)[4] ، فسُمُّوا «الأسباطَ» لكثرتهم ، فكما أن الأغصان من شجرة واحدة ، كذلك الأسباط كانوا من يعقوب.

ومِثْلُ السِّبط الحافد[5] ، وكان الحسن والحسين سِبْطَي رسولِ الله ﷺ ، والأسباط حفدة يعقوب ذَرارِي أبنائه الاثنَي عشر.

وقال تعالى ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً﴾[6] ، فهذا صريحٌ في أن الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل ، كلُ سِبْطٍ أمةٌ ، لا أنهم بَنُوه[7] الاثنا عشر ، بل لا معنى لتسميتهم قبل أن تنتشر عنهم الأولاد "أسباطًا" ، فالصواب أن السِّبْطَ هم الجماعة من الناس ، ومن قال: (الأسباط أولاد يعقوب) لم يُرِد أنــهم أولادُه لصلبه ، بل أرادَ ذريتَه ، كما يقال: بنو إسرائيل وبنو

---

[1] يشير إلى قوله تعالى في سورة البقرة ، آية ٢٨٥ ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ ، وقوله تعالى في سورة النساء ، آية ١٦٣ ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾.

[2] يعني بذلك الأسباط.

[3] هو أحمد بن خالد البغدادي ، أبو سعيد الضرير ، لغوي ، انظر ترجمته في «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (٢٥٣/١) الناشر: دار الغرب الإسلامي ، و «لسان الميزان» (٢٦٤/١) الناشر: الفاروق الحديثة – مصر.

[4] انظر «لسان العرب» ، مادة: سبط.

[5] الحافد هو ولد الولد ، ويسمى حفيدٌ أيضا ، وجمعه حفدة وأحفاد ، انظر «مختار الصحاح» ، مادة: حفد ، وكتاب «العامي الفصيح» وهو من إصدارات مجمع اللغة في مصر.

وأما السِّبط فهو ولد البنت.

[6] سورة الأعراف: ١٥٩ – ١٦٠ .

[7] يعني بذلك يعقوب عليه السلام.

آدم ، فتخصيصُ الآية ببنيه لصلبه غلط ، لا يدلُّ عليه اللفظُ ولا المعنى ، ومن ادّعاه فقط أخطأ خطأً بيِّنًا.

والصواب أيضًا أن كونَهم[1] أسباطًا إنما سُمُّوا به من عهد موسى للآية المتقدمة ، ومن حينئذٍ كانت فيهم النبوة ، فإنه لا يُعرَف أنه كان فيهم نبيّ قبلَ موسى إلا يوسف ، ومما يؤيِّد هذا أنّ الله تعالى لما ذكر الأنبياء من ذرية إبراهيم قال ﴿وَمِنْ ذريته دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾[2] الآيات ، فذكر يوسف ومن معه ، ولم يذكر الأسباط ، فلو كان إخوةُ يوسف نُبِّئوا كما نبئَ يوسف لذُكِروا معه.

وأيضًا فإن الله يذكر عن الأنبياء من المحامد والثناء ما يناسب النبوة وإن كان قبل النبوة ، كما قال عن موسى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾[3] الآية ، وقال في يوسف كذلك ، وفي الحديث: "أكرم الناس يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، نبيٌّ من نبيٍّ من نبيٍّ"[4] ، فلو كانت إخوتُه أنبياءً كانوا قد شاركوه في هذا الكرم ، وهو تعالى لما قصَّ قصَّةَ يوسف وما فعلوا معه ذَكَرَ اعترافَهم بالخطيئة وطلبَهم الاستغفار من أبيهم ، ولم يذكر من فضلهم ما يناسب النبوة ، ولا شيئا من خصائص الأنبياء ، بل ولا ذكر عنهم توبةً باهرةً كما ذكر عن ذنبه دون ذنبهم ، بل إنما حكى عنهم الاعتراف وطلب الاستغفار.

ولا ذَكر سبحانه عن أحدٍ من الأنبياء – لا قبلَ النبوة ولا بعدها – أنه فعلَ مثلَ هذه الأمورِ العظيمة ، من عقوق الوالد وقطيعةِ الرحم وإرقاقِ المسلم وبيعِه إلى بلاد الكفر والكذب البيّن وغير ذلك مما حكاه عنهم[5] ، ولم يَحْكِ شيئًا يناسب الاصطفاءَ والاختصاصَ الموجب لنبوتهم ، بل الذي حكاه يخالف ذلك ، بخلاف ما حكاه عن يوسف.

ثمّ إن القرآن يدلُّ على أنه لم يأتِ أهلَ مِصْرَ نبيٌّ قبلَ موسى سوى يوسف لآية غافر[6] ، ولو كان من إخوة إخوة يوسف نبيٌّ لكان قد دعا أهل مصر وظهرت أخبار نبوته ، فلما لم يكن ذلك عُلِمَ أنه لم يكن منهم نبيٌّ.

فهذه وجوهٌ متعددة يُقوِّي بعضُها بعضًا.

---

[1] يعني بذلك بني إسرائيل.

[2] سورة الأنعام: ٨٤ .

[3] سورة القصص: ١٤ .

[4] أخرجه البخاري (٣٣٨٢) ولفظه: الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

[5] من المعلوم أن الأنبياء معصومون من الوقوع في الكبائر ، وهذا مما يؤيد أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء ، لأنهم وقعوا في الكبائر المذكورة كما هو معلوم.

[6] وهي قوله تعالى ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾.

وقد ذكر أهل السير أن إخوة يوسف كلهم ماتوا بمصر ، وهو أيضًا ، وأوصىَ بنقله إلى الشام ، فنقلَه موسى.

والحاصل أن الغلط في دعوى نبوتِهم حَصَلَ مِن ظَنِّ أنهم هم الأسباط ، وليس كذلك ، إنما الأسباط ذرّيتهم الذين قُطِّعُوا أسباطًا من عهد موسى ، كل سِبْطٍ أمة عظيمة ، ولو كان المراد بالأسباط أبناء يعقوب لقال: "ويعقوب وبنيه"[1] ، فإنه أوجزُ وأَبْيَنُ.

واختير لفظ "الأسباط" على لفظ "بني إسرائيل" للإشارة إلى أن النبوة إنما حصلتْ فيهم من حينِ تقطيعِهم أسباطًا من عهد موسى. والله أعلم.[2]

[1] أي: لقالها بَدَل قوله ﴿ويعقوب والأسباط﴾.

[2] «جامع المسائل» (٢٩٧/٣) ، تحقيق: محمد عزير شمس ، الناشر: دار عالم الفوائد – مكة.

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر

اليوم الآخِر هو يوم القيامة ، وهو اليوم الذي يُبعث الناس فيه للحساب والجزاء ، والبعث هو الإخراج ، أي إخراج الناس من قبورهم ، وسمي اليوم الآخِر بذلك لأنه لا يوم بعده ، حيث يستقر أهل الجنة في منازلهم وأهل النار في منازلهم.

وأما يوم القيامة فسمي بذلك لأن الناس تقوم فيه لله جل وعلا ، كما قال تعالى ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[1].

فصل في بيان ما يتضمنه الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر يتضمن الإيمان بستة أمور ، نذكرها على سبيل السَّرد ثم نفصل الكلام في كل واحدة منها:

الأول: النَّفخ في الصُّور

الثاني: بعث الخلائق

الثالث: حدوث علامات الساعة الكبرى الأخرى

الرابع: حشر الناس في أرض المحشر

الخامس: الحساب والجزاء

السادس: دخول الجنة والنار

[1] سورة المطففين: ٤ – ٦ .

تفصيل

الأول: النَّفخ في الصُّور ، وهو أول علامات الساعة الكبرى ، وبه يكون الإيذان بيوم القيامة ، والصُّور قَرنٌ ينفُخُ فيه ملكُ الصُّورِ نفختين ، ففي الأولى يُصعقُ الخلائق كلهم ويموتون ، دليلها قوله تعالى ﴿وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فَواق﴾[1] ، أي: ما لها من إفاقة ورجوع للدنيا.

ثم يُنفخ في الصور النفخة الثانية فيقومون من قبورهم ، كما دل على ذلك قول الله تعالى ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون﴾[2].

فبالنفخة الأولى يموت الأحياء ، وبالنفخة الثانية يحيي الأموات ، وإلى النفختين أشار الحق تبارك وتعالى بقوله ﴿يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة﴾[3] ، فالراجفة هي النفخة الأولى ، والرادفة هي النفخة الثانية ، سميت بذلك لأنها تردُف النفخة الأولى وتتلوها ، وبينهما أربعون سنة[4].

وقد جاء في التنزيل تسمية الصور بالناقور ، كما في سورة المدثر ﴿فإذا نقر في الناقور﴾[5] ، وقد ورد في حديثٍ أنه يُنفَخُ فيه ثلاثُ مراتٍ ولكنه حديث ضعيف.[6]

الثاني: البعث ، وهو إحياء الموتى حين ينفخ في الصور النفخة الثانية ، والبعث حق ثابت ، دل عليه الكتاب والسنة وإجماع المسلمين ، قال الله تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[7].

---

[1] سورة ص: ١٥ .

[2] سورة الصافات: ١٩ .

[3] سورة النازعات: ٩ – ١٠ .

[4] انظر «صحيح البخاري» (٤٨١٤) ومسلم (٢٩٥٥).

[5] سورة المدثر: ٨ .

[6] رواه الطبراني في «الأحاديث الطوال» عن أبي هريرة رضي الله عنه برقم (٣٦) ، وهو مطبوع بآخر «معجمه» (٢٦٦/٢٥) ، وقد تكلم عليه محققه الشيخ حمدي بن عبد المجيد السلفي رحمه الله بكلام طويل.

كما رواه ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره عند تفسيره للآية الأولى من سورة الحج وأشار إلى ضعفه قبل أن يسوقه فقال: وقد روي عن النبي ﷺ خبر في إسناده نظر ... ثم ساق الحديث. انتهى الغرض منه.

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: هذا حديث مشهور ، وهو غريب جدا ، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة ، وفي بعض ألفاظه نكارة ، تفرد به إسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة ، وقد اختلف فيه ، فمنهم من وثقه ومنهم من ضعفه ، ونص على نكارة حديثة غير واحد من الأئمة ، كأحمد بن حنبل وأبي حاتم الرازي وعمرو بن علي الفلاس ، ومنهم من قال فيه: (هو متروك) ، وقال ابن عدي: أحاديثه كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء. انتهى كلامه رحمه الله من تفسيره ، آية الأنعام (٧٣) ﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾.

وقد ضعَّفه الألباني رحمه الله كما في «ضعيف الترغيب والترهيب» رقم (٢٢٢٤) فقال: منكر.

وانظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في «الأضواء» في تفسير الآية الأولى من سورة الحج.

[7] سورة المؤمنون: ١٥-١٦ .

والدليل من السنة على ثبوت البعث قول النبي ﷺ : ... فيُنزِلُ الله من السماء ماء فينبُتون كما ينبُت البقل ، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يبلى إلا عظما واحدا وهو عَجْبُ الذنب ، ومنه يُرَكَّب الخلق يوم القيامة.[1]

فعندئذ يقوم الناس لرب العالمين ، حفاةً غير منتعلين ، عراةً غير مستترين ، غُرلاً غير مختتنين ، بُهماً ، أي ليس بهم شيءٌ من العاهات التي تكون في الدنيا كالعرج والعمى ونحوها ، قال الله تعالى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[2].

وبموجَب الأدلة الواردة في الكتاب والسنة أجمع المسلمون على ثبوت البعث.

والحكمة تقتضي أن يجعل الله تعالى لهذه الخليقة معادًا يجازيهم فيه على ما كلَّفهم به على ألسنة رسله ، قال الله تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾[3].

وقد أنكر صنف من الكفار البعث بعد الموت ، وسيأتي الرد عليهم في آخر الكلام على هذا المبحث – مبحث الإيمان باليوم الاخر – إن شاء الله.

الثالث: ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر حدوث علامات الساعة الكبرى غير النفخ في الصور وبعث الخلائق ، ومن ذلك زلزلة الأرض ، فإنه مما يكون من الأهوال يوم القيامة حدوث زلزال حسي للأرض كما في قوله تعالى ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ ، وقوله ﴿إذا رجت الأرض رجا﴾[4].

أما ورد من حدوث زلزال قبل النفخ في الصور فقد جاء في حديث رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» في مطلع تفسير سورة الحج عن رجل من الأنصار عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ولكنه ضعيف الإسناد كما قال ابن جرير نفسُه.[5]

ومن علامات الساعة الكبرى تَشقُّق السماء كما قال تعالى ﴿فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدِّهان﴾[6] ، أي تكون كالجلد الأحمر ، لأن الوردة حمراء ، والدهان هو الجلد.

وفي آية أخرى شبَّه الله السماء في ذلك اليوم بالمُهل في قوله ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾[1] ، أي الشيء الذائب.

---

[1] جزء من حديث رواه البخاري (٤٩٣٥).

[2] سورة الأنبياء: ١٠٤ .

[3] سورة المؤمنون: ١١٥ .

[4] سورة الواقعة: ٤ .

[5] انظر «تفسير أضواء البيان» ، في تفسير الآية الأولى من سورة الحج من قوله رحمه الله: مسألة: اختلف العلماء في وقت هذه الزلزلة المذكورة هنا ...

[6] سورة الرحمٰن: ٣٧ .

وفي ذلك اليوم تُطحن الجبال طحنا فتتفتت حتى تكون كالرمل المتهايل أو الصوف المنفوش ، كلا الوصفين متقارب ، فأما طحن الجبال فمذكور في قوله تعالى ﴿وبُسَّت الجبال بسا﴾[٢] ، وأما تفتتها فمذكور في قوله تعالى ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ وقوله ﴿وكانت الجبال كثيبا مهيلا﴾[٣].

وفي ذلك اليوم تُسيَّر الجبال عن أماكنها حتى تُرى كالسَّراب ، قال تعالى ﴿وسُيرت الجبال فكانت سرابا﴾[٤] ، وقال تعالى ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾[٥].

ومن علامات الساعة الكبرى تكوير الشمس ، قال تعالى ﴿إذا الشمس كورت﴾ ، وتكوير الشمس هو لَفُّها فتكون كالعمامة ، ثم تُرمى فيذهب ضوؤها.[٦]

ومن علامات الساعة الكبرى انكِدار النجوم ، أي تساقطها بعدما كانت عالية في السماء ، قال تعالى ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾.

ومن علاماتها تسجير البحار نارا ، قال تعالى ﴿وإذا البحار سجرت﴾ ، فسبحان من بيده القدرة على قلب قوانين الطبيعة إلى خلافها بأمره الكوني القدري ﴿إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾.

---

[١] سورة المعارج: ٨ .

[٢] سورة الواقعة: ٥ .

[٣] سورة المزمل: ١٤ .

[٤] سورة النبأ: ٢٠ .

[٥] سورة النمل: ٨٨ .

[٦] انظر تفسير ابن جرير رحمه الله للآية.

الرابع: ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر حشر الناس إلى أرض المحشر ، والحشر هو سَوقٌ الخلائق بعد بعثهم من قبورهم وجمعهم في أرض المحشر ، ودليل الحشر قوله تعالى ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون﴾[1] ، وقوله تعالى ﴿ يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا﴾[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا النبي ﷺ يخطب فقال: يا أيها الناس ، إنكم تُحشرون إلى الله حفاة عراة غُـرْلاً.[3]

فيُحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء ، عفراء[4] ، ليس فيها مَعْلَمٌ[5] لأحدٍ[6] ، يُسمِعُهم الداعي[7] ويَنفُـذُهُم البصر[8] ، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.[9]

وفي ذلك اليوم يُحشر الإنس والجن والملائكة والبهائم ، فأما حشر الإنس والجن فدليله عموم الآية المتقدمة ، وأما حشر البهائم فدليله قوله تعالى ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾[10] ، وقوله تعالى ﴿وإذا الوحوش حُشرت﴾[11].

وأما دليل حشر الملائكة فدليله قوله تعالى ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾[12] ، فالملائكة يُحشرون يوم القيامة بين يدي الرب صفوفا ، ولكنهم لا يحاسبون ، لكونهم مفطورين على القيام بما أمرهم الله تعالى به وعدم عصيانه ، كما وصفهم الله تعالى بقوله ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[13].

وبعد الحشر العام الذي يجتمع فيه الناس في أرض المحشر يكون الحشر الخاص ، والذي يُحشر فيه المكذبون للرسل لأجل توبيخِهِم ، دل على ذلك قوله تعالى ﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم

---

[1] سورة المؤمنون: ٧٩ .

[2] سورة النبأ: ١٨ .

[3] رواه البخاري (٦٥٢٦) ، ومسلم (٢٨٦٠).

[4] عفراء أي بيضاء بياضا ليس بالناصع. انظر «النهاية».

[5] معلم أي علامة ، كعلامات الطريق ونحوه ، وقيل: المعلم الأثر. انظر «النهاية» لابن الأثير رحمه الله.

[6] انظر البخاري (٦٥٢١) ومسلم (٢٧٩٠) ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

[7] أي أنه إذا دعاهم داعٍ فإنهم يسمعونه كلهم لأن الرض ليس فيها ما يمنع نفوذ الصوت من جدار ونحوه.

[8] أي أن البصر يبلغ أولهم وآخرهم لاستواء الأرض وعدم تَكَوُّرِها. انظر «فتح الباري» شرح حديث (٤٧١٢).

[9] برقم (٣٣٦١).

[10] سورة الأنعام: ٣٨ .

[11] سورة التكوير: ٥ .

[12] سورة الفجر: ٢٢ .

[13] سورة التحريم: ٦ .

يوزعون * حتى إذا جاؤوا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أمَّاذا كنتم تعملون﴾[1] ، فالحشر الأول عام عام للناس كلهم لفصل القضاء ، والثاني خاص للمكذبين للرسل لتوبيخهم أمام الناس كلهم[2] ، ومعنى يوزعون أي يُحبس أولهم على آخرهم ليجتمعون ثم يُساقون إلى النار[3].

ومما يحصل في أرض المحشر أربعة أمور:

١. فزع الناس ، ودليله قوله تعالى في مطلع سورة الحج ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾.

وليس المقصود بالزلزلة في هذه الآية الزلزلة الحسية للأرض ، وإنما المقصود هنا شدة هول يوم القيامة كما قال تعالى واصفا يوم الأحزاب ﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا﴾[4].[5]

وأما الزلزال الحسي للأرض يوم القيامة فثابت في قوله تعالى ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ ، وقوله ﴿إذا رجت الأرض رجا﴾[6].

ومن شدة ذلك اليوم وعظيم كَرْبه ؛ فإن فهوم الناس تضطرب وتطيش في تحديد مدة لبثهم في الدنيا ، فمنهم من يقول ﴿إن لبثتم إلا عشرا﴾[7] ، ومنهم من يقول ﴿لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين﴾[8] ، ، وفي آية أخرى يقول الحق عنهم ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾[9].

ومن شدة ذلك اليوم وعظيم هوله ؛ يذهل الناس بعضهم عن بعض ، قال تعالى ﴿يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾[10].

---

[1] سورة النمل: ٨٣ – ٨٤ .

[2] انظر «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» ، سورة النمل ، عند الكلام على قوله تعالى ﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون﴾.

[3] قاله ابن جرير في تفسير الآية.

[4] سورة الأحزاب: ١١ .

[5] انظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في خاتمة تفسير قوله تعالى من سورة الحج ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾ ... الآية.

[6] سورة الواقعة: ٤ .

[7] سورة طه: ١٠٣ .

[8] سورة المؤمنون: ١١٣ .

[9] سورة الروم: ٥٥ .

[10] سورة عبس: ٢٤ – ٢٧ .

تنبيه

والذين يُصيبهم الفزع يوم القيامة هم أهل المعاصي من الكافرين والمبتدعين وعصاة المؤمنين ، أما المؤمنين الكُمَّل فلا ، قال تعالى ﴿وكان يوما على الكافرين عسيرا﴾[١] ، قال الشنقيطي رحمه الله ما محصَّلُه أن هذا يدل بمفهومه على أنه يسير على المؤمنين.[٢]

قلت: أي المؤمنين الكُمَّل ، الذين قاموا بطاعة الله واجتنبوا ما حرم الله ، فإن من خاف الله في الدنيا أمَّنه في الآخرة ، ومن أمِنه في الدنيا أفزعه في الآخرة ، قال تعالى عن المؤمنين الصادقين ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة﴾[٣] ، وقوله تعالى ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾[٤] ، وقوله تعالى ﴿أفمن يُلقى في النار خير أمَّن يأتي آمنا يوم القيامة﴾[٥].

وروى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾[٦]: كان الحساب من ذلك في أوَّله[٧] ، وقال القوم حين قالوا في منازلهم في الجنة[٨] ، وقرأ ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾.

٢. ومما يكون في أرض المحشر دُنُو الشمس من الخلائق حتى تكون بمقدار مِيل ، قيل مِيل المِكحلة ، وقيل ميل المسافة ، وسواء هذا أو ذاك فالشمس ستكون قريبة جدا من الرؤوس.[٩]

فإن قيل: إن الجسم البشري لا يُطيق ذلك!

فالجواب أن الأجسام يوم القيامة تبعث على غير الصفة التي هي عليها في الدنيا ، بل تُبعث بعثا يتناسب مع مواقف القيامة ، فالكافر – مثلا – يكون ضِرسُهُ كجبل أحد ليتناسب مع العذاب ، والدليل على

---

[١] سورة الفرقان: ٢٦ .

[٢] انظر «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» ، سورة الفرقان ، عند الكلام على قوله تعالى ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن وأحسن مقيلا﴾.

[٣] سورة الأنبياء: ١٠٣ .

[٤] سورة النمل: ٨٩ .

[٥] سورة فصلت: ٤٠ .

[٦] سورة الفرقان: ٢٤ .

[٧] أي في أول يوم القيامة.

[٨] أي صاروا وقت القيلولة في منازلهم بالجنة.

[٩] انظر صحيح مسلم (٢٨٦٤).

ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ضِرسُ الكافرِ يوم القيامة مثل أُحُد ، وعرضُ جِلدِهِ سبعون ذراعا ، وفَخِذُهُ مثل وَرِقان[1] ، ومقعده من النار مثل ما بينِي وبين الرَّبْـذَة[2].[3]

فالخلاصة أن الله تعالى بقدرته يبعث الناس يوم القيامة على خِلقةٍ تتناسب مع الشدائد التي تحصل في ذلك اليوم ، نسأل الله النجاة والعافية.

فإن قيل: هل يَسلمُ أحد من الشمس؟

فالجواب نعم ، هناك أصناف من الناس يَقيهُمُ الله شمس ذلك اليوم ، منهم السبعة الذين يظلهم الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله ، وهو ظِلٌ يَخلُقه الله عز وجل ، فيتَّقي به أصناف من الناس شمس ذلك اليوم ، جعلنا الله منهم ، وهم إمام عادل ، وشاب نشأ في طاعة الله ، ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل قلبه معلَّق بالمسجد ، إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجُـلٌ دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: (إني أخاف الله) ، ورجُـلٌ تصدَّقَ بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه.[4]

وقد نظم السبعةَ الذين يظلهم الله في ظله العلامة أبو شامة ، عبد الرحمٰن بن إسماعيل فقال:

وقال النبي المصطفى إنَّ سبعةً ... يُظلُّهم الله الكريم بظلهِ
محبٌّ عفيفٌ ناشئٌ متصدقٌ ... وباكٍ مصلٍّ والإمامُ بعدلهِ[5]

وللفائدة فقد جاء في روايةٍ تخصيصُ الظل بظل العرش ، ولفظها: سبعة يظلهم الله تعالى تحت ظل عرشه... الحديث.[6]

---

[1] وَرِقان جبل بين المدينة ومكة. انظر «النهاية».

[2] الرَّبَذة قرية قرب المدينة. انظر «النهاية».

[3] رواه أحمد (٣٢٨/٢) ، وحسن إسناده محققو «المسند» ، (٣٦٦/٤) ، وهو عند البخاري (٦٥٥١) ومسلم (٢٨٥٢) عن أبي هريرة أيضا بلفظ أخصر من هذا ، وفيه أن عرض جلده مسيرة ثلاثة أيام.

[4] روى هذا الحديث البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والظل ليس محصورا في السبعة ، فهناك أصناف أُخَر من الناس يقيهم الله حر ذلك اليوم ويُظِلهم تحت ظله بسبب أعمال صالحة قاموا بها ، وقد جاء ذلك في أحاديث جمعها ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» في شرح الحديث ، منها إنظار المعسر ، ودليله حديث أبي اليسر رضي الله عنه مرفوعا: من أنظر معسرا أو وَضع عنه ؛ أظله الله في ظله. رواه مسلم (٧٥١٢).

وفي الباب عن أبي هريرة رضي الله عنه ، انظر الحديث أعلاه.

وانظر للاستزادة كتاب «سطوع الهلال في الخصال الموجبة للظلال» ، لإبراهيم بن عبد الله الحازمي ، الناشر: دار الشريف – الرياض.

[5] نقله ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» في شرح الحديث المتقدم.

[6] رواها البيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٩٣) ، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٥٨٤٥) ، وصححها الشيخ ربيع بن هادي المدخلي في كتابه «القول الواضح المبين في المراد بظل الله الذي وعد به المؤمنين العاملين» ، وهو من منشورات مجالس الهدى – الجزائر.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : من أنظر معسرا أو وَضع له ؛ أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله.[1]

قال الذهبي في «العلو»: وقد بلغ في ظل العرش أحاديث تبلغ التواتر.[2]

فإن قيل: أليست الشمس تُكوَّر في ذلك اليوم ، أي تُلف ثم تُرمى ويذهب ضوؤها؟

فالجواب: بلى ، ولكن هذا يكون بعد موقف الحشر والذي تدنو فيه الشمس ، جمعا بين الآية والحديث.

٣. ومما يكون في أرض المحشر ورود الناس على حوض النبي ﷺ الذي في أرض المحشر ، فيشرب منه المؤمنون المستقيمون على الشريعة ، ويُذاد عنه صنفان من الناس:

الأول من ارتدوا عن الإسلام ، كالذين ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ ، ومن ارتد أيضا ممن جاء بعدهم إلى يوم القيامة.

والصنف الثاني هم أهل البدَع ، فإنهم يُذادُون – أي يُطردون – عن الحوض كما تُذاد الغريبة من الإبل.[3]

وهذا الحوض يَصُبُّ فيه مِيزابان[4] من نَهَر[5] الكوثر الذي بالجنة ، ومعنى الكوثر الخير الكثير ، وطول الحوض مسيرة شهر ، فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء ، ماؤه أشد بياضا من اللبن ، ورائحته أطيب من المسك ، ومذاقه أحلى من العسل ، من يشرب منه شربة فإنه لا يظمأ بعدها أبدا ، يصب فيه ميزابان من الجنة ، أحدهما من ذهب ، والآخر من فضة ، عرضه مثل طوله ، كما بين صنعاء والمدينة.[6]

قلت: وما أشد حاجة الناس للشرب منه في ذلك اليوم الشديد الحر ، الطويل الوقوف ، فمن أراد أن يشرب من حوض النبي ﷺ يوم القيامة فليُكثر الشرب من شريعته في الدنيا.

وحوض النبي ﷺ موجودٌ الآن ، كما قال النبي ﷺ : وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن.[7]

ولكل نبي حوض[8] ، وهذا من حكمته تعالى ورحمته بعباده ، ليشرب المؤمنون المتبعون للأنبياء السابقين.

---

[1] رواه الترمذي (١٣٠٦) ، وصححه الألباني.

[2] «العلو» (١٩١).

[3] انظر «صحيح مسلم» (٢٣٠٢).

[4] الميزاب ويسمى أيضا بالمزراب ، وهو المجرى الذي يُعد ليسيل منه الماء من موضع عال ، كسطح البيت وميزاب الكعبة. انظر «تاج العروس».

[5] قال النووي رحمه الله في شرح حديث مسلم (١٨٣): أما النهر ففيه لغتان معروفتان ، فتح الهاء وإسكانها ، والفتح أجود ، وبه جاء القرآن العزيز.

[6] انظر الأخبار الواردة في الحوض في «صحيح البخاري» ، كتاب الرقاق ، باب في الحوض ، وكذلك «صحيح مسلم» ، كتاب الفضائل ، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته.

[7] رواه البخاري (٦٥٩٠) ومسلم (٢٢٩٦) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

[8] رواه الترمذي (٢٤٤٣) عن سمرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني كما في «الصحيحة» (١٥٨٩).

٤. ومما يكون في أرض المحشر الشفاعة العظمى ، حيث إن الناس يوم القيامة يطول بهم الموقف ، مؤمنهم وكافرهم ، فيذهبون إلى الأنبياء ليشفعوا لهم عند ربهم لبدء الحساب ، ليرى كلٌّ سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، فيعتذر عنها الأنبياء الخمسة ، آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، ثم يُحيلهم عيسى ﷺ إلى محمد ﷺ ، فيذهبون إليه فيقول: (أنا لها) ، فيسجد تحت العرش ما شاء الله أن يسجد ، ثم يَفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يَفْتَحهُ على أحد قبله ، ثم يُقال له: (ارفع محمد ، وقُل يُسمع ، واشفع تُشَفَّع ، وسَل تُعطَ) ، فيشفع لأهل الموقف عند الله لبدء الحساب فيقبل الله شفاعته ، فيبدأ الحساب وفصل القضاء بين العباد كلهم ، مؤمنهم وكافرهم ، من لدن آدم إلى قيام الساعة.[١]

وهذه الشفاعة خاصة بالنبي ﷺ ، فعن جابر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: أعطيت خمسا **لم يُعطهنَّ أحد قبلي** ؛ نُصِرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعِلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، فأيُّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليُصلِّ ، وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تُحَلْ لأحد قبلي ، **وأُعِطيتُ الشفاعة** ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة.[٢]

وهذه الشفاعة هي المقام المحمود الوارد ذكره في قوله تعالى ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾[٣] ، وهو المقام الذي يحمده فيه الأولون والآخِرون يوم القيامة ، ويغبِطونه عليه ، إذ تكون له المنة على جميع الخلق في بدء الحساب ، مؤمنهم وكافرهم ، إنسهم وجِنُّهم.

وقد حث النبي ﷺ على الدعاء له بنوال هذ المقام المحمود ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال: من قال حين يسمع النداء: (اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آتِ محمدا الوسيلة والفضيلة ، **وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته**) ؛ حلت له شفاعتي يوم القيامة.[٤]

ولِعِظَم شأن هذه الشفاعة ؛ سماها أهل العلم بالشفاعة العظمى ، وهي أوَّل الشفاعات التي تكون يوم القيامة.

---

[١] أحاديث الشفاعة متواترة ، وردت عن جمع من الصحابة في الصحيحين وغيرهما ، انظر «صحيح البخاري» (٤٤٧٦ ، ٤٧١٢ ، ٦٥٦٥ ، ٧٤١٠ ، ٧٤٣٩ ، ٧٤٤٠ ، ٧٥١٠) ، و «صحيح مسلم» (١٩٣ – ١٩٥) عن أنس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وحذيفة ، رضي الله عنهم.

[٢] رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) ، واللفظ للبخاري.

[٣] سورة الإسراء: ٧٩ .

[٤] رواه البخاري (٦١٤).

وللنبي ﷺ شفاعات أخرى خاصة به وبعضها مشتركة مع غيره ، وسيأتي الكلام عليها بعد الكلام على دخول أهل الكبائر من المؤمنين للنار مراعاة للترتيب الزمني ، لأن تلك الشفاعات تكون بعد دخول الناس الجنة والنار.

وهنا انتهى الكلام عما يكون في موقف الحشر.

الخامس مما يدخل في الإيمان باليوم الآخر ؛ الحساب والجزاء ، والدليل على ثبوتهما قول الله تعالى ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[1] ، وقوله تعالى ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[2] ، وقوله تعالى ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[3].

والحساب والجزاء هو مقتضى الحكمة ، فإن الله تعالى أنزل الكتب وأرسل الرسل ، وفرض على العباد قَبول ما جاؤوا به ، والعمل بما يجب العمل به ، وأوجب قتال المعارضين له ، وأحل دماءهم وذرياتهم ونساءهم وأموالهم ، فلو لم يكن حساب ولا جزاء لكان هذا التشريع من العبثِ الذي يُنزَّه الرب الحكيم عنه.

والحساب حسابان ؛ حسابُ عَرضٍ وحسابُ مناقشةٍ وعذابٍ ، يدل لهذا قول النبي ﷺ : ليس أحد يحاسَب يوم القيامة إلا هَلَك.

فقالت عائشة: يا رسول الله ، أليس قد قال الله تعالى ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا﴾[4]؟

فقال رسول الله ﷺ : إنما ذلك العرْض ، وليس أحد يُناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذِّب.[5]

وقد جاء ذكر حال الصِّنفين في حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال: إن الله يُدنِي المؤمن فيضَع عليه كَنَفَه[6] ويَستُرُه ، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟

فيقول: (نعم أيْ رب) ، حتى إذا قرَّره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه هلك قال: (سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم) ، فيُعطى كتابَ حَسناتِه.

---

[1] سورة الغاشية: ٢٥- ٢٦ .

[2] سورة الأنعام: ١٦٠ .

[3] سورة الأنبياء: ٤٧ .

[4] سورة الانشقاق: ٧ .

[5] رواه البخاري (٦٥٣٧) ومسلم (٢٨٧٦) عن عائشة رضي الله عنها.

[6] كنَفه أي ستره ، وقيل رحمته ولطفه. انظر «النهاية».

وفي ذلك اليوم توزن أعمال الناس بموازين لإظهار عدل الله في الناس ، قال تعالى ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾[1].

فإن قيل: كيف توزن الحسنات والسيئات مع كونها أمور معنوية؟

فالجواب أن الأعمال تنقلب أجساما حسية بقدرة الله ، وهكذا غير الأعمال ، فالموت مثلا أمر معنوي لا حسي ، وفي يوم القيامة يؤتى به على هيئة كبش فيذبح بين الجنة والنار ، ثم ينادَى: (يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار ، خلودٌ فلا موت) ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : يؤتى بالموت كهيئة كبش أَملح[2] ، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة ، فيشرئِبُّون[3] ويَنظرون ، فيقول: هل تعرفون هذا؟

فيقولون: (نعم ، هذا الموت) ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي: (يا أهل النار) ، فيشرئبُّون وينظرون ، فيقول: هل تعرفون هذا؟

فيقولون: (نعم ، هذا الموت) ، وكلُّهم قد رآه ، فيُذبح ثم يقول: يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار ، خلود فلا موت.

ثم قرأ ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذْ قضي الأمر وهم في غفلة﴾[4] ، وهؤلاء في غفلةٍ ؛ أهل الدنيا ، ﴿وهم لا يؤمنون﴾.[5]

فإن قيل: هل توزن أعمال المؤمنين والكافرين جميعا ، أم المؤمنين فقط؟

فالجواب: الذي يوزن في الآخرة هو أعمال المؤمنين ، فإن لم تكن على المؤمن معاصي دخل الجنة ابتداء ، وأما إن كان عليه معاصي عُذِّب بها يُدخِلُه الله الجنة ، أو يَغفر الله له ابتداء فيدخل الجنة بلا عذاب ، إما بشفاعة الشفعاء أو بِمَنِّ الله عليه.

أما الكافر فلا توزن أعماله ، لأن الله تعالى يجازيه بها في الدنيا بالصحة وسعة الرزق ونحو ذلك[6] ، فإذا لقي الله في الآخرة فإنه ليس له إلا النار ولو عمل من الخير ما عمل ، قال تعالى ﴿أولئك الذين ليس لهم

---

[1] سورة الأنبياء: ٤٧ .

[2] الكبش الأملح هو الذي بياضه أكثر من سواده. انظر «النهاية».

[3] أي يرفعون رؤوسهم لينظروا إليه. انظر «النهاية».

[4] سورة مريم: ٣٩ .

[5] رواه البخاري (٤٧٣٠) ومسلم (٢٨٤٩).

[6] انظر مزيد كلام على مجازاة الكافر بحسناته للشنقيطي رحمه الله في «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» عند الكلام على قوله تعالى في سورة هود ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾ وكذا عند كلامه على قوله تعالى في سورة الزلزلة ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾.

في الآخرة إلا النار وحبِط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾[1] ، وقال تعالى ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾[2] ، وقوله تعالى ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء﴾[3] وقال تعالى ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا﴾[4].

فالحاصل أن الكفار والمنافقون لا يحاسبون حساب موازنة بين الحسنات والسيئات ، بل يحاسبون حساب تقرير وتقريع كما تقدم في حديث ابن عمر ، فيُقَرَّرون بها ويُطْلعون عليها ، فإذا أنكروا شَهِدَت عليهم أعضاؤهم ، ثم ينادى بهم على رؤوس الخلائق ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾[5] ، ثم يُزَجُّ بهم في النار عياذا بالله.

وفي هذا تنبيه على سِترِ الله للمؤمن وفضحِه للكافر.

والناس إذا دُعوا إلى حسابهم جثوا على ركبهم مما أصابهم من الهم ، قال تعالى في سورة الجاثية ﴿وترى كل أمة **جاثية** كلُّ أمة تُدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾[6].

فإن قيل: وما الجمع بين ما ورد من سؤال الله الناس يوم القيامة عن ذنوبهم وبين قوله تعالى ﴿فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾؟

فالجواب أن السؤال المنفي في هذه الآية هو سؤال الاستِعلام والاستِخبار لأن الله أعلم بذنوب الناس منهم.

وأما السؤال المُثبت في النصوص الأخرى فهو إما للتوبيخ والتقريع كما في قوله تعالى ﴿فأما الذين اسودَّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾ ، وإما لإظهار ستره وفضله على المؤمن كما في حديث ابن عمر المتقدم.[7]

---

[1] سورة هود: ١٦ .

[2] سورة الفرقان: ٢٣ .

[3] سورة إبراهيم: ١٨ .

[4] سورة النور: ٣٩ .

[5] رواه البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

[6] سورة الجاثية: ٢٨ – ٢٩ .

[7] انظر «أضواء البيان» للشنقيطي رحمه الله عند تفسير قوله تعالى من سورة الرحمٰن ﴿فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ ، وتفسير قوله قوله تعالى من سورة الأعراف ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ ، وانظر أيضا ما قاله في «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» عند الكلام على الآية نفسها من سورة الأعراف.

فصل

وأول ما يحاسب عليه العبد من أعماله صلاتُهُ ، فإن صَلحت صَلَحَ سائرُ عمله ، وإن فسدت فَسد سائرُ عمله.[1]

وأول ما يحاسب عليه العبد فيما يتعلق بحقوق الآدميين الدماء ، لقول النبي ﷺ : أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء.[2]

وفي ذلك اليوم تشهد أعضاء الإنسان عليه إذا أنكر ما عمله من السيئات ، فيشهدُ عليه سمعه وبصره وجلده ، قال تعالى ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يكسبون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾[3].[4]

وقال الحسن البصري في قول الله تعالى ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾[5]: يا ابن آدم ، أَنصَفَك من خَلقك ، جَعَلَكَ حسيبَ نفسِك.[6]

قال ابن كثير في تفسيره: هذا من حُسن كلام الحسن رحمه الله.

وروى ابن جرير الطبري في «تفسيره» عن قتادة في قول الله تعالى ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾: سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئا في الدنيا.

وفي ذلك اليوم يُستثنى من الحساب سبعون ألفا ، لا حساب عليهم ولا عذاب – جعلنا الله منهم – وهم المؤمنون الكُمَّل ، الذين قاموا بما أوجب الله عليهم من الطاعات ، وسارَعوا في الخيرات ، وتركوا المحرمات والمكروهات ، وقد جاء ذكرهم وصفتهم في حديث ابن عباس رضي الله عنهما المخرج في الصحيحين.[7]

---

[1] رواه الطبراني في الأوسط (١٨٨٠) ، (الناشر: دار الحديث – القاهرة) ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وصححه الألباني كما في «الصحيحة» (١٣٥٨).

[2] رواه البخاري (٦٥٣٣) ومسلم (١٦٧٨) عن ابن عمر رضي الله عنه.

[3] سورة فصلت: ١٩ – ٢١ .

[4] انظر صحيح مسلم (٢٩٦٨).

[5] سورة الإسراء: ١٤ .

[6] رواه ابن المبارك في «الزهد» (١٥٦٣).

[7] انظر صحيح البخاري (٦٥٤١) ، ومسلم (٢٢٠) والترمذي (٢٤٤٦) وأحمد (٢٧١/١).

وقد جاء في حديث آخر ما يدل على أن المشمولين بهذا الفضل أكثر من هذا العدد ، فعن أبي أمامة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: وعدني ربي أن يُدخِلَ الجنة من أمتي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب ، مع كل ألف سبعون ألفا ، وثلاث حثيات من حثياته.[1]
اللهم اجعلنا منهم ، آمين.

والحساب يشمل الجن والإنس ، فإن الجن داخلون في عموم الرسالة كما هو معلوم ، وهم مكلَّفون ، قال تعالى ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار﴾[2] ، وقال في حور الجنة ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾[3] ، فدلت الآية على أن في الجنة جِنًّا ، دخلوها كما دخلها الإنس لما استجابوا لرسلهم.

وفي ذلك اليوم يَقتَصُّ الله من البهائمِ بعضها لبعض ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: لتؤدَّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يُقاد[4] للشاة الجلحاء من الشاة القرناء.[5]

أي يُقتص للشاة التي لا قرون لها من ذات القرون التي نطحتها ، فسبحان من أبهر بعدله وحكمته العقول.
وهنا انتهى الكلام على موقف الحساب والجزاء.

السادس مما يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالجنة والنار ، وأنهما المآل الأبدي للخلق ، فالجنة دار النعيم التي أعدها الله تعالى للمؤمنين المتقين ، الذين آمنوا بما أوجب الله عليهم الإيمان به ، وقاموا بطاعة الله ورسوله ، مخلصين لله متبعين لرسوله ، فيها من أنواع النعيم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خَطَرَ على قلب بشر ، قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[6] ، وقال تعالى ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم من قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[7].

---

[1] أخرجه الترمذي واللفظ له (٢٤٣٧) ، وابن ماجه (٤٢٨٦) وأحمد (٥/٢٥٠) وابن أبي عاصم في السنة (٥٨٩) والطبراني في «الكبير» (٧٥٢٠ ، ٧٦٦٥ ، ٧٦٧٢) عن أبي أمامة رضي الله عنه ، وصحح إسناده الألباني رحمه الله كما في «الصحيحة» (١٩٠٩).

[2] سورة الأعراف: ٣٨ .

[3] سورة الرحمٰن: ٧٤ .

[4] يُقاد للشاة أي يُقتص لها. انظر «النهاية».

[5] رواه مسلم (٢٥٨٢).

[6] سورة البينة: ٧ – ٨ .

[7] سورة السجدة: ١٧ .

والجنة مئة درجة ، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: الجنة مئة درجة ، ما بين كل درجتين مسيرة مئة عام ، وقال عفان[1]: كما بين السماء إلى الأرض – ، والفردوس أعلاها درجة ، ومنها تخرج الأنهار الأربعة[2] ، والعرشُ من فوقها ، وإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس.[3]

وأما النار فهي دار العذاب التي أعدها الله تعالى لصنفين من الناس ؛ عصاة المؤمنين ، والكافرين ، فيها من أنواع العذاب والنَّكال ما لا يخطر على البال ، قال الله تعالى ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا﴾[4] ، وقال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾[5].

فالكافرون يبقون في النار إلى أبد ، وأما عُصاة المؤمنين فيعذبون فيها إلى أمد ، يُعذَّبون فيها بقدر ذنوبهم التي وقعوا فيها ، كخطايا اللسان ، أو الفرج ، أو قطيعة الرحم ، أو السماع المحرم ، أو النظر المحرم ، أو أكل مال محرم ونحو ذلك ، غير أن النار لا تمس أعضاء السجود ، وفي هذا تشريفٌ لعبادة الصلاة ، فمنهم من يعذب في النار إلى قدمه ، ومنهم من يغيب إلى أنصاف ساقيه ، فإذا تم استحقاقهم من النار فإنهم يُخرجون منها وقد امتُحِشوا[6] ، فيُلقَونَ في نَهَرٍ بأفواهِ الجنةِ[7] يقال له ماء الحياة ، فينبُتون كما تنبُتُ الحِبَّةُ[8] في حمِيلِ السَّيلِ ، أي جانبه.[9]

فإذا طُهِّرَ عصاةُ المؤمنين من ذنوبهم أُخرِجوا إلى الجنة.

---

[1] عفان هو أحد رواة الحديث.

[2] أنهار الجنة أربعة أجناس: الماء واللبن والخمر والعسل ، وقد جاء ذكر ذكرها في قوله تعالى في سورة محمد ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾.

[3] رواه أحمد (٥/٣١٦) ، وصحح إسناده محققو «المسند».

[4] سورة الكهف: ٢٩ ، وللفائدة فمعنى سُرادقها أي جدارها ، وقيل غير ذلك. انظر معنى الآية في «تفسير الطبري».

[5] سورة الأحزاب: ٦٤– ٦٦ .

[6] أي احترقوا ، والمَحْش احتراق الجلد وظهور العظم. انظر «النهاية».

[7] أفواه جمع فُوَّهة ، وأفواه الجنة أي أوائلها. قاله النووي رحمه الله في شرح حديث مسلم (١٨٣).

[8] الحِبَّة – بكسر الحاء – بزور البقول وحب الرياحين ، بخلاف الحَبة – بفتح الحاء – فهي الحنطة والشعير ونحوهما. انظر «النهاية».

[9] انظر «صحيح البخاري» (٧٤٣٧ ، ٧٤٣٩) ومسلم (١٨٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فصل في صفة النار

وجهنم عظيمة البنيان ، فظيعة المنظر ، شديدة الحر ، فأما عِظَم بنيانها فمستفاد من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زِمام[1] ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يَجرُّونها.[2]

وأما فظاعة منظرها فمعلوم من قول الله تعالى ﴿إنها لترمي بشرر كالقصر﴾ ، فشرار النار في حجمه كالقَصْر ، جمع قَصَرة ، وهي أصل الشجرة[3] ، فشرارة النار المتطايرة منها كحجم الواحدة من أصول الشجر ، نعوذ بالله منها.

وأما شدة حرها فأخبر عنه النبي ﷺ بقوله : ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم.
قيل: يا رسول الله ، إن كانت لكافية.
قال: فُضِّلت عليهن بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها.[4]

ولجهنم سبعة أبواب ، يدخل من كل باب من تلك الأبواب نصيب مقسوم معلوم من الناس ، قال تعالى ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾[5].

فصل

وطعام أهل النار يختلف بحسبهم ، إذ أهل النار يتفاوت عذابهم فيها بحسب سيئاتهم كمًّا وكيفًا ، فمِن أهل النار من طعامه الغِسلين ، قال تعالى ﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾[6] ، والغسلين هو ما يسيل من صديد أهل النار من غُسالة القروح.

ومنهم من طعامه الضَّريع ، وهو نبات الشَّبرق اليابس ، قال تعالى ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾[7].

ومنهم من طعامه الزَّقوم ، قال تعالى ﴿إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطون * كغلي الحميم﴾[8].[1]

---

[1] الزِّمام هو الحبل الذي تُربط فيه الناقة ونحوها مما يُقاد. انظر «لسان العرب».

[2] انظر «صحيح مسلم» (٢٨٤٢).

[3] انظر تفسير الآية عند ابن جرير الطبري في «تفسيره».

[4] رواه البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، واللفظ للبخاري.

[5] سورة الحجر: ٤٣ - ٤٤ .

[6] سورة الحاقة: ٣٦ .

[7] سورة الغاشية: ٦ .

[8] سورة الدخان: ٤٣ – ٤٦ .

والزقوم شجرة تخرج في أصل الجحيم ، كريهة المنظر ، كريهة المأكل ، قال تعالى ﴿أذلك خير نزلا أم شجرة الزقزم * إنا جعلناها فتنة للظالمين * إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم * طلعها كأنه رؤوس الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون﴾[٢].

وأما شراب أهل النار فإنهم يُسقون من الحميم – وهو الماء الحار – ويُصبُّ عليهم منه من فوق رؤوسهم ، فيُعذبون به من خارج أجسامهم وفي داخل أجوافهم ، فتنصهر جلودهم وتتقطع أمعاؤهم ، قال تعالى ﴿فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يُصب من فوق رؤوسهم الحميم * يُصهر به ما في بطونهم والجلود﴾[٣] ، وقال تعالى ﴿وسُقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم﴾[٤].

وهناك أنواع أخرى من الأشربة يُسقى بها أهل النار ، قد أشار الله تعالى إليها في قوله ﴿هذا فليذوقوه حميم وغسَّاق * وآخر من شكله أزواج﴾[٥] ، والغسَّاق هو ما يَقطِرُ من جلود أهل النار ، ذكره الراغب الأصفهاني في كتابه «مفردات ألفاظ القرآن».

وأشد الناس عذابا يوم القيامة ثلاثة أصناف ؛ آل فرعون ، وهم فرعون وأتباعه ، ومن كفر من أصحاب المائدة ، والمنافقون ، والدليل على ما تقدم قول الحق تبارك وتعالى ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾[٦] ، وقوله تعالى عن أصحاب المائدة ﴿فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين﴾[٧] ، وقوله تعالى عن المنافقين ﴿إن المنافقين في الدَّرْك الأسفل من النار﴾[٨].

فصل

والناس كلهم يرِدون النار أي يَمُرُّون عليها ، مؤمنهم وكافرهم ، كما قال تعالى ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا﴾[٩] ، ولكن من أراد الله نجاته من المؤمنين فإن النار لا تمسُّه ، بل يمر من فوقها على الصراط ولا تمسُّه بسوء ، أما من أراد الله عذابه من المؤمنين والكافرين فإن الكلاليب المعلقة بالصراط تخطِفُه وتُلقيه في النار ، فأما المؤمنين فيعذبون فيها بقدر معاصيهم ثم يخرجون إلى الجنة ، وأما

---

[١] انظر «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» ، سورة الحاقة ، قوله تعالى ﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾.

[٢] سورة الصافات: ٦٢ – ٦٦ .

[٣] سورة الحج: ١٩ .

[٤] سورة محمد: ١٥ .

[٥] سورة ص: ٥٧ – ٥٨ .

[٦] سورة غافر: ٤٦ .

[٧] سورة المائدة: ١١٥ .

[٨] سورة النساء: ١٤٥ .

[٩] سورة مريم: ٧١ .

الكافرين فيبقون فيها أبد الآباد ، وهذا هو معنى قوله تعالى في الآية بعدها ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثيا﴾[1].[2]

ومعنى الجِثِيِّ في الآية هو البُروك على الركب ، وهو شرُّ الجلوس ، لا يجلس الرجل جاثيا إلا إذا نزل به كرب.[3]

وأهل النار يُساقون إليها عِطاشا كما قال تعالى ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم وِردا﴾[4] ، أي عِطاشا ، فإن أصل الوِرد هو الاتيان إلى الماء ، ولما كان الاتيان إلى الماء لا يكون إلا من عطشٍ أُطلق اسم الورد على الجماعة العطاش ، قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية.

وفي ذلك اليوم يكون لأهل النار علاماتٌ تَعرفهم بها ملائكة النار ، فإذا عرفَتْهُم أمسَكَتْهم بنواصيهم – والناصية هي مُقدَّم شعر الرأس – وأقدامِهِم ، ثم تقذفهم في النار بقوة وعنف عياذا بالله ، قال تعالى ﴿يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذُ بالنواصي والأقدام﴾[5] ، وقال تعالى ﴿يوم يُدعُّون إلى نار جهنم دعًّا﴾[6] ، ومعنى يُدعُّون أي يدفعون فيها بقوة وعنف.

فإن قيل: وما تلك العلامات التي يُعرف بها أهل النار؟

فالجواب أن الله تعالى قد بين في كتابه علاماتِهِم المميزة لهم وهي سواد الوجوه وزرقة العيون كما في قوله ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾[7] ، وقال تعالى ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾[8] ، وقال تعالى ﴿كأنما أُغشِيت وجوههم قطعا من الليل مظلما﴾[9] ، وقال تعالى ﴿ووجوه يومئذ يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة﴾[10] ، والقترة هي السواد.

وأما زُرقة العيون فمذكورة في قوله تعالى ﴿ونحشر المجرمين يومئذ زرقا﴾[11].

---

[1] سورة مريم: ٧٢ .

[2] انظر للفائدة ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية المتقدمة من سورة مريم.

[3] انظر تفسير ابن جرير للآية الكريمة.

[4] سورة مريم: ٨٦ .

[5] سورة الرحمٰن: ٤١ .

[6] سورة الطور: ١٣ .

[7] سورة آل عمران: ١٠٦ .

[8] سورة الزمر: ٦٠ .

[9] سورة يونس: ٢٧ .

[10] سورة عبس: ٤٠ – ٤٢ .

[11] سورة طه: ١٠٢ .

أقول: وهذا بخلاف وجوه أهل الإيمان ، فإن وجوههم بيضاء وضيئة ، كما قال تعالى ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ ، ثم قال بعدها ﴿فأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾.
وقال تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾[1] ، أي حسنة مشرقة.[2]

وأهل النار يُسحبون فيها على وجوههم كما في قوله تعالى ﴿يوم يُسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سقر﴾[3].

وأهل النار يُلبَسون ثيابا من نار كما في الآية المتقدمة ﴿فالذين كفروا قُطِّعت لهم ثياب من نار﴾[4] ، ويُلبسون أيضا أقمصةٍ من نحاس ملهَبٍ بالنار كما في قوله ﴿سرابيلهم من قَطِران﴾[5] ، والسرابيل هي القُمُص ، جمع قميص ، والقَطِران هو النحاس المذاب بالنار.

وأهل النار يُضربون فيها بمطارق من حديد كما قال تعالى ﴿ولهم مقامع من حديد﴾[6] ، والمقامع في اللغة جمع مِقمعة ، وهي حديدة كالمحجن يُضرب بها على رأس الفيل ، ومعناها في الآية مرزبة عظيمة من حديد – وتعرف في زماننا بالمطرقة – تَضرب بها خزنة النار أهلها عياذا بالله ، ذكره الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية.

والحكمة من عذاب الله لأهل النار من المؤمنين تطهيرهم من الذنوب ، ثم يؤويهم الله بعد ذلك لجنته ، إذ الجنة طيبة فلا يدخلها إلا نفس طيبة ، والذنوب نجسة ، فوجب التطهير منها أولا ، وأما الكافر فإن الحكمة من عذاب الله له إهانته وخزيه ، ولا يترتب على ذلك تمحيص ولا تطهير ، لأن الخُبث متأصل فيه لا يزول بالنار ، فيبقى فيها أبد الآباد عياذا بالله.[7]

---

[1] سورة القيامة: ٢٢ .

[2] انظر «المعجم الوسيط».

[3] سورة القمر: ٤٨ .

[4] سورة الحج: ١٩ .

[5] سورة إبراهيم: ٥٠ .

[6] سورة الحج: ٢١ .

[7] انظر «أضواء البيان» في الكلام على تفسير قوله تعالى في سورة الجاثية ﴿ولهم عذاب مهين﴾ ، الآية: ٩ .
وانظر كذلك «دفع إيهام الاضطراب» في خاتمة كلامه على قول الله تعالى ﴿قال النار مثواكم فيها إلا ما شاء الله﴾ ، الأنعام: ١٢٨ .

فصل

والنار أعاذنا الله منها تُبصر وتَشهق وتَزفِر ، فأما الإبصار فورد في قوله تعالى ﴿إذا **رأتهم** من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا﴾[1] ، أي إذا رأت النار الكفار وهم في المحشر سمِعوا تغيظها وهو صوت الغليان ، وسمعوا زفيرها وشهيقها ، وهما صوتان معلومان ، والله أعلم بكنهِهما.

والنار تضطرم وتخبو كما قال تعالى ﴿كلما خبت زدناهم سعيرا﴾[2].

والنار موعودة ملؤها كما قال تعالى ﴿ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾[3].

فصل في صفة الجنة

الجنة جنان متعددة ، ليست نعيما متساويا ، بل النعيم فيها مُتفاوت ، وأهلها يتفرقون فيها بحسب أعمالهم الصالحة ، فجنتان جميع ما فيهما من ذهب ، وجنتان جميع ما فيهما من فضة ، كما قال تعالى في الجنتين الأُولَيين ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾[4] ، ثم قال في الجنتين اللتين هما دونهما في النعيم ﴿ومن دونهما جنتان﴾[5].

روى ابن جرير الطبري بسنده عن ابن زيد في تفسير هاتين الآيتين ما محصَّلُه أن الجنتين الأُوليين للسابقين المقربين ، والجنتين الأُخريين للأبرار أصحاب اليمين.

وعن عبد الله بن قيس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن.[6]

ويحسن هنا التنبيه إلى الفرق بين السابقين والأبرار ، فالسابقون هم القائمون بالفرائض والنوافل المنتهون عن المعاصي والمكروهات ، وأما الأبرار فهم القائمون بالفرائض المنتهون عن المعاصي ، أما النوافل فلم يحرصوا عليها على الوجه الأكمل ، وربما وقعوا في بعض المكروهات ، وأما المعاصي فكلا الفريقين منكفٌّ عنها سواء كانت من الصغائر أو الكبائر ، ولكن انكفاف السابقين عنها أعظم.

---

[1] سورة الفرقان: ١٢ .

[2] سورة الإسراء: ٩٧ .

[3] سورة السجدة: ١٣ .

[4] سورة الرحمٰن: ٤٦ .

[5] سورة الرحمٰن: ٦٢ .

[6] رواه البخاري (٧٤٤٤) ومسلم (١٨٠).

وتفضيل السابقين على الأبرار في الثواب ظاهر سببه ، فإن السابقين قد بذلوا وسعهم في طاعة الله والحذر من معصية الله ، كما نفع الله بهم غيرهم من الناس ، من دعوة وأمر بمعروف ونهي عن منكر وجهاد وصدقة وإصلاح ذات البين وقيام ليل وبناء مساجد ونحو ذلك.

أما الأبرار فلم يبذلوا أنفسهم بذلا عظيما في هٰذين السبيلين ، إصلاح النفس وإصلاح الغير ، فكانوا أقل من السابقين في الثواب.

ومن دلائل تفضيل السابقين على الأبرار قوله تعالى عن السابقين ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب﴾[1] ، وقال عن الأبرار ﴿وحُلُّوا أساور من فضة﴾[2].

وكذلك الأمر في الشراب ، فالسابقون — والموصوفون أيضا بالمقربين – يشربون من عين في الجنة تسمى «تسنيم» كما قال تعالى ﴿ومزاجه من تسنيم * عينا يشرب بها المقربون﴾[3] ، فالمقربون يشربون من عين «تسنيم» ، وأما الأبرار الذين هم دون المقربين في المنزلة فيمزج لهم في شرابهم من عين «تسنيم» ولا يشربون منها صِرفا ، كما قال في الآيات قبلها ﴿إن الأبرار لفي نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم * يُسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ ، ثم قال بعدها وهو الشاهد ﴿ومزاجه من تسنيم﴾.[4]

والأبرار يُخلط لهم شرابهم بالكافور أو الزنجبيل ، ودليل الكافور قوله تعالى ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا﴾[5] ، أي تمزج بالكافور فتطيب رائحتها ، ومنبع الكافور مذكور في الآية بعدها ﴿عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا﴾ ، والمقصودون بعباد الله في الآية هم السابقون قطعا ، وهم يشربون منها صرفا.

ودليل الزنجبيل قوله تعالى ﴿ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا * عينا فيها تسمى سلسبيلا﴾[6].

وتأمل قوله ﴿مزاجها﴾ ، ويقال فيه كما قيل في الكافور.

والأبرار — كما تقدم – ليسوا كالسابقين في الابتعاد عن المعاصي والمكروهات ، والإقبال على الفرائض والنوافل ، ومن تأمل سيرة أئمة الإسلام في القديم والحديث علِم أوصافهم استحقاقهم لتلك المنزلة بإذن الله.

---

[1] سورة الكهف: ٣١ .

[2] سورة الإنسان: ٢١ .

[3] سورة المطففين: ٢٧ .

[4] انظر ما نقله ابن جرير في تفسيره عن أئمة التفسير في هذه الآية.

[5] سورة الإنسان: ٥ .

[6] سورة الإنسان: ١٧ .

وقد أشار الله تعالى إلى الفرق في النعيم بين السابقين المقربين وبين الأبرار أصحاب اليمين في مطلع سورة الواقعة وآخرها فليُرجع إليه.

وأهل الجنة من أهل الوصف الواحد يتفاوتون فيما بينهم ، فالسابقون المقربون يتفاوت بعضهم عن بعض في النعيم بحسب أعمالهم ، وكذلك الأبرار أصحاب اليمين ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدُّري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم.
قالوا: يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم.
قال بلى والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين.[1]

ونعيم أهل الجنة يزداد ولا يبلى ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة ، فتهِب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسنا وجمالا ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا ، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا ، فيقولون: وأنتم والله ، لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا.

انتهى الكلام هنا على صفة الجنة والنار.

وللفائدة ، فمن أراد التوسع في معرفة الجنة وأوصافها وأوصاف أهلها فعليه بكتاب «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» لابن قيم الجوزية رحمه الله.

فصل في أن الجنة والنار مخلوقتان

والجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ، والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض **أُعدَّت** للمتقين﴾ ، والشاهد قوله ﴿أعدت﴾.
والدليل من السُّنةِ قولُ النبيِ ﷺ لبلال: حدِّثني بأرجى عملٍ عمِلته عندك في الإسلام منفعةً ، فإني سمعت الليلة خَشْفَ[2] نعليك بين يديَّ في الجنة.[3]

[1] رواه البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١).
[2] الخشف هو الحركة والصوت. انظر «المعجم الوسيط».
[3] رواه مسلم (٢٤٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن الأدلة كذلك على أن الجنة مخلوقة الآن قوله ﷺ : أُدخِلت الجنة ، فإذا فيها جَنابِذُ[1] اللؤلؤ ، وإذا ترابُها المِسك.[2]

أما الدليل على أن النار مخلوقة الآن فقوله تعالى ﴿واتقوا النار التي أُعدَّت للكافرين﴾[3] ، والشاهد قوله ﴿أعدت﴾.

ومن السنة أنه ﷺ رأى عمرو بن لُحَي يَجُرُّ قُصْبَه – أي أمعاءه – في النار ، وهو أول من غيَّر دين إبراهيم ، وأتى بالأصنام إلى جزيرة العرب.[4]

ورأى امرأة تعذب في النار في هِرةٍ حبستها ، لا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض[5].[6]

فصل في أن الجنة والنار باقيتان

والجنة والنار باقيتان لا تَبِيدان ولا تَفْنَيان ، والدليل على هذا ظاهر القرآن والسنة ، وقد ورد تأبيد خلود المؤمنين في الجنة وخلود الكفار في النار في عدة مواضع من القرآن ، ومن قال بأنهما تفنيان فقوله ضعيف لا يُعَوَّل عليه ، لأنه خلاف ظاهر النصوص ، وقد خاطب الله الناس بما يفهمون ، فالواجب إمرار النصوص كما جاءت بلا تحريف ولا تكلُّف.[7]

---

[1] الجنابذ هي القباب ، واحدتها جَنبَذة.

[2] قطعة من حديث الإسراء الطويل الذي رواه مسلم (١٦٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

[3] سورة آل عمران: ١٣١ .

[4] انظر حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري (٣٥٢١) ومسلم (٢٨٥٦).

[5] خشاش الأرض أي هوامها وحشراتها ، واحدتها خشاشة. انظر «النهاية» ، مادة خشش.

[6] انظر حديث ابن عمر الذي رواه البخاري (٢٣٦٥) ومسلم (٢٢٤٢).

[7] انظر للاستزادة ما قاله الشنقيطي رحمه الله في «دفع الإيهام» (ص: ١٣٣) عند تفسير قوله تعالى ﴿قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾ (الأنعام: ١٢٨).

وانظر كذلك ما قاله في الكتاب نفسه (ص: ٣٣٧) عند تفسير قوله تعالى من سورة النبأ ﴿لابثين فيها أحقابا﴾.

ذكر بعض مشاهد القيامة

هذا فصل مفيد في ذكر بعض مشاهد القيامة ، وتحرير الكلام في بعضها ، وهي كالتالي:

١. تطاير الصُّحُفُ

٢. ضرب الصِّراطُ على متنِ جهنم ، وأصناف الناس أثناء مرورهم عليه

٣. وقوف أناس على قنطرةٍ بين الجنة والنار

٤. كلام المشركين في مواطن من القيامة وختمُ الله على أفواههم في مواطن

٥. اعتذار الكفار إلى الله تعالى

٦. شفاعات النبي ﷺ للمؤمنين يوم القيامة

٧. شفاعات الشفعاء

تفصيل

١. تطايُر الصحف

في ذلك اليوم تتطاير الصُّحُفُ ، أي صحائف الأعمال ، فيأخذها الناس ، فمنهم من يأخذها باليمين وهم أهل الاستقامة ، ومنهم من يأخذها بالشمال وهم الكفار.

والمؤمن يأخذ كتابه وهو فرحٌ مستبشر ، قال تعالى ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه * إني ظننت أني ملاق حسابيه * فهو في عيشة راضية * في جنة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾[١].

وأما الكافر فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره ، فكما أنه جعل كتاب الله وراء ظهره ؛ فإنه يعطى كتابه من وراء ظهره ، جزاء وفاقا ، فيأخذه وهو حزين مستحسر ، قال تعالى ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوتي كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية * ما أغنى عني ماليه * هلك

[١] سورة الحاقة: ١٩ – ٢٤ .

عني سلطانيه﴾[1] ، وقال تعالى ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره * فسوف يدعو ثبورا * ويصلى سعيرا * إنه كان في أهله مسرورا * إنه ظن أن لن يحور * بلى إن ربه كان به بصيرا﴾[2].

فإن قيل: ماذا عن المسلم الفاسق مرتكب الكبائر ، الذي استحق دخول النار ، هل يأخذ كتابه بيمينه أم بشماله؟

فالجواب أنه لم يرد فيه هذا دليل صريح ، والذي يظهر أنه إن كان مستحقا لدخول النار فإنه يأخذ كتابه بشماله ، والله أعلم.[3]

[1] سورة الحاقة: ٢٥ – ٢٩ .

[2] سورة الإنشقاق: ١٠ – ١٥ . ومعنى يحور أي ظن أن لن يرجع إلى الله ويبعث ، لكونه لا يؤمن باليوم الآخر ، وانظر معنى الآية في «تفسير الطبري».

[3] أفادني بهذه الفائدة الشيخ محمد بن علي آدم الأثيوبي حفظه الله.

٢. ضرب الصِّراطُ على متنِ جهنم ، وأصناف الناس أثناء مرورهم عليه

وفي ذلك اليوم يُضربُ الصِّراطُ على متنِ جهنم أي ظهرِها ، ثم يَمُرُّ عليه الناس ، وهو مَدحَضةٌ مَزِلَّة ، أي تزلِق عليه الأقدام ولا تثبت[١] ، عليه خطاطيف[٢] وكلاليب[٣] ، وحَسَكةٌ مُفلطحةٌ – أي شوكة صلبة فيها عُرضٌ واتِّساع[٤] – ، على رأسها شوكةٌ عَقِيفَةٌ – أي ملتوية كالصنارة[٥] – تكون بنَـجدٍ ، يُقال لها السَّعدان ، فإذا مرَّ الناس عليها صاروا ثلاثة أصناف: إما ناجٍ مُسَلّمٌ ، أو ناجٍ مخدوشٌ ، أو مكدوسٌ – أي مدفوعٍ – في نار جهنم ، فالخطاطيف والكلاليب والأشواك ينجو منها أناس ويسلمون من خدشِها وإمساكِها ، وهم المؤمنون الكُمَّل الذين قاموا بطاعة الله واجتنبوا معاصي الله.

والصنف الثاني من الناس تخدِشُهم ولكن يَسلَمون من إمساكها بهم ويعبرون الصراط ، وهم الذين عندهم معاصي لم تستوجب دخول النار ، بل الخدش هو عقوبتهم في الآخرة فحسب ثم ينجون.

والصنف الثالث هم الذين تخطِفُهم وتهوي بهم إلى النار بدفع وقوة ، وهؤلاء هم المؤمنون الذين استحقوا دخول النار بسبب ما عندهم من المعاصي والكبائر ، فالكلاليب تخطِفُهم وتهوي بهم في نار جهنم عياذا بالله ، وكذلك الأمر بالنسبة للكافرين ، فإنهم تخطفهم الكلاليب ثم تلقي بهم في النار من باب أولى.

وسُرعةُ الناس على الصِّراط ليست باختيارهم ، بل بحسب أعمالهم ، كما جاء في الحديث (تجري بهم أعمالهم)[٦] ، فمن كان عمله صالحا حسناً مرَّ سريعا ، وسرعة الواحد بحسب عمله ، فمنهم من يَمُرُّ على الصِّراط كطرف العين ، ومنهم من يَمُرُّ كالبرق ، ومنهم من يَمُرُّ كالريح ، ومنهم من يَمُرُّ كالطير ، ومنهم من يَمُرُّ كأجاويدِ[٧] الخيل والرِّكاب ، ومنهم من يمر كعدو الرجال ، حتى يمرُّ آخرهم يُسحبُ سحباً.

ومن ساء عمله مرَّ بطيئا ، وربما خَطَفته الكلاليب إن كان ممن استحق النار.

والدليل على ما تقدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه المخرج في الصحيحين[٨] ، وكذا حديث أبي سعيد الخدري المخرج في الصحيحين[٩] ، وقد تركنا ذكرهما طلبا للاختصار.

---

[١] انظر «النهاية».

[٢] خطاطيف جمع خطَّاف ، وهو الحديدة المعوجة كالكلوب ، يُختطف بها الشيء. انظر «النهاية».

[٣] الكلاليب جمع كلُّوب ، بتشديد اللام ، وهو حديدة معوجة الرأس. انظر «النهاية».

[٤] انظر «النهاية» و «لسان العرب».

[٥] انظر «النهاية».

[٦] انظر «صحيح مسلم» (١٩٥) عن حذيفة رضي الله عنه.

[٧] أجاويد جمع جواد ، وهو الفرس السابق الجيد. انظر «النهاية».

[٨] انظر صحيح البخاري (٧٤٣٧) وصحيح مسلم (١٨٢).

[٩] انظر صحيح البخاري (٧٤٣٩) وصحيح مسلم (١٨٣).

٣. وقوف أناس على قنطرة بين الجنة والنار

وفي ذلك اليوم يقف المؤمنون الذين عُذِّبوا في النار بعد خروجهم منها على قنطرةٍ – أي جسرٍ – بين الجنة والنار ليتخلصوا مما علِق بقلوبهم من الغِلِّ والحسد والبغضاء ، فلا يدخلون الجنة إلا وقد طَهُرت قلوبهم ، فقد أخرج البخاري رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾[١] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : يَخلُصُ المؤمنون من النار[٢] ، فيُحبَسون على قنطرةٍ بين الجنة والنار ، فيُقتصُّ لبعضهم من بعضٍ مظالمَ كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده ؛ لأحدُهم أهدى بمنزِله في الجنة مِنهُ بمنزلِهِ كان في الدنيا.[٣]

قال ابن تيمية رحـــمه الله: فالنفوس الخبيثة لا تصلح أن تكون في الجنة الطيبة التي ليس فيها من الخبث شيء ، والتهذيب هو التخليص كما يُهذَّب الذهب فيُخلَّص من الغش ، فتبين أن الجنة إنما يدخلها المؤمنون بعد التهذيب و التنقية من بقايا الذنوب.[٤]

٤. كلام المشركين في مواطن وختمُ الله على أفواههم في مواطن

وفي ذلك اليوم يتكلم المشركون في مواطن ، ومن ذلك ما أشار إليه الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز في قوله على لسانهم ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾[٥].

ثم يَختم الله على أفواههم فتتكلم الأيدي والأرجل ، كما في قوله تعالى ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾[٦].[٧]

وفي ذلك اليوم يُكلِّم الله الكفار تقريعا وتوبيخا كما في قوله تعالى ﴿قال اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾[٨].

فإن قيل: وما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى عن الكفار ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾[٩]؟

---

[١] سورة الحجر: ٤٧ .

[٢] أي يسلَمون منها فيخرجون بعدما نشِبوا فيها. انظر «لسان العرب».

[٣] رواه البخاري (٦٥٣٥).

[٤] انظر «فتاوى ابن تيمية» (١٤/٣٤٤ – ٣٤٥) ، باختصار.

[٥] سورة الأنعام: ٢٣ .

[٦] سورة يٰس: ٦٥ .

[٧] وانظر للفائدة ما قاله الشنقيطي رحمه الله في «دفع إيهام الاضطراب» (ص ٩٠) في الكلام على قوله تعالى ﴿ولا يكتمون الله حديثا﴾ (النساء: ٤٢).

[٨] سورة المؤمنون: ١٠٧ .

[٩] سورة البقرة: ١٧٤ .

فالجواب ما اختاره الشنقيطي رحمه الله أن الكلام الذي نفاه الله هو الكلام الذي فيه خير ، وأما التوبيخ والتقريع والإهانة فإن الله يكلمهم به ، وهو من جنس عذابه لهم.[1]

٥. اعتذار الكفار إلى الله تعالى

وفي ذلك اليوم يعتذر الكفار إلى الله تعالى كما في قوله ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾[2] وقوله ﴿والله ربنا ما كنا كنا مشركين﴾[3].

فإن قيل: وما وجه الجمع بين ما أثبته الله في هذه الآية من اعتذار المشركين إليه وبين قوله تعالى ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾[4]؟

فالجواب من وجهين ذكرهما الشنقيطي رحمه الله:

الأول: أنهم يعتذرون حتى إذا قيل لهم تعالى ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ انقطع نطقهم ولم يبق إلا الزفير والشهيق كما قال تعالى ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾[5].

الثاني: أن يكون الاعتذار المنفي هنا هو الاعتذار الذي فيه فائدة ، ولما كان اعتذارهم ليس فيه فائدة كان كالعدم ، فلذا نفى الله وجوده في قوله تعالى ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾.[6]

---

[1] انظر «دفع إيهام الاضطراب» (ص ٣٩) في الكلام على قوله تعالى ﴿ أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾.
القيامة﴾.

[2] سورة النحل: ٢٨ .

[3] سورة الأنعام: ٢٣ .

[4] سورة المرسلات: ٣٦ .

[5] سورة النمل: ٨٥ .

[6] انظر «أضواء البيان» في الكلام على تفسير قوله تعالى في سورة النحل ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون﴾.

٦. فصل في شفاعات النبي ﷺ للمؤمنين يوم القيامة

ومما يكون يوم القيامة شفاعات النبي ﷺ ، وهي أربع شفاعات غير الشفاعة العظمى التي تقدم ذكرها:

فأولها شفاعتُه ﷺ للمؤمنين في دخول الجنة ، فإن المؤمنين إذا أتوا الجنة وجدوا أبوابها مغلقة ، فعندئذ يطرق النبي ﷺ باب الجنة ، فيقول خازن الجنة[١]: من أنت؟

فيقول: محمد.

فيقول: بك أُمِرتُ لا أفتحُ لأحدٍ قبلك.[٢]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **أنا أول الناس يشفع في الجنة** ، وأنا أكثر الأنبياءِ تَبَعاً[٣].[٤]

فالنبي ﷺ هو أول من يدخل الجنة ، ولا يدخلها أحد قبله ، وفي هذا إظهارٌ لشرف النبي ﷺ وفضلِه ، إذ أنه صاحب الشفاعة العظمى ليريح الناس من كربات المحشر ، وصاحب الشفاعة الثانية لنيل الفرح والسرور بدخول الجنة.

وثاني شفاعات النبي ﷺ شفاعته لمن لا حِساب عليهم يوم القيامة في دخول الجنة ، ودليلها حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل في الشفاعة ، وفيه: يا محمد ، أدخِل من أمتك من لا حِساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة[٥].[٦]

وثالثها شفاعةُ النبي ﷺ لعصاة المؤمنين ممن دخلوا النار بسبب معاصيهم في الخروج منها ، وهي التي عناها النبي ﷺ في قوله: (لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها ، وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعةً لأمتي في الآخرة)[٧] ، وكذا في قوله ﷺ : شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي.[٨]

---

[١] الخازن هو الحافظ للشيء ، وقد اشتُهر تسمية خازن الجنة بـ «رضوان» ، وهذا لا دليل صحيح عليه ، والصواب تسميته بخازن الجنة كما جاء في الحديث ، أفادني بها الشيخ محمد بن علي آدم الأثيوبي حفظه الله.

[٢] رواه مسلم (١٩٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

[٣] أي أتباعا من الناس.

[٤] رواه مسلم (١٩٦) واللفظ له ، وأحمد (١٤٠/٣) ، والدارمي في المقدمة ، باب ما أعطي النبي من الفضل.

[٥] قلت: في هذا تنبيه لفضلهم ، فإن للجنة سبعة أبواب كما جاء في التنزيل ﴿لها سبعة أبواب﴾ ، وكونهم يدخلون من الباب الأيمن منها فيه تنبيه لفضلهم ، فإن فضل التيامن معلوم في الإسلام.

[٦] رواه البخاري (٤٧١٢).

[٧] رواه البخاري (٦٣٠٤) ومسلم (١٩٨) والترمذي (٣٦٠٢) وابن ماجه (٤٣٠٧) وأحمد (٢٧٥/٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٨] رواه الترمذي (٢٤٣٥) ، وأبو داود (٤٧٣٩) ، وأحمد (٢١٣/٣) وصححه الألباني في المشكاة (٥٥٩٨ – ٥٥٩٩) عن أنس رضي الله عنه.

الشفاعة الرابعة: شفاعته ﷺ لعمه أبي طالب لتخفيف العذاب عنه ، لأنه كان يدافع عنه ويرد عنه أذى المشركين ، فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ : ما أغنيتَ عن عمِّك؟ فوالله كان يحوطُك ويغضَبُ لك.

قال: هو في ضَحْضاحٍ[1] من نار ، ولولا أنا لكان في الدَّرْكِ الأسفل من النار.[2]

هذه هي الشفاعات الخمس[3] التي سيقوم بها النبي ﷺ يوم القيامة ، العظمى ثم الشفاعات الأربع ، وجميعها وجميعها خاصة به ﷺ إلا شفاعته لعصاة المؤمنين ممن دخلوا النار ، فإنها مشتركة مع غيره من الشفعاء ممن سيأتي ذكرهم قريبا بإذن الله ، ثم إن النبي ﷺ قد خُصّ بتكرار هذه الشفاعة أربع مرات ليُخلِّص أفواجا من أهل الكبائر من أمته من النار ، مرَّة بعد مرَّة.

٧. شفاعات الشفعاء

ومما يكون يوم القيامة شفاعة الشفعاء لمن استحقها ، والشفعاء أنواع ستة:

الأول: الرسل

الثاني: المؤمنون

الثالث: الشهداء

الرابع: الأفراط

الخامس: الملائكة

السادس: القرآن

تفصيل

النوع الأول: شفاعة الرسل لأقوامهم

ومما يكون يوم القيامة بعد دخول الجنة والنار ؛ شفاعة الرسل للمؤمنين من أتباعهم ممن دخلوا النار بسبب ذنوبهم أن يخرجوا منها ، ودليله حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : إذا مُيِّز أهل الجنة وأهل النار ، فدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، **قامت الرسل فشَفَعوا** ، فيقول: انطلِقوا – أو اذهبوا – فمن عرفتم فأخرجوه ، فيخرجونهم قد امتُحِشوا[4] ، فيُلقُونهم في نَهَرٍ – أو على نَهَرٍ – يقال له

---

[1] قال ابن لأثير في «النهاية»: الضَّحضاح في الأصل: ما رقَّ من الماء على وجه الأرض ، ما يبلغ الكعبين ، واستعير هنا للنار.

[2] رواه البخاري (٣٨٨٣) ومسلم (٢٠٩) وأحمد (٢٠٦/١).

[3] وانظر «تهذيب السنن» لابن القيم ، كتاب السنة ، باب في الشفاعة ، (٢٢٦٩/٥) ، الناشر: مكتبة المعارف – الرياض.

[4] المَحْشُ هو احتراق الجلد وظهور العظم. انظر «لسان العرب».

«الحياة» ، فتسقط محاشُّهُم[1] على حافةِ النَّهَرِ ويَخرُجون بِيضاً مثل الثَّعارير[2] ، ثم **يَشفعون** فيقول: (اذهبوا – أو انطلقوا – فمن وجدتم في قلبه مِثقالَ قيراطٍ[3] من إيمان فأخرِجوهم) ، قال: فيُخرِجون بشرا ثم **يشفعون** ، فيقول: (اذهبوا – أو انطلقوا – فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردلة[4] من إيمان فأخرِجوه) ... الحديث.[5]

ومن الأدلة أيضا على شفاعة الرسل للمؤمنين الذين في النار حديث حذيفة عن النبي ﷺ قال: يقول إبراهيم يوم القيامة: يا ربَّاه ، فيقول جل وعلا: يا لَبَّيْكاه.

فيقول إبراهيم: (يا رب ، حَرَّقْتَ بَنِيَّ) ، فيقول: أخرجوا من النار من كان في قلبه ذرة أو شعيرة من إيمان.[6]

النوع الثاني: شفاعة المؤمنين

ومما يكون يوم القيامة بعد دخول الجنة والنار ؛ شفاعة المؤمنين الذين في الجنة لإخوانهم المؤمنين الذين في النار ممن دخلوها بسبب ذنوبهم في الخروج منها ، ودليلها ما جاء في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ... حتى إذا خَلَصَ المؤمنون من النار ، فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق **من المؤمنين يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار** ، يقولون: ربنا ، كانوا يصومون معنا ويصلون (معنا)[7] ويحجون (معنا) (ويعملون معنا).

فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم.

فتُحَرَّم صُورُهم على النار[8] ، فيُخرِجون خلقا كثيرا ، قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه.

ثم يقولون: ربنا ، ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به.

فيقول: ارجِعوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خيرٍ فأخرِجوه.

فيُخرِجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون: ربنا ، لم نَذَرْ فيها أحدا ممن أمرتنا.

ثم يقول: ارجِعوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقالَ نصف دينارٍ من خير فأخرِجوه.

---

[1] أي ما احترق منهم.

[2] الثعارير: نبات القِثّاء الصغار ، شُبِّهوا بها لأن القثاء ينمو سريعا ، وقيل غيره. انظر «النهاية».

[3] القُرْط: نوع معروف من حُلِيِّ الأذن. انظر «النهاية».

[4] الخردل نبات عشبي ، منه بزور يُتبل بها الطعام ، واحدتها خردلة ، يضرب بها المثل في الصغر. انظر «المعجم الوسيط».

[5] رواه البخاري (٦٥٥٨) ، وأحمد (٣/٣٢٥) واللفظ له.

[6] رواه ابن حبان (٧٣٧٨) ، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه عليه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

[7] أي تُحرَّم أجسام المؤمنين الذين هم من أهل الجنة على النار فلا يؤذيهم حرها إذا دخلوها لإخراج إخوانهم المؤمنين منها.

[8] ما بين الأقواس من لفظ البخاري دون مسلم.

فيُخرِجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون: ربنا ، لم نَذَرْ فيها ممن أمرتنا أحدا.
ثم يقول: ارجِعوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرِجوه.
فيُخرِجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون: ربنا ، لم نَذَرْ فيها خيرا.
وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤا إن شئتم: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما﴾[1].[2]
هذا ما يتعلق بشفاعة المؤمنين لإخوانهم المؤمنين.

النوع الثالث: فصل في شفاعة الشهداء

ومما يكون يوم القيامة بعد دخول الجنة والنار ؛ شفاعة الشُّهداء لإخوانهم المؤمنين ، ودليله حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : للشهيد عند الله ست خصال: يُغفر له في أول دَفعةٍ[3] ، ويَرى مقعده من الجنة ، ويُجار من عذاب القبر ، ويَأمنُ من الفزع الأكبر ، ويوضعُ على رأسه تاجُ الوقار ، الياقوتةُ منها خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ويُزَوَّجُ اثنتين وسبعين زوجةً من الحور العين ، **ويُشَفَّعُ في سبعين من أقاربه.**[4]

النوع الرابع من الشفاعات: شفاعة الأفراط

ومما يكون يوم القيامة بعد دخول الجنة والنار ؛ شفاعة الأفراط لوالِدِيهم ، والفَرَط هو الطفل الذي مات دون البلوغ ، ودليله حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ما من مسلمَين يموت بينهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحِنْثَ[5] إلا أدخلهم الله بفضل رحمته إياهم الجنة.
قال: يقال لهم: أُدخلوا الجنة.
فيقولون: حتى **يدخل آباؤنا.**
فيقال: **ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم.**[6]

النوع الخامس: شفاعة الملائكة لعُصاة المؤمنين في الخروج من النار ، وأَنَّ الله تعالى يُخرِجُ أقواما تَكرُّما منه بلا شفاعةٍ من أحد

---

[1] سورة النساء: ٤٠ .
[2] رواه مسلم (١٨٣) واللفظ له ، ورواه البخاري (٧٤٣٩) بدون قول أبو سعيد ، وما بين القوسين من لفظ البخاري.
[3] أي دفقة من دمه.
[4] رواه الترمذي (١٦٦٣) وابن ماجه (٢٧٩٩) وأحمد (١٣١/٤) ، وصححه الألباني في «الجنائز» ، ص ٥٠ ، سنة ١٤١٢ هـ.
[5] أي البلوغ.
[6] رواه النسائي (١٨٧٥) ، وأحمد (٥١٠/٢) ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٨٠).

ومما يكون يوم القيامة بعد دخول الجنة والنار ؛ شفاعة الملائكة لعصاة المؤمنين الذين في النار أن يخرجوا منها ، فبعد الشفاعات المذكورة يقول الله عز وجل: شفَعَت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين (وفي لفظ: **وبقيت شفاعتي**) ، فيقبض قبضة من النار فيُخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط ، قد عادوا حُمَماً[1] ، فيُلقيهم في نَهَرٍ في أفواه الجنة يقال له نَهَرُ الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحِبَّةُ في حَمِيل السَّيل.[2]

وفي حديث جابر رضي الله عنهما قال: يقول الله عز وجل: ... أنا الآن أُخرج بعلمي ورحمتي.

قال: فيُخرِجُ أضعافَ ما أخرجوا وأضعافَه ، فيُكتبُ في رقابهم «عتقاء الله عز وجل» ، ثم يدخلون الجنة ، فيسمون فيها «الجهنَّميين».[3]

فهؤلاء يخرجون من النار بدون شفاعة من أحد ، بل برحمة أرحم الراحمين.

النوع السادس: شفاعة القرآن

يشفع القرآن للمؤمنين يوم القيامة ، ودليله حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة **شفيعا لأصحابه** ، اقرؤوا الزَّهراوين ؛ البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غَيايتان[4] أو كأنهما فِرْقان من طيرٍ صوافَّ[5] ، **تُحاجَّان تُحاجَّان عن أصحابهما**.[6]

فصل في بيان شرطي قبول الشفاعة

وهذه الشفاعات المذكورة لا ينالها كل أحد ، بل من تحقق فيه شرطا الشفاعة قَبِل اللهُ الشفاعة فيه ، ومن لا فلا ، وهذه الشفاعة هي التي تسمى بالشفاعة المثبتة ، أي ثابتٌ تحققها ، وشرطا الشفاعة هما:

١ – **إذنُ اللهِ للشافعِ أن يشفعَ** ، ودليل هذا الشرط قوله تعالى ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا **بإذنه**﴾[7] ، ، وقوله تعالى ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن **أذن له**﴾[8].

---

[1] الحُمم هي الفحم ، واحدتها حُممة. انظر «لسان العرب».

[2] رواه البخاري (٧٤٣٩) ، ومسلم (١٨٣) واللفظ له ، عن أبي سعيد ، وما بين القوسين من لفظ البخاري.

[3] رواه أحمد (٣/٣٢٥) ، وصححه محققو «المسند» ، وقالوا: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[4] الغمامة معروفة ، والغياية هي كلُّ ما أظلّ الإنسانَ فوق رأسه. انظر «النهاية».

[5] فِرقان أي قطعتان ، وصوافُّ جمع صافَّةٍ ، أي باسطاتٌ أجنحتها في الطيران. انظر «المعجم الوسيط».

[6] رواه مسلم (٨٠٤) وأحمد (٥/٢٤٩).

[7] سورة البقرة: ٢٥٥ .

[8] سورة سبأ: ٢٣ .

وقد نصَّ القرآنُ في واحدٍ وعشرينَ موضعا على نفيِ حصولِ الشفاعةِ يوم القيامةِ إلا بإذن الله سبحانه وتعالى.[١]

٢ – رِضى الله عن المشفوع له ، ودليل هذا الشرط قوله تعالى ﴿ولا يشفعون إلا لمن **ارتضى**﴾[٢] ، وقوله تعالى ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمٰن **ورضي** له قولا﴾[٣].

وقد جمع الله هٰذين الشرطين – الأول والثاني – في قوله تعالى ﴿وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن **يأذن** الله لمن يشاء **ويرضى**﴾[٤].

ومما يدل على أن الشفاعة لا تكون إلا بعد الرضى عن المشفوع له ؛ أن إبراهيم عليه السلام سيشفع لأبيه آزر ولكن لن يَقبلَ اللهُ شفاعتَهُ لكونه من المشركين ، مع أن الشافع هو إبراهيم عليه السلام ، خليل الرحمٰن.[٥]

ومما ينبغي أن يُعلمَ أنَّ رِضى الله عن العبدِ لا يكون إلا بتحقيق التوحيد الذي هو إخلاص العبادات له سبحانه ، من صلاة ودعاء وذبح ونذر وغير ذلك ، كما قال النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه لما سأله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟

فقال: أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال «لا إله إلا الله» خالصا من قلبه ، أو نفسه.[٦]

---

[١] انظر «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» ، مادة شفع.

[٢] سورة الأنبياء: ٢٨ .

[٣] سورة طه: ١٠٩ .

[٤] سورة النجم: ٢٦ .

[٥] روى البخاري في صحيحه (٣٣٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟

فيقول أبوه: اليوم لا أعصيك.

فيقول إبراهيم (أي لربه): إنك وعدتني أن لا تخزيَني يوم يبعثون ، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟

فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين.

ثم يقال: يا إبراهيم ، ما تحت رجليك؟

فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار.

الذِّيخ: ذكر الضِّباع الكثير الشعر ، وقوله (متلطخ) أي في نتنه ، وقد نقل ابن حجر عن بعض الشراح أن الحكمة في مسخه ضبعا لتنفر نفس إبراهيم منه ، ولئلا يبقى في النار على صورته ، فيكون فيه غضاضة على إبراهيم ، خليل الرحمٰن ، وذكروا أن الحكمة في مسخه ضبعا أن الضبع من أحمق الحيوان ، وآزر كان من أحمق البشر ، فقد أصر على الكفر بعدما ظهر له من الآيات على يد ولده على أنه رسول من ربه ، فأصر على عبادة الأصنام.

قوله (قترة) في أول الحديث هي الغبرة يعلوها سواد كالدخان كما في «لسان العرب» ، وقال ابن حجر في شرح الحديث: القترة هي سواد الوجه من شدة الكرب.

[٦] رواه البخاري (٩٩) وأحمد (٣٧٣/٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال أيضا كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ... وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة ، إن شاء الله ، من مات من أمتي **لم يشرك بالله شيئا**.[1]

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ... وأعطيت الشفاعة ، وهي نائلة من أمتي **من لا يشرك بالله شيئا**.[2]

فهذه الأحاديث ونحوها تفيد اشتراط إخلاص العبادات كلها لله من دعاء وغيره لمن أراد أن يكون ممن سَعِدَ بشفاعة النبي ﷺ يوم القيامة ، أما من وقع في الشرك كدعاء المخلوقين أو الذبح لهم والنذر ونحو ذلك فإنه لن يشفع له أحد ولو فعل ما فعل ، وحتى لو شفع له أحد فإن شفاعته ليست مقبولة ولو كان الشافع له هو الرسول ﷺ لأن الشرك من موانع الشفاعة.

ولهذا فإن نبينا ﷺ قد أخبر قومه أنه لن يغني عنهم من الله شيئا ، لا شفاعة ولا غيرها ، إذا لم يحققوا التوحيد ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما أُنزلت هذه الآية ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[3] دعا رسول الله ﷺ قريشا فاجتمعوا ، فعمَّ وخَصَّ[4] فقال: يا بني كعب بن لؤي ، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني مرة بن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد شمس ، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا فاطمة ، أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لكم من الله شيئا.[5]

وفي لفظ: يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئا.

يا صفية عمة رسول الله ﷺ ، لا أغني عنك من الله شيئا.

يا فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، سليني من مالي ما شئت ، لا أغني عنك من الله شيئا.[6]

---

[1] رواه الترمذي (٣٦٠٢) ، وقال حديث حسن صحيح.

[2] رواه أحمد (١٦٢/٥) ، والطيالسي (٤٧٢) ، وصححه محققو «المسند».

[3] سورة الشعراء: ٢١٤ .

[4] أي جاء بالعام أولا من بطون قريش ، فنادى بني كعب ، ثم خص بعض البطون فنادى بني مرة بن كعب ، إلى أن خصَّ فنادى عمه وعمته وعمته وابنته.

[5] رواه مسلم (٢٠٤).

[6] رواه البخاري (٢٧٥٣) ، ومسلم (٢٠٤) واللفظ له ، والترمذي (٣١٨٥) والنسائي (٣٦٤٦) ، وأحمد (٣٥٩/٢).

وقول النبي ﷺ هنا لعمه العباس: (لا أملك لك من الله شيئا) ؛ هو كقول إبراهيم ﷺ لأبيه ﴿لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء﴾[1] ، وليس ذلك بغريب فالدين واحد والتوحيد واحد.

ولهذا لما استغفر النبي ﷺ لأمه نهاه الله عن ذلك ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي.[2]

فاستغفار النبي ﷺ لأمه – وإن كان من أعظم أسباب المغفرة لأنه استغفار نبي – إلا أنه لم يُقبل منه ، لأن المانع كان أقوى وهو الشرك ، فالواجب الحذر.

فالحاصل أن الشفاعة غير مقبولة مطلقا إلا فيمن انطبق عليه شرطا الشفاعة المتقدمة ، وهما الإذن والرضى ، فالله تعالى لا يرضى عن عمل المشرك ، وعليه فلا يأذن في الشفاعة لمشرك.

فإن قيل: كيف الجمعُ بين حصول شفاعة الرسول ﷺ لعمه أبي طالب – وقد مات مشركا – ، وما ذكرتم من أن كون المشركين لا يقبل الله الشفاعة فيهم؟

فالجواب: أن شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب ليست لإخراجه من النار مطلقا كما هو الحال في عصاة المؤمنين ، وإنما لتخفيف العذاب عنه فحسب ، جزاء له ، لأنه كان يحوط النبي ﷺ ويدافع عنه.

فصل في بيان ما يلتحق بالإيمان باليوم الآخر

يلتحق بالإيمان باليوم الآخر الإيمان كل ما يكون بعد الموت ، لأن الإنسان إذا مات فقد بدأت آخرته ، ويلتحق بالإيمان باليوم الآخر أمران ؛ **الأول:** الإيمان بفتنة القبر ، **والثاني:** الإيمان بعذاب القبر ونعيمه ، وهذا أوان التفصيل في كل منهما:

أ- الإيمان بفتنة القبر.

الفتنة هي السؤال والإختبار ، والمقصود بفتنة القبر سؤال الميت بعد دفنه عن ربه وعن دينه وعن نبيه ، فإن كانت الجنازة صالحة ثبَّتها الله عند السؤال فوُفِّقت للإجابة الصحيحة ، وإن كانت طالحة لم تُوفَّق للإجابة فعُذِّبت عياذا بالله ، وقد ورد في سؤال الميت في قبره أحاديث ثلاثة:

الأول: ما رواه البخاري عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قَرعَ نعالِهِم ؛ أتاه مَلَكان فيُقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل ، لمحمد ﷺ ؟

فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله.

---

[1] سورة الممتحنة: ٤ .

[2] رواه مسلم (٩٧٦) ، والنسائي (٢٠٣٣) ، وأبو داود (٣٢٣٤) ، وابن ماجه (١٥٧٢) ، وأحمد (٤٤١/٢).

فيُقال له: انظر إلى مقعدك من النار ، قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة.

فيراهما جميعا.

قال قتادة: وذُكِر لنا أنه يُفسَحُ له في قبره.

ثم رجع إلى حديث أنس قال:

وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟

فيقول: لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس.

فيقال: (لا دَريت ولا تَليت) ، ويُضرب بمطارقَ من حديدٍ ضربةً ، فيَصيحُ صيحةً يسمعُها من يَليهِ[1] غيرُ الثَّقَلين[2].[3]

الدليل الثاني: حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن الملكين يأتيان الميت المؤمن بعد دفنه فيُجلسانه فيقولان له: من ربك؟

فيقول: ربي الله.

فيقولان له: ما دينك؟

فيقول: ديني الإسلام.

فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟

فيقول: هو رسول الله ﷺ .

فيقولان له: وما عِلمُك؟

فيقول: قرأت كتاب الله ، فآمنت به وصدّقت.

فينادي مناد في السماء أن صدق عبدي ، فأفرِشوه من الجنة[4] ، وألبِسوه من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة.

قال: فيأتيه من رَوْحِها[5] وطيبها ، ويُفسح له في قبره مدَّ بصره.

قال: ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول: أبشر بالذي يسُرُّك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير.

---

[1] الذي يظهر من كلام ابن حجر رحمه الله في «الفتح» أن المقصود بقوله (من يليه) أي الحيوانات ، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البزار (يسمَعُهُ كل دابة إلا الثقلين).

[2] الثقلان هما الإنس والجن ، قال ابن حجر في شرح الحديث: لأنهم كالثُّقل على وجه الأرض.

[3] رواه البخاري (١٣٧٤).

[4] أي اجعلوا له فراشا من الجنة.

[5] قال الملا علي القاري في «مرقاة المفاتيح»: (مِن رَوحها) ؛ أي بعض رَوحها ، والروح بفتح الراء ؛ الراحة ونسيم الريح.

فيقول: أنا عملك الصالح.

فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجِع إلى أهلي ومالي.

ثم قال في الكافر: ويأتيه ملكان فيُجلِسانه فيقولان له: من ربك؟

فيقول: هاه ، هاه ، لا أدري.

فيقولان له: ما دينك؟

فيقول: هاه ، هاه ، لا أدري.

فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟

فيقول: هاه ، هاه ، لا أدري.

فينادي منادٍ من السماء أن كذَبَ ، فأفرشوا له من النار ، وافتحوا له باب إلى النار ، فيأتيه من حرِّها وسَمومها ، ويُضيَّق عليه قبرُه حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، مُنتِنُ الريح ، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد.

فيقول: من أنت ، فوجهُك الوجه يجيء بالشر؟

فيقول: أنا عملك الخبيث.

فيقول: ربِّ لا تُـقِم الساعة.[1]

الدليل الثالث: ما رواه البخاري في «صحيحه» عن هشام بن عروة عن امرأته فاطمة بنت المنذر عن أسماء بنت أبي بكر عن أختها عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: ... ولقد أوحِي إليَّ أنكم تُفتنون في القبور مثل – أو قريبا – من فتنة الدجال – لا أدري أيتهما قالت أسماء – يؤتى أحدكم فيُقال له: ما عِلمك بهذا الرجل؟

فأما المؤمن أو الموقن – لا أدري أي ذلك قالت أسماء – فيقول: محمد رسول الله ﷺ ، جاءنا بالبينات والهدى ، فأجبنا وآمنا واتبعنا.

فيقال له: نم صالحا ، فقد علِمنا إن كنت لموقِنا.

وأما المنافق أو المرتاب – لا أدري أيتهما قالت أسماء – فيقول: لا أدري ، سمِعت الناس يقولون شيئا فقلته.[2]

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٤/٢٨٧) في حديث طويل ، وأبو داود (٤٧٥٣) ، وصحح إسناده محققو «المسند» وقالوا: رجاله رجال الصحيح ، وكذا صححه الألباني كما في «صحيح الجامع» (١٦٧٦) و «مشكاة المصابيح» (١٦٣٠).

[2] أخرجه البخاري (١٠٥٣) ، والشك في اللفظين من عند هشام بن عروة.

فبيَّنت هذه الأحاديث أن الميت يُسأل في قبره ، فالمؤمن يثبته الله عند السؤال ويوفقه للإجابة الصحيحة ، كما قال تعالى ﴿يُثَبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾[1] ، وأما الكافر فلا يُجيب ، فيعامله الله بما يستحق.

ب- الأمر الثاني مما يلتحق بالإيمان باليوم الآخر هو عذاب القبر ونعيمه ، ودليل ذلك حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : فلولا أن لا تدافنوا لدعوتُ اللهَ أن يُسمِعَكُم من عذابِ القبرِ الذي أسمعُ منه.

ثم أقبل بوجهِهِ فقال: تعوَّذوا بالله من عذاب النار .

فقالوا: نعوذ بالله من عذاب النار.

فقال: تعوَّذوا بالله من عذاب القبر.

فقالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر.

قال: تعوَّذوا بالله من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن.

قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

قال: تعوَّذوا بالله من فتنة الدجال.

قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال.[2]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : إذا تشهَّدَ أحدُكم فليَسْتعذ بالله من أربعٍ ، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، **ومن عذاب القبر** ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شرِّ فتنة المسيح الدجال.[3]

---

[1] سورة إبراهيم: ٢٧ .

[2] رواه مسلم (٢٨٦٧).

[3] رواه البخاري (١٣٧٧) ومسلم (٥٨٨) ، واللفظ لمسلم.

فصل في بيان من يستحق عذاب القبر

وعذاب القبر يكون لطائفتين من الناس ؛ عصاة المؤمنين ، والكافرين ، ودليل الأول حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ على قبرين ، فقال: أما إنهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يَستَتِر[1] من بولِه.[2]

فالنميمة من كبائر الذنوب ، وكذلك عدم التنزه من البول ، فوقع مرتكبهما في معصية الله مع كونهما مسلمَين.

والدليل على عذاب القبر للكافرين قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ والملائكة بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[3] ، فقوله ﴿اليوم تجزون﴾ دليل على أنهم سيباشرون العذاب فورا.

وأيضا فالسياق يُفِيد بأن الظالمين يَشُحُّون بأنفسهم ، ولا يُريدونها أن تخرج ، لأنهم يُبشَّرون بالعذاب حينها ، عياذا بالله.

وقال تعالى في آل فرعون ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آل فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[4] ، فقوله ﴿غدوا وعشيا﴾ أي قبل قيام الساعة ، لأنه قال بعدها ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ ، ففرق بين العذاب الذي يكون قبل قيام الساعة والذي يكون في حينها.

وأما نعيم القبر فللمؤمنين الصادقين ، قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[5] ، ووجه الدلالة من الآية قول الله على لسان الملائكة ﴿وأبشروا بالجنة﴾ ، وهذا يكون حال التَّوفِّي وخُروج الروح ، فالبشارة بالجنة حال التوفِّي وخروج الروح يعد من النعيم ، وهو الشاهد.

ومن أدلة القرآن على نعيم القبر قوله تعالى ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ * فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾[6].

---

[1] أي لا يجعل بينه وبين بوله سترة ، فيصيب الثوب نجاسة بوله.

[2] رواه البخاري (٢١٦) ومسلم (٢٩٢) ، واللفظ لمسلم.

[3] سورة الأنعام: ٩٣ .

[4] سورة غافر: ٤٦ .

[5] سورة فصلت: ٣٠ .

[6] سورة الواقعة: ٨٣-٨٩ .

ووجه الدلالة من الآية أن هذه البشارة بنعيم الرَّوح[1] والريحان وجنةِ النعيم يكون إذا بلغت الروح الحلقوم كما دلت عليه الآية ، وهذا فيه دلالة على النعيم الذي يلقاه الإنسان يكون مبدؤه عند موته ، وهو أول نعيم القبر.

ومن أدلة القرآن على نعيم القبر قوله تعالى ﴿كذلك يجزي الله المتقين * الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾[2] ، ووجه الدلالة من الآية قوله تعالى على لسان الملائكة حال توفيهم للمؤمنين: ﴿ادخلوا الجنة﴾.

ومن الأدلة كذلك على بشارة المؤمن بالنعيم قُبَيل خروج روحه قوله تعالى ﴿يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي﴾[3].

وقد دلت السنة على أن المؤمن يُبشر بالنعيم قبل خروج روحه ، كما في حديث البراء بن عازب المتقدم ، وفيه قول الملكين للمؤمن بعدما يجيب الملكين على أسئلة القبر: (أيتها النفس الطيبة ، أُخرُجي إلى مغفرة من الله ورضوان) ، فتفرَح الروح وتخرُج خروجا سهلا ، فأي أدلة على نعيم القبر وعذابه أدل من هذه الأدلة؟!

ثم قال:

ثم ينادي مناد من السماء أن صَدَقَ عبدي ، فافرِشوه من الجنة ، وألبِسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة.

قال: فيأتيه من رَوحِها وطِيبها ، ويُفسَح له في قبره مَدَّ بصره.

قال: ويأتيه رجل حَسَنُ الوجه ، حَسَنُ الثياب ، طَيِّبُ الريح ، فيقول: أبشِر بالذي يَسُرُّك ، هذا يومك الذي كنت تُوعد.

فيقول له: من أنت ، فوجهُك الوجهُ يجيء بالخير؟

فيقول: أنا عملك الصالح.

فيقول: ربِّ أَقِمِ الساعة ، حتى أرجع إلى أهلي ومالي.[4]

وبمقتضى هذه الأدلة من الكتاب والسنة أجمع المسلمون على ثبوت عذاب القبر ونعيمه.

---

[1] الرَّوح هو الراحة ، وقد تقدم بيان معنى (الروح) ، وانظر تفسير ابن كثير للآيات المتقدمة.

[2] سورة النحل: ٣١ – ٣٢ .

[3] سورة الفجر: ٢٧ – ٣٠ .

[4] أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٤/٢٨٧) في حديث طويل ، وأبو داود (٤٧٥٣) ، وصحح إسناده محققو «المسند» وقالوا: رجاله رجال الصحيح ، وكذا صححه الألباني كما في «صحيح الجامع» (١٦٧٦) و «مشكاة المصابيح» (١٦٣٠).

فوائد متفرقة تتعلق بعذاب القبر ونعيمه

وأمرُ البِشارةِ بنعيم القبر أو عذابه أمرٌ مشاهد بالحِس ، ففي بعض حالات الوفاة يُرى المُحتضِر وهو يبتسم وكأنه قد نزلت به ملائكة الرحمة ، وقد يُرى غيره ووجهه كالحٌ وجِلٌ ، وكأنه قد نزلت به ملائكة العذاب.

وعذاب القبر جزء من عقوبة من أراد الله عُقوبتَه إن كان الميت مؤمنا ، وقد تدوم هذه العقوبة حتى تتصل بعذاب النار يوم القيامة ، وقد تنقضي عقوبته في قبره فلا تتصل ، كل هذا بحسب ذنوبه ، وبحسب مشيئة الله عز وجل ، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه.

وفتنة القبر – أي سؤال الملكين – وعذاب القبر ونعيمه يحصل للإنسان سواء دُفِن في الأرض أو غرِق في البحر أو أكلته السباع أو احترق فصار رمادا ، فسبحان الله القدير.

فإن قيل: هل عذاب القبر ونعيمه يقعان على الروح أم على البدن؟

فالجواب عن هذه المسألة ما قاله العلامة الإمام ابن أبي العز الحنفي رحمه الله في شرح «العقيدة الطحاوية»[1] حيث قال:

وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ولا تتكلم عن كيفيته ، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته لكونه لا عهد له به في هذه الدار ، والشرع لا يأتي بما يُحيله المعقول ، ولكنه قد يأتي بما تَحار فيه العقول ، فإن عودَ الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا ، بل تُعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا ، فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام:

أحدها: تعلقها به في بطن الأم جنيناً.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به في حال النوم ، فلها به تعلق من وجه ، ومفارقة من وجه.

الرابع: تعلقها به في البرزخ ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها إليه التفاتٌ البتة ، فإنه ورد ردُّها إليه وقت سلام المسلِّم ، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يُولُّون عنه ، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

[1] انظر كلامه عند شرحه لقول الطحاوي: (والقبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النيران).

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد ، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه ، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً ، فالنوم أخو الموت ، فتأمُّل هذا يزيح عنك إشكالات كثيرة.

واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه ، قُبِرَ أو لم يقبر ، أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً ونُسف في الهواء ، أو صُلب أو غَرق في البحر؛ وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور ، وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك فيجب أن يُفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير ، فلا يُحمَّل كلامه ما لا يحتمله ، ولا يقَصَّر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان ، فكم حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله ، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصلُ كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام ، وهو أصل كل خطأ في الفروع والأصول ، ولا سيما إن أُضيف إليه سوء القصد ، والله المستعان.

فالحاصل أن الدور ثلاثة: دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، وقد جَعَلَ الله لكل دارٍ أحكاما تخصها ، ورَكَّب هذا الإنسان من بدن ونفس ، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان ، والأرواح تبعٌ لها ، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح ، والأبدان تبع لها ، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعاً ، فإذا تأملت هذا المعنى حق التأمل ظهر لك أن كون القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار مطابق للعقل ، وأنه حق لا مرية فيه ، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم ، ويجب أن يُعلم أن النار التي في القبر والنعيم ليس من جنس نار الدنيا ولا نعيمها ، وإن كان الله تعالى يُحمِي عليه التراب والحجارة التي فوقه وتحته حتى يكون أعظم حراً من جمر الدنيا ، ولو مسَّها أهل الدنيا لم يُحسُّوا بها ، بل أعجب من هذا أن الرجلين يُدفنان ، أحدهما إلى جنب صاحبه ، وهذا في حفرة من حفر النار وهذا في روضة من رياض الجنة ، لا يصل من هذا إلى جاره شيء من حر ناره ، ولا من هذا إلى جاره شيء من نعيمه ، وقدرة الله أوسع من ذلك وأعجب ، **ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علما** ، وقد أرانا الله في هذه الدار من عجائب قدرته ما هو أبلغ من هذا بكثير ، وإذا شاء الله أن يُطلع على ذلك بعض عباده أطلَعه وغيبه عن غيره ، ولو اطْلع الله على ذلك العباد كلهم لزالت حكمة التكليف والإيمان بالغيب ، ولما تدافن الناس ، كما في الصحيح عنه ﷺ : لولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع.

ولما كانت هذه الحكمة منتفية في حق البهائم سمِعت ذلك وأدركته.

انتهى كلامه رحمه الله.

فصل في الرد على من أنكر عذاب القبر[1]

وقد ضلَّ قومٌ من أهل الزَّيغِ فأنكروا عذاب القبر ونعيمه ، زاعمين أن ذلك غير ممكن لمخالفته الواقع ، بزعمهم ، قالوا: لو كُشِفَ عن الميتِ في قبره لوُجِد كما كان عليه ، وأن القبر لم يتغير بسعة ولا ضيق!

وهذا الزعم باطل بدلالة الشرع والحس والعقل ، فأما الشَّرع فقد تقدم ذكر النصوص الدالة على ثبوت عذاب القبر ونعيمه فيما يلتحق بالإيمان باليوم الآخر.

وأما دلالة الحِسُّ ؛ فالعاقل يعتبر بالنوم الذي هو أخو الموت ، فإن النائم يرى في منامه أنه في مكان فسيح بهيج يتنعم فيه ، أو أنه في مكان ضيق موحش يتألم منه ، وربما يستيقظ مما رأى ، وهذا مع كونه على فراشه في حجرته على ما هو عليه.

فإذا كان النعيم أو العذاب يُعقل بالنوم ؛ دل ذلك على امكان عذاب القبر والإنسان ميت ، فقد سمى الله النوم وفاةً في قوله تعالى ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[2].

وأما دلالة العقل ؛ فإن النائم يرى في منامه الرؤيا الحق المطابقة للواقع ، وربما رأى النبي ﷺ على صفته ، ومن رآه على صفته فقد رآه حقًا ، وهو مع ذلك نائم في حجرته على فراشه ، بعيدٌ عما رأى ، فإن كان هذا ممكنًا في أحوال الدنيا ؛ أفلا يكون ممكنًا في أحوال الآخرة؟!

وأما اعتمادهم فيما زعموه على أنه لو كُشف عن الميت في قبره لوُجِد كما كان عليه ، بكون القبر لم يتغير بسعة ولا ضيق ، والأضلاع لم تختلف ؛ فجوابه من وجوه منها:

الأولى: أنه لا تجوز معارضة ما جاء به الشرع من الغيبيات بالعقل ، بل الواجب هو تسليم العقل لما جاءت به الشريعة ، لأن عقول البشر قاصرة عن إدراك الغيبيات ، وأحوال البرزخ من أمور الغيب التي لا يدركها الحس ، لأنه يقع على الروح في الأصل ، وما يقع على الروح ليس أمرا محسوسا وملموسا لغير الميت ، ولو كانت أحوال البرزخ تُدرك بالحس لفاتت فائدة الإيمان بالغيب ، ولتساوى المؤمنون بالغيب والجاحدون في التصديق بها.

الثاني: أن عذاب القبر ونعيمه وسِعة القبر وضِيقه إنما يدركه الميت دون غيره ، وهذا كما يرى النائم في منامه أنه في مكان ضيق موحش ، أو في مكان واسع بهيج ، وهو بالنسبة لغيره لم يتغير منامه ، هو في حجرته ، وبين فراشه وغطاءه ، وقد كان النبي ﷺ يوحى إليه وهو بين أصحابه فيسمع الوحي ، ولا يسمعه الصحابة ، وربما يتمثل له الملك رجلا ، فيكلمه والصحابة لا يرون الملك ولا يسمعونه.

---

[1] هذا الفصل مستفاد أكثره من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين رحمه الله ، ص ١٠٨ – ١١٠ .

[2] سورة الزمر: ٤٢ .

الثالث: أن إدراك الخلق محدود بما مكَّنهم الله تعالى من إدراكه ، ولا يمكن أن يُدركوا كل موجود ، فالسماوات السبع والأرض ومن فيهن وكل شيء يسبح بحمد الله تسبيحًا حقيقيًا ، وتسبيحهم لا يُدركه الناس ولا يفقهونه ، قال الله تعالى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن من شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1].

وهكذا الشياطين والجن يَسعون في الأرض ذهابًا وإيابًا ، وقد حضَرَتِ الجن إلى رسول الله ﷺ واستمعوا لقراءته وأنصتوا وولوا إلى قومهم منذرين ، ومع هذا فهم محجوبون عنا ، وفي ذلك يقول الله تعالى عن الشيطان ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[2] ، وإذا تبيَّن أن الخلق لا يُدركون كل موجود ؛ فلا يجوز أن يُنكروا ما ثبت من أمور الغيب ولم يُدركوه.

الرابع: أن أضلاع هذا الميت قد تختلف إن كان من أهل الشقاوة ، فإذا كُشِف عنها أعادها الله امتحانا للعباد ، لأنها لو بقيت مختلفة لصار الأمر شهادة وليس غيبا ، ففات الإيمان بعذاب القبر الذي هو من الغيب.

فصل في الرد على منكري اليوم الآخر[3]

وقد أنكر صنف من الكفار باليوم الآخر في القديم والحديث ، من الدهرية والمشركين وغيرهم ، زاعمين أن بعث الأجساد بعد الموت غير ممكن ، وهذا الزعم باطل بدلالة الشرع والحس والعقل.

أما الشرعُ فقد قال الله تعالى ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِير﴾[4] ، وقد اتفقت جميع الكتب السماوية عليه.

وأما الحِسُّ فقد أرى الله عباده إحياء الموتى في هذه الدنيا ، وفي سورة البقرة خمسة أمثلة على ذلك وهي:

---

[1] سورة الإسراء: ٤٤ .

[2] سورة الأعراف: ٢٧ .

[3] هذا الفصل مستفاد أكثره من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين رحمه الله ، ص ١٠٥ – ١٠٨ ، وانظر للفائدة ما قاله شيخه الشنقيطي رحمه الله في هذه المسألة في كتابه «أضواء البيان» في المواطن التالية:

الأولى: تفسير قوله تعالى من سورة البقرة ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾.

الثانية: مطلع تفسير سورة الجاثية من عند قوله رحمه الله: اعلم أن هذه البراهين العظيمة المذكورة في أول سورة الجاثية هذه ثلاثة منها من براهين البعث ... الخ.

الثالثة: كتابه: «الرحلة إلى أفريقيا» ، ص ٣١ .

[4] سورة التغابن: ٧ .

المثال الأول: قوم موسى حين قالوا له ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ ، فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى مخاطبًا بني إسرائيل ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم من بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

المثال الثاني في قصة القتيل الذي اختصم فيه بنو إسرائيل ، فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة فيضربوه ببعضها ليخبرهم بمن قتله ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2].

المثال الثالث في قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت وهم ألوف ، فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾[3].

المثال الرابع في قصة الذي مر على قرية ميتة فاستبعد أن يحييها الله تعالى ، فأماته الله تعالى مئة سنة ثم أحياه ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّه وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4].

المثال الخامس في قصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حين سأل الله تعالى أن يُرِيَه كيف يُحيِي الموتى ، فأمره الله تعالى أن يذبح أربعة من الطير ويفرقهن أجزاءً على الجبال التي حوله ، ثم يناديهن فتلتئم الأجزاء بعضها إلى بعض ، ويأتين إلى إبراهيم سعيًا ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[5].

فهذه أمثلة حسية واقعية تدل على إمكانية إحياء الموتى ، وقد سبقت الإشارة إلى بعض آيات عيسى ابن مريم في مبحث الإيمان بالرسل ، من إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم بإذن الله تعالى.

وأما دلالة العقل على بعث الأجساد بعد الموت فمن خمسة وجوه:

---

[1] سورة البقرة: ٥٥ – ٥٦ .

[2] سورة البقرة: ٧٢–٧٣ .

[3] سورة البقرة: ٢٤٣ .

[4] سورة البقرة: ٢٥٩ .

[5] سورة البقرة: ٢٦٠ .

أحدها: أن الله خلق السماوات والأرض ، وخلقُهُما من أعظم الخلق ، فمن خلق الأعلى فهو قادر على خلق الأدنى ، قال تعالى ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعيَ بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾[1] ، وقوله ﴿يعيَ﴾ أي: يعجز.

الثاني: أن الله تعالى القادر على خلق كل شيء ابتداءً ، قادر على إعادته ، قال الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[2] ، وقال تعالى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[3] ، وقال آمرا نبيه ﷺ بالرد على من أنكر إحياء العظام وهي رميم[4] ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[5].

الثالث: أن الأرض تكون مَيِّتَةً هامدة ليس فيها شجرة خضراء ، فينزل عليها المطر فتهتز خضراء حية ، يخرج منها من كل زوج بهيج ، قال الله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزلْنَا عَلَيْهَا الماء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[6] ، وقال تعالى ﴿وَنزلْنَا من السَّمَاء مَاء مبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيد * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقًا للعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً ميتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[7].

فالشاهد أن القادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى من قبورهم ، فكلاهما إحياء بعد إماتة.

الرابع: أن الله تعالى خلق الإنسان في أصل خلقته **من عدمٍ** لما خلق آدم عليه السلام ، ثم خلق ذريته من **أصلٍ** وهو الماء المهين ، فهل يُعجِزه أن يعيد خِلقته في اليوم الآخر من **أصلٍ** آخر وهو عَجَبُ الذَّنب[8]؟!

الخامس: أنه لو لم يكن هذا البعث لمحاسبة الناس لكان إيجاد الناس عَبَثا ، فما الحكمة من قوم يُخلقون ويُرزقون ، ثم يؤمرون وينهون ، فيُطيع مطيعُهم ، ويَعصي عاصيهُم ، ثم يموتون ، ثم لا يجازى المُحسن على إحسانه ، ولا المسيء على إساءته؟!

---

[1] سورة الجاثية: ٣٢ .

[2] سورة الروم: ٢٧ .

[3] سورة الأنبياء: ١٠٤ .

[4] العظم الرميم هو العظم البالي. انظر «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني.

[5] سورة يٰس: ٧٩ .

[6] سورة فصلت: ٣٩ .

[7] سورة ق: ٩ – ١١ .

[8] عَجَبُ الذنب هو الفقرة الأخيرة من العمود الفقري للإنسان ، وهو الجزء الذي لا يبلى من جسم الإنسان بعد موته.

ومن المعلوم أن إيجاد الناس عبثا أمرٌ يُـنَزّه عنه الله عز وجل ، قال تعالى ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾[1].

فائدة في تعدد أسماء اليوم الآخر

اليوم الآخر يشمل فترتين ، الأولى وهي مؤقتة ، والثانية وهي دائمة ، فأما الأولى فتبدأ من حين يُنفخ في الصور النفخة الأولى إلى حين استقرار الناس في منازلهم ، في الجنة أو في النار.

والثانية تبدأ من حين استقرار الناس في منازلهم إلى ما لا نهاية ، فهي خالدة دائمة.

وقد جاء تسمية الفترة الأولى في القرآن بأسماء كثيرة تبلغ العشرين[2] ، هذا بيانها:

١. (الساعة) ، ويراد بها الوقت الذي يؤذن به في بدء اليوم الآخر ، ويكون عند النفخ في الصور النفخة الأولى ، قال تعالى ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾.

٢. ومن أسماء الفترة الأولى (الصاخة) ، سميت بذلك لأنها تصُخُّ الأسماع فيُصعق الناس ، ويكون ذلك إذا نُفِخ في الصور النفخة الأولى ، قال تعالى ﴿فإذا جاءت الصاخة﴾.

٣. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم القيامة) ، سميت بذلك لأن الناس يقومون فيه لله تعالى ، وقد ورد اسم (يوم القيامة) في سبعين موضعا من كتاب الله.

٤. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم البعث) ، سمي بذلك لأن الناس يُبعثون فيه من قبورهم ، ﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث﴾.

٥. وكذلك يوم الخروج ، ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج﴾ ، سمي بذلك لأن الناس يخرجون فيه من قبورهم.

٦. ومن أسماء الفترة الأولى (القارعة) ، سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها ، ﴿القارعة * ما القارعة * وما أدراك ما القارعة﴾.

٧. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم الفصل) ، سمي بذلك لأن الله يفصل فيه بين الناس ، ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتا﴾.

---

[1] سورة المؤمنون: ١١٥ – ١١٦ .

[2] استفدت هذا المبحث من كتاب «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» ، للقرطبي رحمه الله ، ص ٢٦٦ ، تحقيق: فواز أحمد زمرلي ، الناشر: دار الكتاب العربي – لبنان.

٨. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم الدِّين) ، والدِّين هو الجزاء والحساب ، سمي بذلك لأن الله يجازي الناس فيه ويحاسبهم ، ﴿مالك يوم الدين﴾.

٩. ومن أسماء الفترة الأولى (الطامة الكبرى) ، سميت بذلك لأن مصيبتها تَطُمُّ على كلِّ مصيبة وتغلِبها ، ﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾.

١٠. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم الحسرة) ، سمي بذلك لشدة تحسُّر الناس – مؤمنهم وكافرهم – على ما فرَّطوا في جنب الله ، فالمؤمن يتمنى لو أنه استزاد من الطاعات ، والفاسق يتمنى لو أنه ترك السيئات ، والكافر يتمنى لو أنه آمن بالله تعالى ودخل دين الإسلام ، ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قُضِي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾.

١١. ومن أسماء الفترة الأولى (الغاشية) ، سميت بذلك لأنها تغشى الناس بالهم والفزع ، وقيل لأن النار تغشى الكفار وتحيط بهم ، كما قال تعالى ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ ، وقال ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾.

١٢. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم الحساب) ، سمي بذلك لأن الناس يحاسبون فيه على أعمالهم ، ﴿إن الذين يَضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾.

١٣. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم الجمع) ، سمي بذلك لأن الله تعالى يجمع الناس فيه ليجازيهم ، قال تعالى ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر يوم الجمع لا ريب فيه﴾.

١٤. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم التلاق) ، سمي بذلك لأن الناس يلتقون فيه على صعيد واحد ، ﴿لينذر يوم التلاق﴾.

١٥. ومن أسماء الفترة الأولى (الواقعة) ، سميت بذلك لتحقق وقوعها ، كما قال تعالى ﴿إذا وقعت الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة﴾.

١٦. ومن أسماء الفترة الأولى (الحاقة) ، سمي بذلك لأنه تتحقق فيه الأمور من وعدٍ ووعيد ، قال تعالى ﴿الحاقة * ما الحاقة﴾.

١٧. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم الوعيد) ، سمي بذلك لأن الله توعد فيه من عصاه بالعقوبة ، وللفائدة فالوعيد يُطلق على العقوبة ، بخلاف الوعد فإنه يطلق على الجزاء الحسن ، ﴿ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد﴾.

١٨. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم الآزفة) ، سمي بذلك لأن يوم القيامة قد أَزِف أي قَرُبَ ، ﴿أزفت الآفة * ليس لها من دون الله كاشفة﴾.

١٩. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم التناد) ، كما قال مؤمن آل فرعون لقومه ﴿ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد﴾ ، سمي بذلك لكثرة ما يحصل من نداء في ذلك اليوم ، فكل إنسان يُدعى باسمه للحساب والجزاء ، وأصحاب الجنة يُنادُون أصحاب النار ، وأصحاب النار يُنادون أصحاب الجنة ، وأهل الأعراف يُنادون هؤلاء وهؤلاء.

٢٠. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم التغابن) ، والغبن هو فوات الحظ ، والمراد بالمغبون من غُبِنَ في أهله ومنزله في الجنة ، فيظهر يومئذ غَبْنُ كل كافر بترك الإيمان ، وغَبْنُ كل مؤمن بتقصيره في الإحسان. قاله البغوي بمعناه.

فصل

وأما الفترة الثانية التي تبدأ من حين استقرار الناس في منازلهم فتسمى بـ (يوم الخلود) ، قال تعالى ﴿ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود﴾ ، سمي بذلك لأن الناس يخلدون فيه في منازلهم ، كُلٌّ بحسبه ، المؤمنون في الجنة والكفار في النار ، والخلود طول الإقامة ، قال تعالى ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ ، وقال في الكفار ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

أما الفترتين فيشملهما (اليوم الآخر) كما تقدم ، وكذلك لفظ (الآخرة).

فائدة:

قال القرطبي رحمه الله: وكلُّ ما عَظُم شأنه تعددت صفاته ، وكثُرت أسماؤه ، وهذا في جميع كلام العرب ، ألا ترى أن السيف لما عظُمَ عندَهم موضعه ، وتأكد نفعه لديهم وموقعه ؛ جمعوا له خمسمائة اسم ، وله نظائر.

فالقيامة لما عظُم أمرها ، وكثرت أهوالها ؛ سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة ، ووصفها بأوصاف كثيرة.[١]

قلت: ولغير ما تقدم أسماء كثيرة لعِظَمِها ، فالله تعالى له أسماء كثيرة ، والنبي ﷺ له أسماء كثيرة ، ولو استقرأ الإنسان لوقف على مسميات كثيرة في هذا الباب.

[١] كتاب «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» ، ص ٢٦٦ .

فصل في ثمرات الإيمان باليوم الآخر[1]

الأولى: الرغبة في فعل الطاعة والحرص عليها رجاء لثواب ذلك اليوم.

الثانية: الرهبة عند فعل المعصية والرِّضى بها خوفًا من عقاب ذلك اليوم.

الثالثة: تسلية المؤمن عما يفوته من الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها.

الرابعة: العلم بعدل الله تعالى ، حيث أنه سيجازي العباد على أعمالهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

الخامسة: العلم بحكمة الله تعالى ، حيث أنه لم يخلق العباد عبثا ، بل خلقهم لحكمة بالغة وهي عبادته ، بفعل الطاعات واجتناب المنهيات ، ثم يحاسبهم على ذلك في الآخرة.

[1] هذا الفصل مستفاد أكثره من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ١٠٥ .

الركن السادس: الإيمان بالقَدَر خيره وشره

القَدَر هو تقدير الله تعالى للكائنات حسَبَ ما سبق في علمه واقتضته حكمته.

والإيمان بالقدر يتضمن أربعة أمور: الإيمان بالعلم والكتابة والمشيئة والخلق ، وهذا تفصيل الكلام فيها.

الأول: العلم ، أي الإيمان بأن الله تعالى عَلِمَ كُـلَّ شيء جملة وتفصيلاً ، أَزَلاً[1] وأبدًا ، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله ، كالإحياء والإماتة وإنزال المطر ، أو بأفعال عباده ، كأقوالهم وأفعالهم ، أو بأفعال الحيوانات ، فكلها معلومة لله عز وجل ، والدليل على هذا من الكتاب والسنة والعقل ، فأما الكتاب فقوله تعالى ﴿وكان الله بكل شيء عليما﴾[2] ، وقال ﴿وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾[3] ، وقال تعالى ﴿ربنا ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما﴾[4] ، وقال تعالى ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سِرَّهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾[5] ، فهو يعلم السر الذي يخفيه الإنسان في قلبه ، والحديث الذي يحدث به نفسه ، ويعلم النجوى ، وهو كلام الإنسان مع صاحبه.

وقال تعالى ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾[6].

وظلمات الأرض المقصودة في الآية الكريمة هي ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الطين وظلمة السحاب وظلمة المطر وظلمة الغبار ، فهذه الظلمات السِّتُّ لا تحولُ دون علم الله عز وجل بتلك الحبة ورؤيته لها ، والله أعلم ، فربما كان هناك ظلمات غير هذه الظلمات السِّـتِّ لا نعلمها.

والمقصود بالكتاب المبين في الآية هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير كل شيء.

قال ابن عثيمين رحمه الله في «شرح العقيدة الواسطية»[7] ما محصَّله أنه لوحٌ كَتَب الله فيه مقادير كل شيء ، ووُصِف بكونه محفوظا لأنه محفوظٌ من أيدي الخلق ، فلا يمكن أن يُلحِق أحدٌ به شيئا ، أو يُغيِّر به شيئا أبدا ، كما أنه محفوظٌ من التغيير ، فالله عز وجل لا يُغيِّر فيه شيئا لأنه كتبه عن علم منه. انتهى.

---

[1] الأزل هو القِدم. انظر «لسان العرب».

[2] سورة الأحزاب: ٤٠ .

[3] سورة الطلاق: ١٢ .

[4] سورة غافر: ٧ .

[5] سورة الزخرف: ٨٠ .

[6] سورة الأنعام: ٥٩ .

[7] (١٩٧/٢).

وعِلمُ الله بكل شيء قد دل عليه العقل ، وذلك أن الله تعالى هو الخالق وما سواه مخلوق ، ولا بد أن يكون الخالق عالما بما خلق ، قال تعالى ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[1].

وعِلم الله عز وجل لم يسبقه جهلٌ ولا يلحقه نسيان ، ولهذا لما قال فرعون لموسى ﴿فما بال القرون الأولى﴾ ؛ أجاب موسى فقال ﴿علمها عند ربي في كتاب لا يَضل ربي ولا ينسى﴾[2] ، ومعنى لا يَضل أي لا يَجهل.

أما علم البشر فإنه محفوف بهاتين الآفتين: الجهل السابق والنسيان اللاحق.

وإنكار عِلم الله لما سيكونُ في المستقبلِ كفرٌ ، ولهذا لما ظهر قوم في القرن الأول يقولون إن الله لا يعلم الشيء إلا بعد وقوعه ؛ قال عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما للذي أخبره عنهم – وهو يحيى بن معمر – : أخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآء مني ، والذي يَحلِف به عبد الله بن عمر ؛ لو أن لأحدهم مثل أُحُدٍ ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر.

ثم روى عن أبيه عن النبي ﷺ حديث جبريل المتقدم[3] ، لما سأل النبي ﷺ عن الإيمان ، فأجابه ، وذكر أركانه ، وعَدَّ منها الإيمان بالقدر.[4]

فبراءة ابن عمر ممن أنكر عِلمَ الله بما سيكون في المستقبل ظاهرة في تكفيره إياهم ، وقد حكى القاضي عياض رحمه الله إجماع العلماء على كفر من قال بهذا القول ، فقال في شرحه على الحديث: القائل بهذا كافر بلا خلاف.[5]

الثاني: الكتابة ، أي الإيمان بأن الله كتب مقادير كل شيء إلى قيام الساعة في اللوح المحفوظ ، كتب ذلك قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال تعالى ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾[6].

وقال ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾[7].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **كتب** الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.[8]

---

[1] سورة الملك: ١٤ .

[2] سورة طه: ٥٢ .

[3] انظر مقدمة الكتاب.

[4] رواه مسلم (٨).

[5] انظر «شرح النووي على صحيح مسلم» ، حديث رقم (٨).

[6] سورة التوبة: ٥١ .

[7] سورة الحديد: ٢٢ ، وانظر للفائدة ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة.

[8] رواه مسلم (٢٦٥٣).

وعن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له: اكتُب.
قال: ربِّ ، وماذا أكتُب؟
قال: اكتُب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة.
ثم قال عبادة لابنه: يا بني ، من مات على غير هذا فليس مني.[1]

قلت: وفي هذين الأمرين — العلم والكتابة – يقول الله تعالى ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾[2].

الثالث: المشيئة ، ومعناها الإيمان بأن جميع ما يكون ويحصل في هذا الكون لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى ، أي بإذنه الكوني ، سواء كان مما يتعلق بأفعاله ، كالإحياء والإماتة وتدبير أمور هذا الكون ، أو مما يتعلق بأفعال المخلوقين ، من ذهاب ومجيء ، وفعل وترك ، وطاعة ومعصية ، وغير ذلك من أفعال العباد التي لا تعد ولا تحصى ، قال الله تعالى فيما يتعلق بفعله ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ﴾[3] ، وقال ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاء﴾[4] ، وقال ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء﴾[5].
وقال تعالى فيما يتعلق بأفعال المخلوقين ﴿وَلَوْ شَاء اللَّه لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾[6] ، فالاقتتال الذي هو فعل العبد لا يقع إلا بمشيئته ، أي بإذنه الكوني ، وقال ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[7] ، وقال ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾[8].
فلا يقع شيء في هذا الكون إلا بمشيئة الله تعالى وإذنه الكوني ، سواء كان مما يتعلق بأفعاله أم بأفعال عباده ، لأن هذا الكون ملك لله ، فما دام الشيء ملكه فإنه لا يكون في ملكه إلا ما شاءه وأذِن به ، ولا يكون في ملكه شيء بدون إذنه ، ولو كان يقع شيء بدون إذنه لكان ملكه ناقصا ، تعالى الله عن ذلك.

الرابع: الخلق ، أي الإيمان بأن جميع الكائنات خلقها الله تعالى بذواتها وصفاتها وأفعالها من العدم ، قال الله تعالى ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[9].

---

[1] رواه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٣٣١٩) واللفظ لأبي داود ، وصححه الألباني رحمه الله.
[2] سورة الحج: ٧٠.
[3] سورة القصص: ٦٨ .
[4] سورة إبراهيم: ٢٧ .
[5] سورة آل عمران: ٦ .
[6] سورة النساء: ٩٠ .
[7] سورة الأنعام: ١١٢ .
[8] سورة الأنعام: ١٠٧ .
[9] سورة الزمر: ٦٢ .

وقال ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[1].

وقال عن نبي الله إبراهيم ﷺ أنه قال لقومه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[2].

وقال ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾[3].

وثمّتَ دليلٌ عقليٌ على أن الله هو الخالق لأفعال العباد ، وهو أن الفعل وصف للفاعل ، والصِّفة تتبع الموصوف ، فإذا كان الإنسان مخلوقا لله فكذلك أفعاله مخلوقة بدلالة التّضمُّن ، لأنّ خالقَ الأصلِ خالقٌ للفرعِ.

وبهذا تم الكلام على مراتب الإيمان بالقدر ، العلم والكتابة والمشيئة والخلق ، وقد جمع بعضهم مراتب الإيمان بالقدر في قوله:

علمٌ كتابةُ مولانا مشيئتُه ... وخلقُه وهو إيجادٌ وتكوين

فصل في بيان أنواع التقدير[4]

أنواع التقدير ثلاثة:

١. **التقدير الأزلي**[5] وذلك قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة عندما خلق الله تعالى القلم ، ، فقال له: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة.[6]

٢. **التقدير العُمري** ويكون عند تخليق النطفة في الرحم ، فيكتب إذ ذاك ذكورتها وأنوثتها ، والأجل والعمل ، والشقاوة والسعادة ، والرزق وجميع ما هو لاقٍ ، فلا يُزاد فيه ولا يُنقص منه ، ودليله حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: إن أحدكم يُجمع خلقُه في بطن أمه أربعين يوماً[7] ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مُضغة مثل ذلك ، ثم يَبعث الله ملكا ويؤمر بأربع كلمات ، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله ، وشقي أو سعيد ، ثم يُنفخ فيه الروح ... الحديث.[8]

---

[1] سورة الفرقان: ٢ .

[2] سورة الصافات: ٩٦ .

[3] سورة القمر: ٤٩ .

[4] هذا الفصل مختصر من «معارج القبول» للشيخ حافظ الحكمي رحمه الله ، فصل: الإيمان بالقدر على أربع مراتب ، ثم زدت عليه كلاما للشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي رحمه الله.

[5] تقدم بيان أن الأزل هو القِدم.

[6] تقدم ذكر الحديثين الدالين على ذلك في أول الباب.

[7] وهذا في حال كونه نُطفةً من ماء.

[8] رواه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣).

٣. **التقدير الحَولي** ويكون في ليلة القدر ، ويقدر فيها ما يكون في السنة إلى مثلها في السنة المقبلة ، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منزلين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين﴾[١].

قال الحسن البصري رحمه الله: والله الذي لا إله إلا هو إنها لفي كل رمضان ، وإنها الليلة التي يُفرق فيها كل أمر حكيم ، يقضِي الله كلَّ أجلٍ وخلق ورزقٍ إلى مثلها.[٢]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يُكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر ، حتى الحُجَّاج يقال: يحج فلان ويحج فلان.[٣]

وأخرج الطبري نحوه عن مجاهد.[٤]

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي رحمه الله في تفسيره عند تفسير قول الله تعالى ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾:

أي يُفصَل ويُميَّز ويُكتب كلُّ أمرٍ قدريٍّ وشرعيٍّ حَكَمَ اللهُ به ، وهذه الكتابة والفرقان الذي يكون في ليلة القدر إحدى الكتابات التي تُكتب وتُميَّز ، فتُطابِقْ الكتاب الأول الذي كتب الله به مقادير الخلائق وآجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم[٥] ، ثم إن الله تعالى قد وَكَلَ ملائكةً تكتب ما سيجري على العبد وهو وهو في بطنِ أمه[٦] ، ثم وَكَلهم بعد خروجه إلى الدنيا ؛ وَكَلَ به كراما كاتبين ، يكتُبون ويَحفظون عليه أعماله ، ثم إنه تعالى يُقدِّر في ليلة القدر ما يكون في السنة ، وكل هذا من تمام علمه وكمال حكمته وإتقان حفظه واعتنائه تعالى بخلقه. انتهى.[٧]

---

[١] الدخان: ٣- ٥ .

[٢] رواه ابن جرير الطبري وغيره عنه في تفسير الآية الكريمة ، واللفظ لابن جرير.

[٣] رواه ابن جرير الطبري وغيره عنه في تفسير الآية الكريمة ، واللفظ لابن جرير.

[٤] وصححه الشيخ د. حكمت بشير ياسين كما في كتابه «التفسير الصحيح» (٣١٣/٤) ، ط ١ ، الناشر: دار المآثر – المدينة.

[٥] أي ما كان في التقدير الأزلي.

[٦] أي ما كان في التقدير العمري.

[٧] وهكذا قال الشيخ محمد الأمين المختار الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية الكريمة في كتابه «أضواء البيان» ، وزاد ثلاث فوائد فقال:

فدعوى أنها (أي الليلة المباركة) ليلة النصف من شعبان –كما رُوي عن عكرمة وغيره – لا شك في أنها دعوى باطلة ، لمخالفتها لنص القرآن الصريح ، ولا شك أن كل ما خالف الحق فهو باطل.

والأحاديث التي يُوردها بعضهم في أنها من شعبان ، المخالفة لصريح القرآن ؛ لا أساس لها ، ولا يصح سند شيء منها ، كما جزم به ابن العربي وغير واحد من المحققين.

فالعجب كل العجب من مسلم يخالف نص القرآن الصريح بلا مستند كتاب ولا سنة صحيحة.

ثم قال: وإيضاح معنى الآية أن الله تبارك وتعالى في كل ليلة قدر من السنة يبين للملائكة ويكتب لهم بالتفصيل والإيضاح جميع ما يقع في تلك السنة إلى ليلة القدر من السنة الجديدة.

ثم قال: وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة يدل أيضا على أن الليلة المباركة هي ليلة القدر ، فهو بيان قرآني آخر.

فوائد متفرقة في موضوع الإيمان بالقدر

هذه فوائد متفرقة في موضوع الإيمان بالقدر ، نذكرها على سبيل السرد ثم نفصل الكلام في كل واحدة بما يسر الله.

الفائدة الأولى – إثبات أن للعبد مشيئة

الفائدة الثانية – إذا أراد العبد فعل الشر ، فهل يُيسِّره الله له؟

الفائدة الثالثة — الجمع بين الآيات الواردة في إرادة الله هداية الناس وبين الآيات الواردة في عدم هدايتهم

الفائدة الرابعة – بيان المراد من وصف القَدَرِ بالشَّرِ

الفائدة الخامسة – بيان بطلان احتجاج العبد بالقَدَرِ على فعل المعاصي وترك الطاعات

الفائدة السادسة – وجوب الرضا بما قضاه الله وقدره

الفائدة السابعة – بيان أحوال العباد إذا جرت عليهم المكاره من الأمور المقدرة

الفائدة الثامنة – بيان ثمرات الإيمان بالقدر

الفائدة التاسعة – بيان الفرق بين القضاء والقدر

الفائدة العاشرة – التوقي من الشرور لا يُعدُّ فرارا من قَدَرِ الله

الفائدة الحادية عشرة – الإيمان بالقضاء والقدر لا ينافي التوكل

الفائدة الثانية عشرة – بيان ضلال فرقتين في باب القدر والرد عليهم

وإيضاح ذلك أن معنى قوله ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ أي في ليلة التقدير لجميع أمور السنة ، من رزق وموت وحياة وولادة ومرض وصحة وخِصبٍ وجَدب وغير ذلك من أمور السنة ... وعلى هذا التفسير الصحيح لليلة القدر فالتقدير المذكور هو بعينه المراد بقوله ﴿فيها يُفرق كل أمر حكيم﴾. انتهى كلامه رحمه الله.

تفصيل

الفائدة الأولى – إثبات أن للعبد مشيئة

الإيمان بالقدر لا ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية وقدرة عليها ، لأن الشَّرع والواقع دالان على إثبات ذلك له.

أما الشَّرعُ ؛ فقد قال الله تعالى في المشيئة ﴿فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾[1] ، وقال ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾[2].

وقال في القدرة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾[3] ، وقال ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[4] ، وقال تعالى ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا﴾[5] ، وقال ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾[6] ، فأثبت في هذه الآيات أن للعبد مشيئةً وقدرةً ، إن شاءَ شكرَ وإن شاءَ كفرَ ، وإن شاءَ زاغَ وإن شاءَ استقامَ ، وهكذا ، ثم يحاسِبُه الله يوم القيامة على عملِه.

وأما دلالة الواقع على أن للعبد مشيئة ؛ فإن كل إنسان يعلم أن له مشيئة وقدرة ، بهما يَفعل وبهما يَترك.

لكن ينبغي التنبيه على أن مشيئة العبد وقدرته واقعتان تحت مشيئة الله تعالى وقدرته وإذنه الكوني ، مع كونها باختيار العبد وفعله ، سواء كانت تلك المشيئة لعمل خير أو لعمل شر ، لقول الله تعالى ﴿لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تشاءون إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[7] ، وقال تعالى ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾.

وبيان ذلك أن الكون كله ملك لله تعالى فلا يمكن أن يكون في ملكه شيء بدون مشيئته وإذنه ، وهذا من تمام ربوبية الله تعالى على خلقه ، ألاَّ يَحدث شيء في هذا الكون إلا بإذنه الكوني القدري ، سواء كان ذلك الأمر الحادث مما يحبه الله أو مما لا يحبه.

ومن هنا قسَّم العلماء إرادة الله تعالى إلى نوعين:

---

[1] سورة النبأ: ٣٩ .

[2] سورة البقرة: ٢٢٣ .

[3] سورة التغابن: ١٦ .

[4] سورة البقرة: ٢٨٦ .

[5] سورة الإنسان: ٣ .

[6] سورة الصف: ٥ .

[7] سورة التكوير: ٢٨-٢٩ .

النوع الأول: إرادة كونية ، وهذه تتميز بميزتين ؛ الأولى أنها واقعة لا محالةَ ، فإذا أراد الله أن يُصابَ إنسانٌ بمرضٍ ، أو بلدٌ بزِلزالٍ ؛ وقع ذلك الأمر لا محالة ، قال تعالى ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾[1] ، وقال ﴿ويفعل الله ما يشاء﴾[2] ، وقال تعالى ﴿وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾[3] ، أي: لا بد من وقوعه.

الميزة الثانية أنها قد تكون مما يحبه الله وقد لا تكون ، ومن ذلك أن الله خلق التوحيد والإيمان ، كما أنه خلق الشرك والكفر ، وهو يحب الأول ويبغض الثاني ، وشاء وجودهما معا في الكون ليبتلي عباده ، فرغَّب في الأول ورهَّب من الثاني ، فمن آمن دخل الجنة ، ومن كفر دخل النار ، قال تعالى ﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم﴾[4].

كما أنه خلق بهيمة الأنعام وأحلَّها ، وخلق الخنزير وحرَّمه ، وشاء وجودهما معا في الكون ليبتلي عباده ، فمن تمتع بما أحلَّ الله أُجِر إن شكر ، ومن تمتع بما حرم الله أُزِر على كل حال ، وصدق الله ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾[5].

والنوع الثاني من الإرادات الإرادة الشرعية ، وهي الإذن بوجود ما شَرَعهُ الله من الشرائع وأحبَّ فعله من العباد ، وهذه قد تقع من العبد وقد لا تقع ، خلافا للإرادة الكونية ، ومن أمثلتها الصلاة والصيام وبر الوالدين وغيرها من الطاعات ، فهذه إرادة شرعية ، قد يقوم بها العباد وقد لا يقومون.

فصل

قد تتفق الإرادة الشرعية والكونية في آنٍ واحد ، فإنك إن صليت الظهر مثلا مع الجماعة فإن الله قد أراد الإتيان بهذه الصلاة شرعا وأذن بحصولها كوناً.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا الاتـفاق في قوله سبحانه ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾[6] ، فقوله ﴿بإذن الله﴾ يدل على أن ذلك الاتفاق لا يقع إلا بإذنه الكوني القدري.[7]

وقد لا تتفق الإرادة الشرعية ولا الكونية وينتفي حدوثهما ، فلو أن رجلا لم يَشربِ الخمر قط ، كأبي بكر رضي الله عنه ، فعدم شربه للخمر لم يأذن الله به شرعا ولا كونا لأنه لم يقع.

---

[1] سورة البقرة: ٢٥٣ .

[2] سورة إبراهيم: ٢٧ .

[3] سورة الأحزاب: ٣٨ .

[4] سورة الزمر: ٧ .

[5] سورة يونس: ٤٤ .

[6] سورة النساء: ٦٤ .

[7] وانظر تقرير العلامة الشنقيطي رحمه الله في آخر كلامه في تفسير قوله تعالى من سورة الذاريات ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

وقد تحصل الإرادة الشرعية ولا تحصل الكونية ، كإرادة الله أن يُسلم أبا طالب ، فهذه إرادة شرعية لأن الله يحبها ، ولكن الله لم يأذن بها كونا ، وشاهدُها أنها لم تقع.

وقد تحصل الكونية ولا تحصل الشرعية ، كَكُفرِ أبي طالب ، لأنها وقعت كوناً مع أن الله يكرهها شرعا.

والخلاصة أن الإرادة الكونية تتعلق فيما وقع ، سواء أحبه الله أم كرهه ، والإرادة الشرعية تتعلق فيما أحبه الله ، سواء وقع أم لم يقع.

فإن قيل: ما الحكمة من خلق الله لتلك الأفعال المحرمة وتلك الحيوانات المحرم أكلها؟

فالجواب أن الحكمة هي ابتلاء الناس بها ، ليتميز المطيع من العاصي ، والكافر من المؤمن ، فمن آمن واستجاب أُجِر ، ومن عصى وتولى أُزِر.

ولهذا فإن الله تعالى بحكمته العظيمة لم يشأ إيمان الناس جميعا مشيئة كونية قدرية ، فصير الناس بذلك مفطورين على الإيمان بالله تعالى ، بل شاء ذلك مشيئة شرعية فحسب ، وخلق للعبد مشيئة واختيارا ، فمن آمن دخل الجنة ، ومن كفر دخل النار ، وإلى هذا أشار الحق تبارك وتعالى في قوله ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[1] ، وقال تعالى ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾[2] ، وقال تعالى ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾[3].[4]

وكذلك المصائب ، فإنها من تقدير الله الكوني ، والله تعالى قَدَّرَها على الإنسان لحكمة عظيمة ، فإن الإنسانَ إذا كان يرفُلُ بثياب الصحة والغنى ربما شَعَر بشيءٍ من الكِبر والترفُّع على الخلق أو وقع في شيءٍ من الغفلة عن ذِكر الله ، كما قال الله تعالى العليم بسائر خلقه ﴿كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى﴾[5] ، فإذا مرِض الإنسان انكسرت نفسُه وتواضع للناس وشَعَر بضعفه ، وربما رجع لربه ، واستغفر عن ذنوبه ، فالمصائب ليست مرادةً من الله لذاتها ، وإنما لأمر آخر يعود على الإنسان بالمصلحة ، سواء أحاط العقل البشري بتلك الحكمة أم لم يُحِط.

---

[1] سورة يونس: ٩٩ .

[2] سورة الأنعام: ٣٥ .

[3] وانظر تقرير الشيخ الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان» عند تفسير قوله تعالى من سورة يونس ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم كلهم جميعا﴾.

[4] سورة الليل: ٥ – ١٠ .

[5] سورة العلق: ٦ – ٧ .

الفائدة الثانية – إذا أراد العبد فعل الشر ، فهل يُيسِّره الله له؟

قال الشيخ صالح بن فوزان الفوزان[1] حفظه الله في جواب السؤال المعنون له:

قلم القضاء والقدر يجري على العباد ، والله جل وعلا قدّر لكل أحد من الشقاوة والسعادة ما يكون العبد سببا فيه ، فإن فعل الخير يسَّره الله للخير ، وإن فعل الشر يسَّره الله للشر ، قال تعالى ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدّق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى﴾[2] ، فيكون العبد سببا في شقائه[3] أو سعادته بحسب أعماله ومقاصده ، والله تعالى يُقدِّر على العبد بحسب ما يفعله العبد وما يقصده.

وهذا هو الجمع بين الأمرين ؛ أن الأعمال بقدر الله ، وأنها بفعل العبد ، فالعبد سبب ، ولذلك فإن المجنون وغير العاقل والمكره والناسي لا يؤاخذ بما صدر منه ، لأنه عن غير قصد ، وليس هذا من كسبه ولا من عمله ، إنما يؤاخذ البالغ العاقل المدرِك ، لأنه هو الذي يجني على نفسه أو يجني لها ، فإما أن يجني لها خيرا ، وإما أن يجني عليها شرا. اهـ.[4]

الفائدة الثالثة – الجمع بين الآيات الواردة في إرادة الله هداية الناس وبين الآيات الواردة في عدم هدايتهم

إن قيل: كيف الجمع بين كون الله يريد لعباده الهداية وبين قوله ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[5] وقوله ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾[6] وقوله ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾[7] ونحو ذلك من الآيات؟

---

[1] هو الشيخ الفقيه الذاب عن دين الله ، العالم في العقيدة والفقه ، المقدم في علوم الشريعة ، طالما دافع عن العقيدة الإسلامية ورد على أهل البدع ، جُمِعت ردوده فوقعت في ثلاث مجلدات ، له مؤلفات كثيرة في فنون متنوعة ، أوصى بالرجوع إليه الشيخان الجليلان عبد العزيز بن باز ومحمد بن عثيمين قبيل وفاتهما ، حفظه الله ذخرا للإسلام والمسلمين.

[2] سورة الليل: ٥ – ١٠ .

[3] أي شقاء نفسه.

[4] «المنحة الربانية في شرح الأربعين النووية» ، ص ٩٧ ، (الناشر: دار العاصمة – الرياض) ، ط ١ ، بتصرف يسير.

وانظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في هذا الباب في المواطن التالية:

١. «أضواء البيان» عند الكلام على قوله تعالى من سورة يٰس ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون﴾.

٢. «أضواء البيان» عند الكلام على قوله تعالى من سورة النحل ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾.

٣. «أضواء البيان» عند الكلام على قوله تعالى من سورة بني إسرائيل ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا﴾.

٤. «دفع الإيهام» ص ١٢ عند الكلام على قوله تعالى في أول سورة البقرة ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾.

[5] سورة الصف: ٥ .

[6] سورة التوبة: ١٠٩ .

[7] سورة التوبة: ٣٧ .

فالجواب ما ذكره الشنقيطي رحمه الله في كتابه «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» حيث قال:

الآية من العام المخصوص ، فهي في خصوص الأشقياء الذين أزاغ الله قلوبهم عن الهدى لشقاوتهم الأزلية.

وقيل: المعنى: لا يهديهم ما داموا على فسقهم ، فإن تابوا منه هداهم. انتهى كلامه رحمه الله.[1]

الفائدة الرابعة – بيان المراد من وصف القَدَرِ بالشَّرِ

قول النبي ﷺ في حديث جبريل: (وأن تؤمن بالقدر خيره وشره) فيه مسألتان:

الأولى: أن وصْفَ القَدَرِ بالخير ظاهر ، وهو ما قدَّرهُ الله من الخير للإنسان من صحة وعلم ومال ونحو ذلك.

الثانية: أن المراد بوصفِ القدرِ بالشَّرِ أي شرِّ ما قُدِّر على الإنسان من مرض أو فقر ونحوه ، لا أن القَدَرَ – الذي هو فعل الله تعالى – شرٌّ محض ، لأن أفعال الله لا تكون إلا عن خيرٍ وحكمةٍ بالغةٍ ، سواء علمها الإنسان أم لم يعلمْها ، ولهذا قال النبي ﷺ في دعائه ربه: والشرُّ ليس إليك.[2]

ثم اعلم أيضا أن هذا المفعول الذي هو شرٌ قد يكون شرًّا في نفسه لكنه خيرٌ من جهة أخرى ، قال الله تعالى عن الفساد الذي يظهر في البر والبحر من زلازل وفيضانات ونحوها ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾[3] ، فعلى هذا فالنتيجة طيبة ، وهي أن يذيقهم عقوبة معاصيهم فيرجعوا إلى الله ويتوبوا قبل أن يموتوا ، فصار الشر في هذا المقدور شرا إضافيا وليس شرا حقيقيا محضا ، لأن نتيجة ذلك المقدور صارت خيرا.

ومما يحصل أيضا من الشر من الأمور الكونية القدرية المرض ، فالإنسان إذا مرض فلا شك أن المرض شرٌّ بالنسبة له ، لَكِنَّ فِيهِ خيرًا له في الواقع ، وخيره يكمن في تكفير الذنوب ، فقد يكون عليه ذنوب لم يكفرها الاستغفار والتوبة لوجود مانع ما ، فتأتي هذه العقوبات لتكفر تلك الذنوب.

ومن خير ذلك المرض أيضا أن يعرف نعمة الله عليه بالصحة إذا مرض.

ومن خير ذلك المرض أنه يكون في هذا المرض أشياء تقتل جراثيم في البدن لا يقتلها إلا ذاك المرض ، بينما المريض لا يدري.

---

[1] انظر كلامه في الكتاب المشار إليه ، تفسير سورة الصف.

[2] رواه مسلم (٧٧١) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

[3] سورة الروم: ٤١ .

فالمقادير الكونية التي يُقدِّرها الله على عبده المؤمن فيها خير كثير له في الدنيا والآخرة ، وقد بين النبي ﷺ هذا في قوله: عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له.[1]

وعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: عجبت للمؤمن! إن الله لم يقض له قضاء إلا كان خيرا له.[2]

وكذلك الأمر بالنسبة لما يُقدِّره الله تعالى من الأحكام الشرعية ، فحدُّ الزاني مثلا لغير المحصن أن يُجلد مائة جلدة ويُغرَّب (أي يُبعد) عن بلدِه عاما ، وهذا شرٌّ بالنسبة لذاك الزاني ، لأن فيه تعـذيبا نفسِيا وحِسِّيا له ، لكنه خير من وجه آخر في كونه كفارة له وزاجر له عن العودِ مرة أخرى ، بعكس لو لم يُقم عليه الحد ولم يُـغرَّب ، فإنه ربما يستمر في معصيته ويُصِرُّ عليها حتى يلقى الله وهو على ذلك ، وعندئذ فلا مقارنة بين عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة.

ومن خير ذلك القدر الشرعي – إقامةُ حد الزنى – أن يرتدِع غيره ، فربما همَّ غيره بالزنى ، فانتشر الشر والعدوان على الأعراض والأمراض الفتاكة وأبناء اللقطة وغير ذلك ، كما هو حاصل في كثير من بلدان العالم ، بخلاف إذا عَلِم الإنسان أنه سيُقام عليـه الحدُّ فإنه سيرتدِع ، وهكذا سائر الحدود الشرعية فيها من النكاية ما فيه مصلحة المجتمع وتحقيق أمنه في الدنيا ، وكذلك السلامة في الآخرة من عقوبة الوقوع في الكبائر ، وصدق الله تعالى في قوله ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾[3].[4]

وخلاصة القول أمران ؛ **الأول** ، أن الشر في المقدور لا في تقدير الله عز وجل ، وهو معنى قول النبي ﷺ : والشر ليس إليك.

الثاني: أن الشر الذي في المقدور ليس شرا محضا ، بل قد ينتج عنه من الخير ما هو أعظم منه ، فتكون الشرِّية أمرا إضافيا وليس حقيقيا.[5]

---

[1] رواه مسلم (٢٩٩٩) عن صهيب رضي الله عنه.

[2] رواه أحمد (١١٧/٣) ، وصححه محققو «المسند».

[3] سورة البقرة: ١٧٩ .

[4] انظر للفائدة ما قاله الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله في تفسير الآية.

[5] انظر كلام ابن عثيمين في «شرح الواسطية» (٢٦/١ – ٢٧).

الفائدة الخامسة – بيان بطلان احتجاج العبد بالقَـدَرِ على فعل المعاصي وترك الطاعات

يحتج بعض الناس بالقدر على ترك الواجبات أو فِعل المعاصي ، وهذا الاحتجاج باطل من سبعة وجوه:

الأول: أن المشركين احتجوا بالقدر على وقوعهم في الشرك ، فرد الله عليهم ذلك في قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾[1] ، فلم يُقِـرَّهم الله على احتجاجهم بالقدر بقولــهم ﴿لو شاء الله ما أشركنا﴾ ، ولو كان لهم حجة بالقدر ما أذاقهم الله بأسه ، فمشيئة الله الكونية بأن يكون هناك شرك في العالم لا يلزم منه الرضى به ، فإن الرضى متلازم مع الإرادة الشرعية لا الكونية.[2]

الثاني: قول الله تعالى ﴿رُسُلاً مبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[3] ، فلو كان القدر حُجَّة للمخالفين لم تنقطع هذه الحُجَّة بإرسال الرسل ، بل استمرت باقية ، لأن المخالفة بعد إرسالهم واقعة ، ولأن القَدَرَ لا يَبْطُلُ بإرسال الرسل ، بل هو باقٍ.

الثالث: حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار.

فقالوا: يا رسول الله ، أفلا نتَّـكل؟

فقال: اعملوا فكلٌّ ميسر ، ثم قرأ ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى﴾ إلى قوله ﴿للعسرى﴾.[4]

ولفظ لمسلم: فكل مُيسر لما خلق له.

فالشاهد أن النبي ﷺ أمر بالعمل ، ونهى عن الاتكال على القدر.

الرابع: أن الله تعالى أمر العبد ونهاه ، ولم يكلفه إلا ما يستطيع ، قال الله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[5] ، وقال ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[6] ، ولو كان العبد مجبرًا على الفعل لكان مكلفًا بما لا يستطيع الخلاص منه ، وهذا باطل ، ولذلك إذا وقعت منه المعصية بجهل أو نسيان أو إكراه فلا إثم عليه لأنه معذور.

---

[1] سورة الأنعام: ١٤٨ .

[2] وانظر تقرير الشيخ الشنقيطي رحمه الله في «دفع الإيهام» عند الكلام على قوله تعالى من سورة الأنعام ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾.

[3] سورة النساء: ١٦٥ .

[4] رواه البخاري (٤٩٤٥) ومسلم (٢٦٤٧).

[5] سورة التغابن: ١٦ .

[6] سورة البقرة: ٢٨٦ .

الخامس: أنَّ قدرَ الله تعالى سِرٌّ مكتومٌ ، لا يُعلم به إلا بعد وقوع المقدور ، وإرادة العبد لما يفعله سابقة على فعله ، فتكون إرادته الفعل غير مبنية على علم منه بقَدَرِ الله ، وحينئذ تنتفي حجته بالقدر ، إذ لا حجة للمرء فيما لا يعلمه.

السادس: أننا نرى الإنسان يحرص على ما يلائمه من أمور دنياه حتى يدركها ، ولا يعدِل عنها إلى ما لا يلائمه ويحتج على عدوله بالقدر ، فلماذا يعدِل عما ينفعه في أمور دينه إلى ما يضره ثم يحتج بالقدر ، أليس شأن الأمرين واحدا؟

وإليك مثالا يوضح ذلك: لو كان بين يدي الإنسان طريقان ، أحدهما ينتهي به إلى بلد كلها فوضى وقتل ونهب وانتهاك للأعراض وخوف وجوع ، والثاني ينتهي به إلى بلد كله نظام وأمن مستتب وعيش رغيد واحترام للنفوس والأعراض والأموال ، فأي الطريقين سيسلك؟

إنه سيسلك الطريق الثاني الذي ينتهي به إلى بلد النظام والأمن ، ولا يمكن لأي عاقل أبدًا أن يسلك طريق بلد الفوضى والخوف ، ويحتج بالقدر ، فلماذا يسلك في أمر الآخرة طريق النار دون الجنة ويحتج بالقدر؟

مثال آخر: نرى المريض يؤمر بالدواء فيشربه ونفسه لا تشتهيه ، ويُنهى عن الطعام الذي يضره فيتركه ونفسه تشتهيه ، كل ذلك طلبًا للشفاء والسلامة ، ولا يمكن أن يمتنع عن شُربِ الدواء أو يأكل الطعام الذي يضره ويحتج بالقدر ، فلماذا يترك الإنسان ما أمر الله ورسوله ، أو يفعل ما نهى الله ورسوله ، ثم يحتج بالقدر؟

السابع: أن المحتج بالقدر على ما تركه من الواجبات أو فعله من المعاصي لو اعتدى عليه شخصٌ فأخذ ماله أو انتهك حرمته ثم احتــج بالقدر وقال: (لا تلمني ، فإن اعتدائي عليك وعلى ملكك كان بِقَدَرِ الله) ؛ لم يَقبل منه حجته ، فكيف لا يَقبلُ الاحتجاج بالقدر في اعتداء غيره عليه ، ويحتج بالقدر لنفسه في اعتدائه على حق الله تعالى؟

ويُذكر أنَّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه رُفع إليه سارق استحق القطع فأمر بقطع يده فقال: مهلا يا أمير المؤمنين ، فإنما سُرِقتُ بقدر الله.

فقال: ونحن إنما نقطع بقدر الله.

الفائدة السادسة – وجوب الرضا بما قضاه الله وقدره

القضاء نوعان ؛ شرعي وكوني ، فأما الشرعي فإنه قضاء الله بتحريم ما حرم ، وإيجاب ما أوجب ، وإباحة ما أباح ، فالأول كعقوق الوالدين ، والثاني كالصلاة ، والثالث كأكل الطيبات.

وأما القضاء الكوني فنوعان ؛ نوع محبوب للنفوس وملائم للفطر كالمال والولد والصحة ، فإذا قضى الله هذا للعبد فإنه ينبغي له أن يعترف بأنه من عند الله ، ويشكره عليه ، ويقوم بما أوجبه الله عليه تجاهه من زكاة واستعمال في طاعة ونحو ذلك.

والنوع الثاني من القضاء الكوني هو ما كان غير ملائم للإنسان ويُنغص عليه عيشه ، من مرض وفقد مال ووفاة ولد ونحو ذلك ، وأحوال الناس هنا لا تخرج عن أربعة:

الأول السُّخط ، الثاني الصبر ، الثالث الرضا ، والرابع الشكر.

فأما **السُّخط** فمحرمٌ ، والسّاخط يجد في نفسه سخط على تدبير الله عز وجل ، ولا يخلو من ضرب وجه أو شق جيب أو رفع صوت بنحيب وبكاء ، وأكثر ما يحصل هذا عند فَقدِ عزيزٍ كولد ونحوه ، وفي حق هذا قال النبي ﷺ : ليس منا من لَطَمَ الخدود[1] وشقَّ الجيوب[2] ودعا بدعوى الجاهلية.[3]

والساخط لا يخلو من التحسر واستعمال «لو» ، وفي الحديث: احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز[4] ، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكـن قل: (قَدَرُ الله ، وما شاء فعل) ، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان.[5]

والساخط لا يثاب على مصيبته ، وسخطه لا يزيده إلا همّاً في الدنيا ، ووِزْراً في الآخرة ، والقدرُ جارٍ عليه لا محالة ، سواء رضي أم سخط ، نسأل الله العافية.

وأما **الصَّبر** فمحمودٌ ، والصّابر لا يتسخَّطُ بلسانه ولا يضرب بجوارحه ، بل قابض على قلبه ، شديد الحزن ، متجلد ، محتسب للأجر ، يلهج لسانه بقول (الحمد لله على كل حال)[6] ، (إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجُرْني في مصيبتي ، واخلُف[7] لي خيرا منها)[8].

---

[1] اللطم هو الضرب بالكف.

[2] قال في «عمدة القاري»: الجيوب بضم الجيم جمع جيب ، وهو ما يفتح من الثوب ليدخل فيه الرأس ، وهو الطوق في لغة العامة.

(ودعا بدعوى الجاهلية) ؛ وهي زمان الفترة قبل الإسلام ، والمراد أنه قال في البكاء مما يقوله أهل الجاهلية مما لا يجوز في الشريعة ، كقولهم: واجبلاه ، واعضداه ، ونحو ذلك. انتهى.

[3] رواه البخاري (١٢٩٧) ومسلم (١٠٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، واللفظ للبخاري.

[4] أي لا تكسل.

[5] رواه مسلم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[6] رواه ابن ماجه (٣٨٠٣) ، وحسنه الألباني رحمه الله.

[7] اخلف لي أي أبدلني. انظر «النهاية».

[8] رواه مسلم (٩١٨).

وأما **الرِّضا** فمرتبةٌ أعلى من الصّبرِ ، وفيها يكون الإنسان راضٍ رضا قلبيا بما كتب الله عليه ، حزنه قليل ، موقن بأن قَدَرَ الله نافذ لا محالة.

وأما **الشُّكرُ** فأعلى المراتب ، وفيها يكون المصاب قد خالطه شيء من الفرح بما أصابه لما يرجوه من المثوبة ، فيشكر الله على مصابه كلما تذكر ذلك ، كما أنه يشكر الله على أن المصيبة لم تكن في دينه ، ولم تكن أشد مما هي عليه ، ويقارن تلك المصيبة بسائر النعم عليه.

الفائدة السابعة – بيان ما ينبغي للعبد أن يستحضره إذا جرى عليه مكروه

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه «الفوائد»[1]:

إذا جرى على العبد مقدور يكرهه ؛ فله فيه ستة مشاهد:

أحدها مشهد التوحيد ، وأن الله هو الذي قدره وشاءه وخلقه ، وما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن.

الثاني مشهد العدل ، وأنه ماضٍ فيه حُكمُه ، عدلٌ فيه قضاؤه.

الثالث مشهد الرحمة ، وأن رحمته في هذا المقدور غالبة لغضبه وانتقامه ، ورحمته حشوه[2].

الرابع مشهد الحكمة ، وأن حكمته سبحانه اقتضت ذلك ، لم يُقَدِّره سُدى ولا قضاه عبثا.

الخامس مشهد الحمد ، وأن له سبحانه الحمد التام على ذلك من جميع وجوهه.

السادس مشهد العبودية ، وأنه عبد محض من كل وجه ، تجري عليه أحكام سيده وأقضيته بحكم كونِه ملكه وعبده ، فيصرِّفه تحت أحكامه القدرية كما يصرِّفه تحت أحكامه الدينية ، فهو محل لجريان هذه الأحكام عليه. انتهى.

الفائدة الثامنة – بيان الفرق بين القضاء والقدر

القضاء والقدر متباينان إن اجتمعا ، ومترادفان إن افترقا ، أي أنهما إذا ذكرا جميعا فلكل واحد معنى ، وإن ذكر أحدهما مفردا فإنه يعني الآخر ويتضمنه.

أما القدَرُ هو التقدير الذي كتبه الله عنده في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

وأما القضاء فهو القضاء والحكم الذي قضاه الله في خلقه إذا حدث في الدنيا ، من إيجاد أو إعدام أو تغيير.

---

[1] ص ٦١ ، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض.

[2] أي أن رحمته موجودة في داخل ذلك المقدور ، غير ظاهرة ، كأنها في أحشائه.

فعلى هذا فالتقدير – أو القَدرُ – أوَّليٌّ ، ويكون في الأزل ، والقضاء يتبعُه ، ويكون في الدنيا.

الفائدة التاسعة – التوقِّي من الشرور لا يُعدُّ فرارا من قَدَرِ الله

إذا استقبل العبد أمرا فيه ضررٌ ظاهرٌ عليه فعَلِم به ثم انصرف عنه فلا يُعدُّ هذا فرارًا من قدرِ الله ، بل هو من باب فعل الأسباب للوقاية من الشرور ، وهو مطلوبٌ شرعا بل قد يكون واجبٌ عليه ، فقد روى عبد الرزاق في «مصنفه»[1] عن عبد الله بن العباس قال: خرج عمر بن الخطاب يريد الشام ، حتى إذا كان في بعض الطريق لقِيَهُ أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام ، قال: فاستشار الناس ، فأشار عليه المهاجرون والأنصار أن يمضي ، وقالوا: قد خرجنا لأمر ولا نرى أن نرجع عنه ، وقال الذين أسلموا يوم الفتح: معاذ الله أن نرى هذا الرأي ، أن نختار دار البلاء على دار العافية.

وكان عبد الرحمٰن بن عوف غائبا ، فجاء فقال: إن عندي من هذا علما ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا سمعتم به في أرض فلا تَقدُموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه.

قال: فنادى عمر في الناس فقال: إني مُصَبِّحٌ على ظهرٍ[2] فأصبحوا عليه ، فقال له أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين: أفِراراً من قدر الله؟

فقال عمر: لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة ، نعم ، نَفِرُّ من قَدرِ الله إلى قَدرِ الله ، أرأيت لو كانت لك إبلٌ ، فهبطْتَ واديا له عُدْوتان[3] ، إحداهما خَصبة والأخرى جَدْبة ، أليس إن رعيتَ الخَصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجَدْبة رعيتها بقدر الله؟

قال: نعم.

قال: وقال له: أرأيت لو رعى الجَدبة وترك الخِصبة ، أكانت مَعْجَزةً[4]؟

قال: نعم.

قال: فَسِرْ إذاً.

قال: فسار حتى أتى المدينة فقال: هذا المحل وهذا المنزل إن شاء الله.

قال الزهري: فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب رجع بالناس يومئذ من سَرْغ[5].

---

[1] برقم (٢٠١٥٩) ، باب الوباء والطاعون.

[2] أي على ظهر دابة ، يريد أنه سيرجع إلى بلده.

[3] قال ابن الأثير: العِدوة – بالضم والكسر – جانب الوادي. انظر «النهاية».

[4] من العجز ، أي لو رعى الجدبة وترك الخصبة لنَسَبَه الناس إلى العجز والكسل ، كيف يترك الرعي في الأرض الخصبة ويرعى في الأرض الجدباء ، فكذلك إن ذهبوا للشام لعُدَّ هذا عجزا أنهم لم يرجعوا إلى المدينة.

[5] هي أول الحجاز وآخر الشام ، بينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة ، وقيل سَرْع. انظر «معجم البلدان» ، مادة سرْع.

الفائدة العاشرة – الإيمان بالقضاء والقدر لا ينافي التوكل

قال الشنقيطي رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[1]:

أَخَذَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآية الْكَرِيمَةِ أَنَّ السَّعْيَ وَالتَّسَبُّبَ فِي تَحْصِيلِ الرِّزْقِ أَمْرٌ مَأْمُورٌ بِهِ شَرْعًا ، وَأَنَّهُ لا يُنَافِي التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ جَلَّ وعلا ، وَهَذَا أَمْرٌ كَالْمَعْلُومِ مِنَ الدِّينِ بِالضَّـــرُورَةِ ؛ أَنَّ الأخذ بالأسباب فِي تَحْصِيلِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ فِي الدُّنْيَا أَمْرٌ مَأْمُورٌ بِهِ شَرْعًا لا يُنَافِي التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ بِحَالٍ ، لِأَنَّ الْمُكَلَّفَ يَتَعَاطَى السَّبَبَ امْتِثَالًا لأمر رَبِّهِ مَعَ عِلْمِهِ وَيَقِينِهِ أَنَّهُ لا يَقَعُ إلا مَا يَشَاءُ اللَّهُ وُقُوعَهُ ، فَهُوَ مُتَوَكِّلٌ عَلَى اللَّهِ ، عَالِمٌ أَنَّهُ لا يُصِيبُهُ إلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَخَلُّفَ تَأْثِيرِ الْأَسْبَابِ عَنْ مُسَبَّبَاتِهَا لَتَخَلَّفَ.

وَمِمَّا يُوَضِّحُ أَنَّ تَعَاطِيَ الأسباب لا يُنَافِي التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ يَعْقُوبَ ﴿وَقَالَ يَابَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾[2] ، أَمَرَهُمْ فِي هَذَا الكلام بِتَعَاطِي السَّبَبِ ، وَتَسَبَّبَ فِي ذَلِكَ بالأمر بِهِ ، لأنه يَخَافُ عَلَيْهِمْ أَنْ تُصِيبَهُمُ النَّاسُ بِالْعَيْنِ لأنهم أَحَدَ عَشَرَ رجلا أَبْنَاءُ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَهُمْ أَهْلُ جَمَالٍ وَكَمَالٍ وَبَسْطَةٍ فِي الأجسام ، فَدُخُولُهُمْ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ مَظِنَّةٌ لأن تُصِيبَهُمُ الْعَيْنُ ، فَأَمَرَهُمْ بِالتَّفَرُّقِ وَالدُّخُولِ مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ تَعَاطِيًا لِلسَّبَبِ فِي السلامة مِنْ إِصَابَةِ الْعَيْنِ كَمَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ ، وَمَعَ هَذَا التَّسَبُّبِ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿وَقَالَ يَابَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إلا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ، فَانْظُرْ كَيْفَ جَمَعَ بَيْنَ التَّسَبُّبِ فِي قَوْلِهِ ﴿لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ ، وَبَيْنَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ فِي قَوْلِهِ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ لا يَخْفَى إلا عَلَى مَنْ طَمَسَ اللَّهُ بَصِيرَتَهُ.

وَاللَّهُ جَلَّ وعلا قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُسْقِطَ لَهَا الرُّطَبَ مِنْ غَيْرِ هَزِّ الْجِذْعِ ، وَلَكِنَّهُ أَمَرَهَا بِالتَّسَبُّبِ فِي إِسْقَاطِهِ بِهَزِّ الْجِذْعِ ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِمَرْيَمَ ... وَهُزِّي إِلَيْكَ الْجِذْعَ يَسَّاقَط الرُّطَبُ

وَلَوْ شَاءَ أَنْ تَجْنِيَهُ مِنْ غَيْرِ هَزِّهِ ... جَنَتْهُ وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبُ

انتهى كلامه رحمه الله.[3]

---

[1] سورة مريم: ٢٥ .

[2] سورة يوسف: ٦٧ .

[3] انظر تفسير الآية المذكورة في «أضواء البيان» ، باختصار يسير.

الفائدة الحادية عشرة – بيان ضلال فرقتين في باب القدر والرد عليهم[1]

(وقد ضل في القدر طائفتان ، **إحداهما** الجبرية ، الذين قالوا إن العبد مجبر على عمله وليس له فيه إرادة ولا قدرة.

الثانية: القدرية الذين قالوا إن العبد مستقل بعمله في الإرادة والقدرة ، وليس لمشيئة الله تعالى وقدرتِهِ فيهِ أثر.

والرد على الطائفة الأولى (**الجبرية**) ممكن بأدلة الشرع والواقع ، فأما الشرع ؛ فإن الله تعالى أثبت للعبد إرادة ومشيئة ، وأضاف العمل إليه ، قال الله تعالى ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم من يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾[2] ، وقال ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾[3] الآية ، وقال ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيد﴾[4].

وأما الواقع ؛ فإن كل إنسان يعلم الفرق بين أفعاله الاختيارية التي يفعلها بإرادته ، كالأكل والشرب والبيع والشراء ، وبين ما يقع عليه بغير إرادته ، كالارتعاش والسقوط من السطح ، فهو في الأول فاعل مختار بإرادته من غير جَبرٍ ، وفي الثاني غير مختار ولا مريد لما وقع عليه).[5]

قلت: ولولا هذا التفريق بين الأفعال الاختيارية وغير الاختيارية لكانت عقوبة العاصي من الظلم للعبد ، إذ كيف يُعاقَبُ الإنسانُ على شيءٍ مجبرٍ عليه ليس له فيه اختيار ، ولكان ثواب المطيع عبثا ، إذ كيف يثاب على شيء فعله بغير اختيار منه ، والعبث ينزه الله تعالى عنه ، قال تعالى ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا﴾[6].

إذن فالعبارة التي يتناقلها العامة (الإنسان مسَيرٌ وليس مخيَّرٌ) ليست صحيحة مطلقا ، بل هو مخير في أمور ومسير في أمور.

قال ابن عثيمين رحمه الله: هذه العبارة لم أرها في كتب المتقدمين من السلف ، من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، ولا في كلام الأئمة ، ولا في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أو ابن القيم أو غيرهم ، لكن حدثت هذه أخيرا وبدؤوا يُطنطِنونَ بها ، ونحن نعلم أننا نفعل الأشياء باختيارنا وإرادتنا ، ولا نشعر أبدا أن

---

[1] ما هو محدد بين معكوفتين منقول من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ١١٦ – ١١٧ .

[2] سورة آل عمران: ١٥٢ .

[3] سورة الكهف: ٢٩ .

[4] سورة فصلت: ٤٦ .

[5] وانظر أيضا ما قاله الشنقيطي رحمه الله في كتابه «دفع الإيهام» في هذا الباب في تفسير قوله تعالى ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ من سورة الشمس.

[6] سورة المؤمنون: ١١٥ .

أحدا يُكرهنا عليها ، ويسُوقُنا عليها سَوقاً ، بل نحن الذين نريد أن نفعل فنفعل ، ونريد أن نترك فنترك. انتهى باختصار يسير.[1]

(والرد على الطائفة الثانية (القدرية)[2] ممكن بأدلة الشرع والعقل ، أما الشرع ؛ فقد بيَّنَ اللهُ تعالى في كتابه أن أفعال العباد تقع بمشيئته ، فقال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم من بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَـفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[3] ، وقال تعالى ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[4].

وأما العقل ؛ فإن الكون كله مملوك لله تعالى ، والإنسان من هذا الكون ، فهو مملوك لله تعالى ، ولا يمكن للمملوك أن يتصرف في ملك المالك إلا بإذنه ومشيئته).

الفائدة الثانية عشرة – بيان ثمرات الإيمان بالقدر[5]:

الإيمان بالقدر له ثمرات جليلة ، منها:

الأولى: الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب ، بحيث لا يعتمد على السبب نفسه ، لأن كل شيء بقدر الله تعالى.

الثانية: إضافة النعم إلى مُسدِيها ، فلا يعجب المرء بنفسه عند حصول مراده ، لأن حصوله نعمة من الله تعالى بما قدَّرَه من أسباب الخير والنجاح ، وإعجابه بنفسه ينسيه شكر هذه النعمة.

الثالثة: الطُّمأنينة والراحة النفسية بما يجرى عليه من أقدار الله تعالى ، فلا يقلق بفوات محبوب أو حصول مكروه ، لكون ذلك من عند الله ، وحصل بقدر الله الذي له ملك السماوات والأرض ، وهو كائن لا محالة ، فإذا علم المؤمن ذلك وتيقن به ؛ صبر على ذلك واحتسب ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ من قَبْلِ أَن نبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[6].

---

[1] «فتاوى الحرم المكي» (٧٢/١).

[2] من هنا رجوع لكلام الشيخ رحمه الله في الرد على الطائفتين القدرية والجبرية ، ص ١١٧ من الكتاب المذكور.

[3] سورة البقرة: ٢٥٣ .

[4] سورة السجدة: ١٣ .

[5] الثمرات الثلاث الأولى مستفادة من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ١١٥ – ١١٦ .

[6] سورة الحديد: ٢٢-٢٣ .

قوله ﴿نَبرأَها﴾ أي نخلِقها ، والضمير عائد على المصيبة ، وقيل على الأنفس ، وقيل على الأرض ، والكل صحيح.[1]

وعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له.[2]

الرابعة: رجوع العبد إلى ربه إذا علم أن ما أصابه من حسنة فمن الله ، وأن ما أصابه من سيئة فمن نفسه.

الخامسة: معرفة حكمة الله عز وجل بالنظر إلى ما قدر وقضى من المجريات والحوادث.

[1] قاله ابن عثيمين في «شرح الواسطية» (٢/٢٠٢).

[2] رواه مسلم (٢٩٩٩).

خاتمة ووصية

وبهذا تم كتاب «رِي الظمآن من أركان الإيمان» ، أسأل الله تعالى أن يجعله شرابا هنيئا لمن أراد أن يروي ظمَأه من أصول الدين الإسلامي ، التي من تمسك بها نجا ، ومن حاد عنها هلك ، وهي أصول متفق عليها بين المسلمين ، ولها في دين الإسلام شأن عظيم ، وقد اعتنى بها القرآن أشد العناية ، لأن غيرها متفرع عنها ، ومبني عليها ، فإذا صلحت صلح دين المرء ، وإذا فسدت فسد تبَعًا ، ولهذا كان النبي ﷺ يؤكِّد عليها في خطب الجمعة ، قال ابن القيم رحمه الله:

وكذلك كانت خطبته ﷺ ؛ إنما هي تقرير لأصول الإيمان ، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وذكر الجنة والنار ، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته ، وما أعد لأعدائه وأهل معصيته ، فيملأ القلوب من خطبته إيمانًا وتوحيدًا ومعرفةً بالله وأيامه.

ومن تأمل خطب النبي ﷺ وخطب أصحابه ؛ وجدها كفيلةً ببيان الهدى والتوحيد وذكر صفات الرب جل جلاله ، وأصول الإيمان الكلية ، والدعوة إلى الله ، وذكر آلائه تعالى التي تُحببه إلى خلقه ، وأيامه التي تُخوفهم من بأسه ، والأمر بذكره وشكره الذي يحببهم إليه ، فيذكرون[1] من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحببه[2] إلى خلقه ، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحببهم إليه ، فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم.[3]

قلت: فحريٌّ بمن ولاّهُ اللهُ منبرا من منابر الدعوة إلى الله أن يعتني بذكر أركان الإيمان ، ويؤكد عليها ، تأسيا بالنبي ﷺ في منهجه في الدعوة إلى الله.

فائدة لطيفة قبل الختام

سُئل فضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله عن الحكمة في ترتيب أركان الإيمان في الآيات والأحاديث فأجاب:

بُدِئت هذه الأركان بالإيمان بالله ، لأن الإيمان بالله هو الأساس ، وما سواه من الأركان تابع له.

ثم ذكر الإيمان بالملائكة والرسل ؛ لأنهم الواسطة بين الله وخلقه في تبليغ رسالاته ، فالملائكة تنزل بالوحي

---

[1] أي النبي ﷺ وأصحابه في خطبهم ، وهم المشار إليهم في أول الكلام.

[2] أي الله تعالى.

[3] «زاد المعاد في هدي خير العباد» (١/٤٢٣-٤٢٤) ، باختصار ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت.

على الرسل ، والرسل يبلغون ذلك للناس ، قال تعالى ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾[1].

ثم ذكر الإيمان بالكتب ، لأنها الحجة والمرجع الذي جاءت به الرسل من الملائكة والنبيين من عند الله للحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، قال تعالى ﴿فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[2].

ثم ذكر الإيمان باليوم الآخر ، لأنه ميعاد الجزاء على الأعمال التي هي نتيجة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله أو التكذيب بذلك ، فكان مقتضى العدالة الإلٰهية إقامة هذا اليوم للفصل بين الظالم والمظلوم ، وإقامة العدل بين الناس.

ثم ذكر الإيمان بالقضاء والقدر لأهميته في دفع المؤمن إلى العمل الصالح ، واتخاذ الأسباب النافعة ، مع الاعتماد على الله سبحانه ، ولبيان أنه لا تناقض بين شرع الله الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه وبين قضائه وقدره ، خلافا لمن زعم ذلك من المبتدعة والمشركين الذين قالوا ﴿لو شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ، سوَّغوا ما هم عليه من الكفر بأن الله قدّره عليهم ، وإذا قدّره عليهم فقد رضيه منـــهم – بزعمهم – ، فرد الله عليهم بأنه لو رضيه منهم ما بعث رسله بإنكاره ، فقال ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[3].

انتهى كلامه حفظه الله.[4]

اللهم إنا نسألك إيمانا صحيحا ، ودينا سليما ، ومردًّا غير مخزٍ ولا فاضح ، والله أعلم ، وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وسلَّم تسليما كثيرا.

وكتبه ماجد بن سليمان الرسي

---

١ سورة النحل: ٢ .

٢ سورة البقرة: ٢١٣ .

٣ سورة النحل: ٣٥ .

٤ منقولة من شبكة المعلومات ، موقع شبكة سحاب السلفية.

هذا ثبت مختصر يحوي مراجع علمية لمن أراد التوسع في الاطلاع على عقيدة "الإيمان" وأركانه وقوادحه ونواقضه

كتب الإيمان المسندة

١. كتاب الإيمان ، عبد الله بن أبي شيبة ، تحقيق: محمد بن ناصر الدين الألباني ، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت
٢. كتاب الإيمان ومعالمه وسننه واستكماله ودرجاته ، أبو عبيد ، القاسم بن سلام الهروي ، تحقيق: محمد بن ناصر الدين الألباني ، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت
٣. كتاب الإيمان ، ابن منده ، محمد بن إسحاق الأصبهاني ، تحقيق: د. علي بن محمد الفقيهي ، الناشر: دار الفضيلة – الرياض
٤. الجامع لشعب الإيمان ، أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق: د. عبد العلي عبد الحميد حامد ، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض
٥. مختصر شعب الإيمان للبيهقي ، أبو القاسم عمر بن عبد الرحمٰن القزويني ، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ، الناشر: مكتبة دار البيان – دمشق
٦. صحيح شعب الإيمان للبيهقي ، خالد بن عبد الرحمٰن العك ، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت
٧. أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان ، جمع: عبد العزيز بن عبد الله المبدل ، دار التوحيد للنشر – الرياض

تأصيلات في عقيدة الإيمان

٨. الإيمان (ويقع في مجموع الفتاوى (٧/٥ – ٤٦٠)) ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق: محمد بن ناصر الدين الألباني ، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت
٩. كتاب الإيمان ، ابن الفراء ، القاضي أبو يعلى ، محمد بن الحسين البغدادي ، تحقيق: د. سعود بن عبد العزيز الخلف ، الناشر: دار العاصمة – الرياض
١٠. شرح حديث جبريل ، المعروف بالإيمان الأوسط (ويقع في مجموع الفتاوى ٤٦١/٧ – ٦٤٠) ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق: د. علي بن بخيت الزهراني ، الناشر: دار ابن الجوزي – الدمام
١١. شرح حديث جبريل عليه السلام ، صالح بن فوزان الفوزان ، الناشر: دار العاصمة – الرياض
١٢. شرح أصول الإيمان (للشيخ محمد بن عبد الوهاب) ، صالح بن فوزان الفوزان

١٣. التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ، عبد الرحمٰن بن ناصر بن سعدي ، دار أضواء السلف – الرياض
١٤. شعب الإيمان ، ابن كثير ، إسماعيل بن عمر ، تحقيق: أحمد فريد ، الناشر: دار الحقيقة – مصر
١٥. آراء الصوفية في أركان الإيمان ، سعد بن ناصر الشثري ، الناشر: دار أشبيليا – الرياض
١٦. مسألة الإيمان – دراسة تأصيلية ، علي بن عبد العزيز الشبل ، الناشر: دار المسلم – الرياض

قوادح في الإيمان – الرد على المرجئة

١٧. أقوال ذوي العرفان في أن أعمال الجوارح داخلة في مسمى الإيمان ، عصام بن عبد الله السناني ، مراجعة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان
١٨. اتحاف النبلاء برد شبهات من وقع في الإرجاء ، علي بن عبد العزيز الموسى ، تقديم الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد ، الناشر: دار الكيان – الرياض
١٩. حقيقة الإيمان وبدع الإرجاء في القديم والحديث ، سعد بن ناصر الشثري ، الناشر: دار أشبيليا – الرياض
٢٠. تحفة المحب بأن جنس الأعمال من لوازم إيمان القلب – مبحث في بيان منزلة العمل الظاهر من الإيمان ، جمال بن إبراهيم أبو سريع ، دار التوحيد للنشر – الرياض

نواقض الإيمان الإعتقادية وضوابط التكفير عند السلف

٢١. نواقض الإيمان الإعتقادية وضوابط التكفير عند السلف ، محمد بن عبد الله الوهيبي ، الناشر: دار المسلم – الرياض
٢٢. التبيان في تأصيل مسائل الكفر والإيمان (استقراء لكتب الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي) ، فتحي بن عبد الله الموصلي ، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض

قسم الأسماء والصفات

كتب مسندة عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين

٢٣. كتاب الأسماء والصفات ، أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق: عبد الله الحاشدي ، الناشر: مكتبة السوادي – الرياض

٢٤. كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل ، محمد بن إسحاق بن خزيمة ، تحقيق: أحمد بن علي المثنى القفيلي ، الناشر: مكتبة عباد الرحمٰن – مصر

٢٥. كتاب النزول ويليه كتاب الصفات ، علي بن عمر الدارقطني ، تحقيق: د. علي بن محمد الفقيهي ، الناشر:

٢٦. كتاب النعوت ، أحمد بن شعيب النسائي ، تحقيق: د. عبد العزيز الشهوان ، الناشر: مكتبة العبيكان – الرياض

٢٧. كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد ، محمد بن إسحاق بن منده الأصبهاني ، تحقيق: د. علي بن محمد الفقيهي ، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية – المدينة

٢٨. كتاب الأربعين في دلائل التوحيد ، عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي ، تحقيق: د. علي بن ناصر الفقيهي ، الناشر: مكتبة العلوم والحكم – المدينة

٢٩. إفراد أحاديث أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته غير صفات الأفعال في الكتب الستة ، حصة بنت عبد العزيز الصغير ، الناشر: دار القاسم – الرياض

تأصيلات في عقيدة الأسماء والصفات

٣٠. الفتوى الحموية الكبرى (مقابلة على تسع نسخ) (وتقع في مجموع الفتاوى ٥/٥-١٢٠) ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق: د. حمد بن عبد المحسن التويجري ، دار الصميعي – الرياض

٣١. الدرة العثيمينية بشرح فتح رب البرية بتلخيص الحموية ، إعداد: غزاي الأسلمي وفهد الغامدي ، الناشر: مكتبة الإمام الذهبي – الكويت

٣٢. التعليقات التوضيحية على مقدمة الفتوى الحموية ، صالح بن فوزان الفوزان ، الناشر: دار العاصمة – الرياض

٣٣. القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ، محمد بن صالح بن عثيمين ، دار أضواء السلف – الرياض

٣٤. التعليق على القواعد المثلى ، عبد الرحمٰن بن ناصر البراك ، دار التدمرية – الرياض
٣٥. معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى ، محمد بن خليفة التميمي ، دار إيلاف الدولية – الرياض
٣٦. جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير توحيد الأسماء والصفات ، وليد بن محمد العلي ، الناشر: دار البشائر الإسلامية – بيروت
٣٧. نواقض توحيد الأسماء والصفات ، ناصر بن عبد الله القفاري ، الناشر: دار طيبة – الرياض
٣٨. الاحتجاج بالآثار السلفية على إثبات الصفات الإلٰهية ، والرد على المفوضة والمشبهة والجهمية ، عادل بن عبد الله آل حمدان ، الناشر: دار الأمر الأول – الرياض

شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العليا

٣٩. أسماء الله الحسنى (مجموع كلام ابن القيم في أسماء الله الحسنى) ، ابن القيم ، محمد بن أبي بكر ، جمع: يوسف علي بديوي ، توزيع دار الدليقان – الرياض
٤٠. فقه الأسماء الحسنى ، عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر ، الناشر: دار التوحيد للنشر – الرياض

قسم الإيمان بالرسل والكتب – النبوات

٤١. الإيمان بالكتب ، محمد بن إبراهيم الحمد ، الناشر: دار ابن خزيمة – الرياض
٤٢. الحكمة من إرسال الرسل ، عبد الرزاق بن عفيفي ، الناشر: دار الصميعي – الرياض
٤٣. النبوات ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق: د. عبد العزيز بن صالح الطويان ، الناشر: دار العاصمة – الرياض

بحوث في الإيمان باليوم الآخر

٤٤. من بلاغة القرآن الكريم في مجادلة منكري البعث ، بدرية بنت محمد العثمان ، الناشر: دار الراية – الرياض
٤٥. الحياة الآخرة ما بين البعث الى دخول الجنة أو النار ، غالب بن علي العواجي ، الناشر: دار لينة – مصر
٤٦. البحور الزاخرة في علوم الآخرة ، محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي ، تحقيق: عبد العزيز بن أحمد المشيقح ، الناشر: دار العاصمة – الرياض
٤٧. الجنائز وأحوال الموتى وأحوال الآخرة ، طارق بن عوض الله ، الناشر: دار ابن عفان – الخبر

الشفاعة

٤٨. كتاب الشفاعة (منتقى من البداية والنهاية) ، ابن كثير ، إسماعيل بن عمر ، انتقاء: علي بن محمد الرشيدي ، الناشر: دار البصيرة – الإسكندرية
٤٩. الشفاعة عند أهل السنة والرد على المخالفين فيها ، د. ناصر الجديع ، الناشر: دار أطلس الخضراء – الرياض

جزء الإيمان بالقدر خيره وشره

٥٠. شرح التائية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، عبد الله بن عبد الرحمٰن بن جبرين ، الناشر: دار كنوز أشبيليا – الرياض
٥١. القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ، ومذاهب الناس فيه ، د. عبد الرحمٰن بن صالح المحمود ، الناشر: مدار الوطن – الرياض
٥٢. الإيمان بالقضاء والقدر ، محمد بن إبراهيم الحمد ، تقديم سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، الناشر: مدار الوطن – الرياض
٥٣. فتاوى تتعلق بالقضاء والقدر ، جماعة من العلماء ، جمع دخيل الله بن بخيت المطرفي
٥٤. المختصر في عقيدة أهل السنة في القدر ، إبراهيم بن عامر الرحيلي ، الناشر: دار الإمام أحمد – مصر

ثبت لأهم المراجع

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، الناشر: دار عالم الفوائد – مكة
- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار ، عبد الله بن أبي شيبة ، تحقيق محمد بن عبد السلام ابن شاهين ، الناشر: مكتبة دار الباز – مكة
- شعب الإيمان ، أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، ط ١ ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت
- السنة ، أبي بكر أحمد بن محمد الخلال ، تحقيق د. عطية بن عتيق الزهراني ، الناشر: دار الراية – الرياض
- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة ، ابن بطة العكبري ، الناشر: دار الراية – الرياض
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، أبي القاسم هبة الله اللالكائي ، تحقيق د. أحمد بن سعد الغامدي ، الناشر: دار طيبة – الرياض
- الشريعة ، محمد بن الحسين الآجري ، تحقيق الوليد بن محمد النصر ، توزيع المكتبة المكية – مكة
- الشريعة ، محمد بن الحسين الآجري ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت
- كتاب السنة والرد على الجهمية ، عبد الله بن أحمد بن حنبل ، تحقيق أحمد بن علي الرياشي ، الناشر: دار ابن الجوزي – مصر ، ١٤٢٨ هـ
- كتاب الأسماء والصفات ، الحافظ أبي بكر البيهقي ، تحقيق عبد الله بن محمد الحاشدي ، الناشر: مكتبة السوادي – الرياض
- عقيدة السلف وأصحاب الحديث ، إسماعيل بن عبد الرحمٰن الصابوني ، تحقيق نبيل بن سابق السبكي
- تعظيم قدر الصلاة ، محمد بن نصر المروزي ، تحقيق كمال بن السيد سالم ، الناشر مكتبة العلم – مصر
- شرح السنة ، الحسين بن مسعود البغوي ، تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط ، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، ابن عبد البر النمري ، تحقيق عبد الله بن الصديق ، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب

ثبت لأهم المراجع

- سيرة ابن هشام ، عبد الملك بن هشام الحميري ، الناشر: دار الخير – بيروت
- مسند أبي داود الطيالسي ، سليمان بن داود الطيالسي ، تحقيق د. محمد بن عبد المحسن التركي ، الناشر: دار هجر – مصر
- الزهد ، عبد الله بن المبارك ، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت
- النبوات ، ابن تيمية ، تحقيق د. عبد العزيز الطويان ، الناشر: دار أضواء السلف – الرياض
- العلو للعلي الغفار ، شمس الدين الذهبي ، تخريج أشرف عبد المقصود ، الناشر: مكتبة أضواء السلف – الرياض
- كتاب العرش ، لشمس الدين الذهبي ، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت
- رسالة في إثبات الاستواء والفوقية ، عبد الله بن يوسف الجويني ، تحقيق د. أحمد معاذ حقي ، الناشر: دار طويق – الرياض
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، ابن قيم الجوزية ، تحقيق د. علي بن محمد الدخيل الله ، الناشر: دار العاصمة – الرياض
- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، اختصار: محمد الموصلي ، تحقيق سيد إبراهيم ، الناشر: دار الحديث – القاهرة
- فتاوى الحرم المكي ، الشيخ محمد بن عثيمين ، الناشر: دار طيبة – الرياض
- شرح العقيدة الواسطية ، الشيخ محمد بن عثيمين ، ط ٦ ، الناشر: دار ابن الجوزي – الدمام
- التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ، الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي ، تحقيق أشرف بن عبد المقصود ، الناشر: أضواء السلف – الرياض
- توضيح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ، الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي ، مجموع مؤلفات الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي ، الناشر: مركز ابن صالح الثقافي – عنيزة
- الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الإعتقادات وأصول الديانات ، عثمان بن سعيد الداني ، تحقيق د. محمد بن سعيد القحطاني ، الناشر: دار ابن الجوزي – الدمام
- الاقتصاد في الاعتقاد ، عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي ، تحقيق د. أحمد بن عطية الغامدي ، الناشر: مكتبة العلوم والحكم – المدينة
- شرح ثلاثة الأصول ، محمد بن صالح بن عثيمين ، إعداد: فهد بن ناصر السليمان ، الناشر: دار الثريا – الرياض

- جامع بيان العلم وفضله ، يوسف بن عبد البر النمري ، تحقيق أبي الأشبال الزهيري ، الناشر: دار ابن الجوزي – الدمام
- اقتضاء العلم العمل ، الخطيب البغدادي ، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت
- البداية والنهاية ، ابن كثير ، الناشر: دار ابن كثير – دمشق
- طبقات الحنابلة ، أبي يعلى الفراء ، تحقيق د. عبد الرحمٰن بن سليمان العثيمين ، الناشر: مكتبة العبيكان – الرياض
- سير أعلام النبلاء ، شمس الدين الذهبي ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت
- تاريخ الإسلام ، شمس الدين الذهبي ، تحقيق د. بشار عواد معروف ، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت
- تذكرة الحفاظ ، شمس الدين الذهبي ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت
- وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، الناشر: دار صادر — بيروت

الموضوع
● مقدمة
● مقدمات في الإيمان
○ معنى الإيمان لغة
○ معنى الإيمان شرعا
○ الإيمان يزيد وينقص
○ عناية السلف بمسألة الإيمان
○ شعب الإيمان
○ علامة صدق الإيمان
○ أسباب قوة الإيمان
○ أقسام المؤمنين بحسب إيمانهم

- فوائد الإيمان
- **الركن الأول: الإيمان بالله ، ويتضمن أربعة أمور**
- الأول: الإيمان بوجوده تعالى ، وقد دل على ذلك أربعة أمور:
  - الفطرة
  - العقل
  - الشرع
  - الحس
- الثاني: الإيمان بربوبيته
- الثالث: الإيمان بألوهيته
  - براهين توحيد الألوهية
  - البراهين الشرعية والعقلية على بطلان الشرك
- الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته
  - مدخل

- مقتضيات الإيمان بأسماء الله وصفاته أمران:
  - الأول: فهم الأسماء والصفات كما جاءت
- ذكر بعض الآثار عن السلف في فهم الصفات
- تقريرات بعض أئمة المذاهب في فهم الأسماء والصفات
- أقوال الحنفية
- أقوال الشافعية
- أقوال الحنابلة
- أقوال المالكية
- خلاصة
  - الثاني: التوقف في إثبات الأسماء والصفات على ما جاء في الكتاب والسنة ، وبيان ما يضادها
- ما يضاد الإيمان بأسماء الله وصفاته أقسام ثمانية:
  - التعطيل
  - التمثيل

- التكييف
- التحريف أو التأويل
- التفويض
- تسمية الله بما لم يسم به نفسه ، أو وصفه بما لم يصف به نفسه
- إنكار أن يكون لله أسماء
- اشتقاق أسماء منها للمعبودات الباطلة

- فائدة في أن الإيمان بأسماء الله وصفاته على الوجه اللائق بالله من أفضل الأعمال وأعظم القربات ، وفوائد أخرى
- خاتمة
- ثمرات الإيمان بالله تعالى

- **الركن الثاني: الإيمان بالملائكة**
  - الإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور
    - الأول: الإيمان بوجودهم
    - الثاني: الإيمان بمن علِمنا اسمه منهم
    - الثالث: الإيمان بما علمنا من صفاتهم الخَلقية
    - الرابع: الإيمان بما علِمنا من أعمالهم العامة والخاصة التي يقومون بها امتثالا لأمر الله تعالى
  - ثمرات الإيمان بالملائكة
  - فصل في الرد على بعض من ضل في باب الإيمان بالملائكة
- **الركن الثالث: الإيمان بالكتب**
  - الإيمان بالكتب يتضمن خمسة أمور
    - الإيمان بأنها أنزلت من عند الله حقا
    - الإيمان بما علمنا اسمه منها

- تصديق ما صح من أخبارها
- العمل بأحكام ما لم يُنسخ منها
- الإيمان بأنها تدعو إلى عقيدة واحدة ، وهي التوحيد
  - فصل في بيان أعظم الكتب
  - فائدة في ميزة التوراة على الإنجيل
  - الكتب السماوية متفقة على أمور ومختلفة في أمور
  - الحكمة من إنزال القرآن
  - تَميُّز القرآن العظيم عن غيره من الكتب السماوية
  - وجوه إعجاز القرآن
  - أحد عشر أمرا يُضاد الإيمان بالكتب
- الأول: تكذيبها
- الثاني: تحريفها
- الثالث: معارضة القرآن بالعقول
- الرابع: ادعاء أن القرآن الموجود بأيدي المسلمين اليوم ناقص

- الخامس: تفضيل بعض الأوراد عليه
- السادس: الإعراض عن التحاكم إليه
- السابع: تفسيره بالأهواء والأقوال الباطلة
- الثامن: إهانتهُ كما يفعل السحرة
- التاسع: الإعراض عن العمل بأحكامه
- العاشر: القول بخلق القرآن
- الحادي عشر: عدم الإيمان بالسنة الشريفة
  - ثمرات الإيمان بالكتب
- **الركن الرابع: الإيمان بالرسل**
  - ستة عشر فائدة في النبوات
    - بيان الغاية من إرسال الرسل
    - بيان الفرق بين النبي والرسول
    - أول الرسل نوح

- آخر الرسل والأنبياء محمد ﷺ
- لم تخلُ أمة من رسول يبعثه الله تعالى بشريعة مستقلة إلى قومه
- دعوة الرسل واحدة ، وهي الدعوة إلى توحيد الألوهية
- الرسل بشر اصطفاهم الله لحمل الرسالة
- الرسل بشر مخلوقون ، ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء
- الرسل تلحقهم خصائص البشرية من المرض والموت
- وصَف الله تعالى رسله بالعبودية
- فضل الله بعض النبيين على بعض
- أفضل الرسل هم أولو العزم وهم خمسة
- أفضل الرسل قاطبة هما الخليلين ، إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام
- أفضل الخليلين محمد ﷺ
- فائدة في انقسام الأنبياء إلى عبدٍ رسولٍ ونبيٍّ ملِكٍ ، وأفضلية من كان عبدا رسولا على من كان ملِكا نبيا

▪ الرسل غالبون دائما
○ الإيمان بالرسل يتضمن سبعة أمور
▪ الأول: الإيمان بأن الأنبياء كلهم دينهم واحد
▪ الثاني: الإيمان بهم جميعا من غير تفريق بينهم
▪ الثالث: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم في القرآن أو صحيح السنة
● فائدة في بيان أن الخِضْر كان نبيا عليه السلام
▪ الرابع: التصديق بما صح عنهم من أخبارهم
▪ الخامس: العمل بشريعة من أُرسل إلينا منهم ، وهو محمد ﷺ
▪ السادس: الإيمان بأنهم بلَّغوا جميع ما أرسلوا به
▪ السابع: الإيمان بما أيَّدهم الله به من آيات
○ فصل في بيان نواقض الإيمان بالرسل
▪ الأول: تكذيبهم
▪ الثاني: تكذيب ما جاؤوا به ولو كان جزءا من الشريعة
▪ الثالث: عدم الانقياد لشريعتهم

- الرابع: إيذاؤهم
- الخامس: الغلو فيهم
  - ثمرات الإيمان بالرسل
  - فصل في الرد على شبهة المكذبين بالرسل
  - ملحق يتضمن فائدتان:
    - تقرير أن الخضر كان نبيا ، عليه الصلاة والسلام
    - تقرير أن إخوة يوسف عليه السلام لم يكونوا أنبياء
- **الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر**
  - الإيمان باليوم الآخر يتضمن ستة أمور
    - النفخ في الصور
    - بعث الأجساد
    - حدوث باقي علامات الساعة الكبرى
    - حشر الناس إلى أرض المحشر ، ويحصل فيه أربعة أمور
    - فزع الناس

- دنو الشمس من الخلائق
- ورود الناس على حوض النبي ﷺ
- الشفاعة العظمى
- الحساب والجزاء
- الإيمان بالجنة والنار
  - ذكر بعض مشاهد القيامة
- تطايُر الصحف
- ضرب الصِّراطُ على متنِ جهنم ، وأصناف الناس أثناء مرورهم عليه
- وقوف أناس على قنطرة بين الجنة والنار
- كلام المشركين في مواطن وختمُ الله على أفواههم في مواطن
- اعتذار الكفار إلى الله تعالى
- فصل في شفاعات النبي ﷺ للمؤمنين يوم القيامة
- الأولى: شفاعته للمؤمنين في دخول الجنة
- الثانية: شفاعته لمن لا حساب عليهم ولا عذاب في دخول

الجنة
▪ الثالثة: شفاعته لعصاة المؤمنين ممن دخلوا النار في الخروج منها
▪ الرابعة: شفاعته لعمه أبي طالب لتخفيف العذاب عنه
▪ شفاعات الشفعاء
▪ النوع الأول: شفاعة الرسل لأقوامهم
▪ النوع الثاني: شفاعة المؤمنين
▪ النوع الثالث: فصل في شفاعة الشهداء
▪ النوع الرابع من الشفاعات: شفاعة الأفراط
▪ النوع الخامس: شفاعة الملائكة لعُصاة المؤمنين في الخروج من النار ، وأَنَّ الله تعالى يُخرِجُ أقواما تَكرُّما منه بلا شفاعةٍ من أحد
▪ النوع السادس: شفاعة القرآن
▪ فصل في بيان شرطي قبول الشفاعة
○ فصل في بيان ما يلتحق بالإيمان باليوم الآخر
▪ فتنة القبر

- عذاب القبر ونعيمه
  - من يستحق عذاب القبر
  - فوائد متفرقة تتعلق بعذاب القبر ونعيمه
  - فصل في الرد على من أنكر عذاب القبر
- فصل في الرد على منكري اليوم الآخر
- فائدة في أسماء اليوم الآخر
- ثمرات الإيمان باليوم الآخر

- **الركن السادس: الإيمان بالقدر خيره وشره**

- الإيمان بالقدر يتضمن أربعة أمور
  - العلم
  - الكتابة
  - المشيئة
  - الخلق
- فصل في بيان أنواع التقدير

- التقدير الأزلي
- التقدير العمري
- التقدير الحولي
  - فوائد متفرقة في موضوع الإيمان بالقدر
- الفائدة الأولى – إثبات أن للعبد مشيئة
- الفائدة الثانية – إذا أراد العبد فعل الشر ، فهل يُيسِّره الله له؟
- الفائدة الثالثة – الجمع بين الآيات الواردة في إرادة الله هداية الناس وبين الآيات الواردة في عدم هدايتهم
- الفائدة الرابعة – بيان المراد من وصف القَدَرِ بالشَّرِ
- الفائدة الخامسة – بيان بطلان احتجاج العبد بالقَدَرِ على فعل المعاصي وترك الطاعات
- الفائدة السادسة – وجوب الرضا بما قضاه الله وقدره
- الفائدة السابعة – بيان أحوال العباد إذا جرت عليهم المكاره من الأمور المقدرة
- الفائدة الثامنة – بيان الفرق بين القضاء والقدر

- الفائدة التاسعة – التوقي من الشرور لا يُعدُّ فرارا من قَدَرِ الله
- الفائدة العاشرة – الإيمان بالقضاء والقدر لا ينافي التوكل
- الفائدة الحادية عشرة – بيان ضلال فرقتين في عقيدة الإيمان بالقدر
- الفائدة الثانية عشرة – بيان ثمرات الإيمان بالقدر

- خاتمة ووصية
- فائدة لطيفة قبل الختام
- ثبت لمن أراد التوسع في الإطلاع على عقيدة الإيمان وأركانه وقوادحه ونواقضه
- مراجع الكتاب